بسم الله الرحمن الرحيم

« بقية الليلة الحادية والثلاثين فى آخر الجزء الثانى »

(٥) ثمّ ترامَى الحديث إلى أمْر المُطْعِمين وَالطاعِمين[١] ، والذين يهشُّون[٢] عند المائدة ، والذين يعْبِسُون[٣] ويَجمُون و يُطْرِقون ، والذين يَصْخَبُون[٤] وَيَلْغَطُون ، و يَضْجَرُون وَ يَغْتَاظون .

فقال : أُحبُّ أن أسمعَ فى هذا أكثرَ ما فيه ، و يَمُرَّ بى أعجبُه ، فإنّ فى معرفةِ هٰذا الباب تَهذيباً و إيقاظاً كثيراً .

فكان من الجواب : إنّ الناس قديماً وحديثاً قد خاصوا فى هذا الفنّ خوضاً بعيداً ، وما وَقفوا منه عند حدّ ، لأن الحديث عن الأخلاق المختلِفة بالأمزِجة[٥] المُتَباينة ، والطبائع المتنائية لا يكاد يَنْتَهى إلى غاية يكون فيها شفاء للمستمِع المُستَفيد [و] لا للراوية المُفِيد .

قال : قبل كل شىء أَعْلِمُونا[٦] يا أصحابَنا : الحثُّ على الأكل أحسَن ، أم الإمساك حتى يكون من الأكل ما يكون ؟

فكان [من] الجواب : أن هذه المسئلة بعينها جرَت بالأمس بالرّىّ عند

---

(١) فى (ا) بالطاعمين ، والباء محرفة من الواو كما هو ظاهر من السياق .

(٢) فى (ا) يعشون ، وهو تحريف .

(٣) فى (ا) « يعيشون » ؛ وهو تصحيف .

(٤) فى (ب) « يضجون » .

(٥) فى كلتا النسختين بالأزمنة ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ب) « إعلموا » ؛ وهو تحريف .

ابن عبّاد فتُنُوهِبَ الكلامُ فيها ، وأفضى [إلى] أن الأولى الحثُّ والتأنيسُ والبَسْط والطّلاقة ولينُ اللّفظ وقِلّة التّحديق وإسْجاء الطّرف مع [اللُّطْف] والدّماثة ، من غير دلالةٍ على تكلّفٍ فى ذلك فاضح⁽¹⁾ ولا إمساكٍ⁽²⁾ عنه قادح .

وحكى أبن عبّاد فى هذا الموضع أنّ بعض السّلف قال : الطعامُ أهوَنُ مِنْ أنْ يُحَثّ على تناوُله .

وقال الحسن بن علىّ : الطعام أجلُّ من أن لا يُحَثّ على تناوُله . ومذهبُ الحسَن أحسَن .

قال : ولقد حضرتُ مَوائد ناسٍ لا أظُنُّ بهم البخلَ فلم يحُثُّونِي ولم يَبْسطونى فقَبَضَنى ذلك ، وكأنّ أنقباضى كان بمَعُونَتِهم ، وإن لم يكن بإرادتهم .

قال الوزير : هذه فائدة من هذا الرجل الّذى يُتهادَى قوله ، وتُترَاوَى أخبارُه⁽³⁾ .

ثم حكيتُ له أن أسماء بنَ حارجةَ قال : ما صنعتُ طعاماً قطّ فدَعَوْتُ عليه نَفَراً إلّا كانوا أمنّ علىّ مِنّى عليهم . فقال : زدنا من هذا الضرب ما كان ، قلتُ : لو أُذِن لى فى جَمْعه كان أوْلَى ؛ قال : لك⁽⁴⁾ ذلك فما يَضُرُّنا⁽⁵⁾ أن تُطْرِبَ آذانَنا بما تَهْوَى نُفوسُنا .

فكان من الجواب أنّ الجاحظ قد أتَى على جمهَرَة هذا الباب إلّا ما شَذّ عنه

---

(١) فى (ا) ناصح ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « الإمساك » ولا يستقيم به المعنى .
(٣) فى (ا) ويتراوى اختياره .
(٤) فى (ا) « إلى » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى (ا) « ينصرنا » ؛ وهو تحريف .

مِمَّا لم يَقَعْ إليــه ، فإن العالِمَ — وإن كان بارعاً — ليس يجوز أن يُظَنّ [به] أنهُ قد أحاط بكلّ باب ، أو بالباب الواحد إلى آخره ؛ على أنّه حَدَث من عَهْد الجاحظ إلى وَقْتنا هذا أُمُورٌ وأمور ، وهَنَاتٌ وهَنَاتٌ ، وَغرائبُ وعَجَائب ، لأنّ الناس يَكتَسبون على رَأس كلّ مائة سنةٍ عادةً جديدة ، وخليقةً غيرَ مَعْهودةٍ ، و بَدْء هذه المِئين[1] هو الوقت الذى فيه تَنْعَقد شريعة ، وتظهر نبوّة ، وتَفْشو أحكام ، وتَسْتَقِرُّ سُنَن ، وتُؤْلَفُ أحوالٌ[2] بعد فطامٍ شديد ، وتلكُّؤٍ واقع ؛ ثم على أستئنان ذلك يكون ما يكون .

وقال مَيْمون بنُ مِهْرَان : مَن ضافَ البخيلَ صامَتْ دابّتُه ، وأستَغْنَى عن الكَنِيف ، وأمِنَ التُّخَمة .

وقال حامد[3] اللَّفَّاف المتزهِّد[4] : المرائى إذا ضاف إنساناً حدّثه بسَخاوة إبراهيم ، وإذا ضافَه إنسانٌ حدّثَه بزُهد عيسى بنِ مَرْيَم .

وقال مالك[5] بن دينار : دَخَلْنا على أبن سِيرِينَ فقال : ما أدْرِى ما أُطْعِمُكم ؟ ثم قَدّم[6] إلينا شُهْدَة .

وقال الأعمش : كانَ خَيْثَمة يَصْنَع الخَبِيصَ ثم يقول : كُلُوا فوالله ما صُنِعَ إلاّ من أجْلِكم .

وقال بكْر بنُ عبدِالله المُزَنِى[7] : أحَقُّ الناس بلَطْمَةٍ مَن إذا دُعِىَ إلى طَعام

(١) فى (ا) « وبدهره المتين » . وفى (ب) « وبدهذه المبين » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام . (٢) فى (ب) « أحكام » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا فى كلا الأصلين ؛ وقد وردت هذه الكلمة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٦٩ منسوبة إلى حاتم ، أى حاتم الأصم .

(٤) فى (ب) « الزاهد » (٥) فى (ا) « خالد » ؛ وهو تبديل من الناسخ .

(٦) فى (ب) « أخرج » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٧) فى (ا) « المزء » ؛ وهو تحريف .

ذَهبَ بآخَر معه ، وأحقُّهم بلَطْمَتين مَن إذا قيل له : اجلِس هَا هنا قال : بل هاهنا ؛ وأحقُّ الناس بثلاثِ لَطَمات مَنْ إذا قيل له : كُلْ ، قال : ما بالُ صاحِبِ البَيْتِ لا يأ كُلُ مَعَنا .

وقال إبراهيم بنُ الجُنَيْد[1] : كان يقال : أربع لا يَنْبَغي لِشريف أن يأنَف منهُنَّ وإن كان أميراً : قِيامُه مِن مجلسه لأبيه ، وخِدْمَتُه للعالِم يَتعلّمُ منه ، والسؤالُ عمّا لا يَعْلم ممن هو أعلمُ منه ، وخِدْمَةُ الضيف بنفسِه إكراماً له .

وقال حاتم الأصمّ : كان يقال العَجَلة من الشيطان إلا فى خمس ، فإنها من سُنّة رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : إطعامِ الضَّيف إذا حَلّ ، وتجهيزِ الميِّت إذا مات ، وتَزْويجِ البِكْر إذا أدْرَكتْ ، وقضاء الدَّين إذا حَلّ وَوَجَب ، والتَّوْبة من الذَّنب إذا وَقَع .

وقال النبى صلى الله عليه وسلّم : « ليلةُ الضَّيفِ حقٌّ واجبٌ على كلّ مُسْلم ، فمن أصْبَحَ بِفِنائِه فهو أحَقُّ به إن شاء أخَذَ ، وإن شاء تَرَكَ » .

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد وفى يدها قَدَح ، فسألتْ عسلاً وقالت : زَوْجي مريض ؛ فأمر لها براوِيَةِ عَسَل[2] ؛ فقالوا : يا أبا الحرث : إنما تسأل قَدَحا . قال : سألتْ على قَدْرِها ونُعْطيها على قَدْرِنا .

خَرَجَ ابنُ المُبارَك يوماً إلى أصحابه ، فقال لهم : نَزَلَ بنا ضَيْفٌ اليومَ فقالَ : اتخذوا لى فالوذجاً ؛ فسُرِرنا ذلك منه

(١) فى (ا) « ابن الحنبل » ، وهو تصحيف . وقد سبق كلامه هذا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب صفحة ٦٨ سطر ١١ .

(٢) هذه الكلمة فى (ا) لم يظهر منها إلا بعض حروفها وفى (ب) مطموسة كلها .

وقال الحسنُ في الرَّجُل يَدْخُلُ بَيْتَ أخيه فيرى السَّلَّة فيها الفاكهة : لا بأسَ أنْ يأكلَ مِنْ غير أن يَسْتَأذِنَه .

وقال ابنُ عمر : أُهْدِيَتْ لرجلٍ من أصحاب النبي — صلى الله عليه وعلى آله — شاةٌ فقال : أخي فلانٌ أحْوَجُ إليها ، وبَعث بها إليه ، فلم يَزَلْ[1] يَبعث بها واحدٌ بعد واحد حتى تداولها تسعةُ أبيات ، ورَجَعَتْ إلى الأوّل ، فنزلت الآية : (وَيُؤْثِرُونَ على أنفسِهِمْ ولوْ كان بِهِمْ خَصاصَةٌ) .

قال أبو سعيد الخُدْرِيّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له ظَهرٌ فليَعُدْ على من لا ظَهْرَ له ؛ ومن كان له زادٌ فَلْيَعُدْ على من لا زادَ له ، حتى رأينا أنه لا حَقَّ لأحدٍ منّا في الفَضْل[2] » .

وسُئِلَ ابنُ عُمَرَ . ما حَقُّ المُسْلِم على المُسْلِم ؟ قال : ألّا يَشْبَعَ ويَجُوع ، وألاّ يَلْبَسَ ويَعرَى ، وأنْ يواسِيَه بِبيضائِه وصَفرائه .

وكان ابنُ أبي بَكرةَ يُنفق على جيرانِه أربعين داراً سِوَى سائرِ نفقاتِه ، وكان يَبْعَث إليهم بالأضاحيِّ والكسوة في الأعياد ، وكان يعْتِق في كلِّ يومِ عيدٍ مائةَ مملوك .

وكان حَمّاد بنُ أبي سُليمان يُفطِّر كلَّ ليلةٍ مِن شهر رمضان خمسين إنساناً ، وإذا كان يوم الفِطرِ كَساهم ثَوْباً ثَوْباً وأعطاهم مائة مائة .

وقال الشاعر :

أراكَ تؤمِّل حُسْنَ الثَّناء ... ولم يَرْزُق اللهُ ذاكَ البَخيلا

(١) سياق الكلام يفيد أن الثاني قال مثل ما قال الأول وبعث بالشاة إلى أخ ثالث ، وحذف ذلك للعلم به .

(٢) يريد بالفضل هنا : ما فضل من المال وزاد .

وكيف يسود أخو بطنةٍ يَمُنُّ[١] كثيراً ويُعطي قَليلا

وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : « تجافَوا عن ذَنْب السَّخِيِّ ، فإن الله يأخذُ بيَدِه كلَّما عَثَر » .

وقال عليه السلام : « من أدَّى الزَّكاة ، وقَرَى الضَّيف ، وآوَى[٢] في النائبة ، فقد وُقِيَ شُحَّ نفسه » .

وقالت أمُّ البَنين أختُ عمرَ بنِ عَبْدِ العزيز : أفٍّ للبُخْل ، لوكان طريقاً ما سَلَكْتُه ، ولو كان ثوباً ما لبِسْتُه ، ولو كان سِراجاً ما استضأتُ به .

وقال الأصمعيّ : قال بعضُ العَرب : ليست الفتوّةُ الفِسقَ ولا الفُجُور ، ولا شُربَ الخُمور ، وإنما الفُتوّةُ طَعامٌ موضوع ، وصنيع مصنُوع ، ومكانٌ مرْفوع ، ولسانٌ مَعْسُول ، ونائل مبذول ، وعَفاف مَعروف ، وأذًى مكفوف .

وقال أبو حازم الدنيّ : أسعَدُ النَّاس بالخُلق الحَسَن صاحبُه ، نَفْسُه منه في راحة ، ثم زَوْجَتُه ، ثم وَلَدُه ، حتى إن فرَسَهُ ليَصْهَل إذا سمع صَوْتَه ، وكلْبَه يُشَرْشِرُ بذَنبه إذا رآه ، وقطّه يدخل [تحت] مائدته ، وإنَّ السّيِّء الخُلُق لأشقى الناس ، نَفْسُه منه في بَلاء ، ثم زَوْجَتُه ، ثم وَلَدُه ، ثم خَدَمُه ، وإنّه ليَدْخُل وهم في سُرُور فيتفرّقون فرَقاً منه ، وإنّ دابّته لتحيد عنه إذا رأته ، ممّا تَرَى منه ، وكلْبَه يَنْزُو على الجدار ، وقِطّه يفرُّ منه .

وكان على باب ابن كيسانَ مكتوب : ادْخُلْ وَكُلْ .

(١) هذه الكلمة مطموسة في (١) ولم يظهر منها في (ب) غير النون ؛ وما أثبتناه هو المناسب للسياق .

(٢) في (١) وأدى ؛ وهو تحريف .

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول فى بكائها [على النبى صلى الله عليه وسلم] : بأبى مَنْ لم يَنمْ على الوَثير ، ولم يَشْبَع مِن خُبز الشَّعير .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله لم يخلق وِعاءً مُلئَ شرًّا من بَطْنٍ ، فإن كان لا بُدَّ فاجْعَلوا ثُلُثاً للطعام ، وثُلُثاً للشراب ، وثُلُثاً للرِّيح » .

قال الشاعر :

ليسوا يُبَالون إذا أصْبَحُوا شِبْعَى بِطاناً حَقّ مَنْ ضَيَّعُوا(١)

ولا يُبَالُون بِمَوْلاهُمُ والكَلْبُ فى أموالهم يَرْتَع

وحَكى لنا أبو بكر أحْمَدُ بنُ إبراهيمَ بجُرْجانَ [إمامُ الدُّنيا] قال : رأيتُ أبا خليفة المفضَّلَ(٢) بن الحُباب ، وقد دُعِىَ إلى وَليمةٍ فرأى الصِّحاف تُوضَعُ وتُرْفَعُ ، فقال : ألِلحُسْنِ والمَنْظَرِ دُعِينا ، أمْ للأكل والمَخْبَر ؟ فقيل : بل للأكل والمخبر ، قال : فاتركوا الصَّحْفَةَ يَبْلُغْ قَعْرُها .

وكان سليمانُ بنُ ثَوَابَةَ ضَخْمَ الخِوان ، كثيرَ الطَّعام ، وافرَ الرَّغيف ، وكان مُعجَباً بإجادة الألوان ، واتِّخاذ البدائعِ والطَّرائفِ والغرائِبِ على مائدته ؛ وكانت له ضُروبٌ من الحَلْوَى لا تُعرفُ إلّا به ، وكان خُبزُه الذى يُوضع على المائدة الرغيفُ من مَكّوكٍ(٣) دَقيق ، ولذلك قال أبو فرعون العَدَوىّ :

ما النَّاسُ إلا نَبطٌ وخُوزَانْ(٤) كَكَهْمَسٍ أو عمرَ بن عمرانْ

(١) فى (ا) « صنعوا » ؛ وهو تصحيف .
(٢) فى (ا) المفضل بن الحيان ؛ وهو تحريف .
(٣) المكوك : من مكاييل العراق ، وهو صاع ونصف أو هو ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة أثمان منا ، والمنا رطلان .
(٤) لعله يريد بالخوازن : أهل خوزستان ، وهم — فيما يقال — ألأم الناس وأسقطهم نفوساً .

ضاق[1] جرابى عن رغيف سلمان[2] أ ُ حمار فى حِرِ أمِّ قحطانْ
وأيرُ بغلٍ فى أستِ أمِّ عدنان

(٣) . . . .

وعَشِقَ رَجُلٌ جاريةً رُوميّة كانت لقوم ذَوِى يسار ، فكتبَ إليها يوماً : جُعِلتُ فِدَاكِ ، عندى اليومَ أصحابى ، وقد اشتهيت سكباجةً[4] بقريةً فأحبُّ أن توجِّهى إلينا بما يَعُمّنا ويكفينا منها ، ودَسْتَجَةً[5] من نبيذٍ لنتغذّى ونشرَبَ على ذِكْرِكِ ، فلما وَصَلَتِ الرُّقعةُ وَجّهَتْ إليه بما طَلَب ؛ ثم كتَب إليها يوماً آخر : فَدَتْكِ نفسِى ، إخوانى مجتمعون عندى ، وقد اشتَهَيت قَلِيّةً جَزُوريّةً فوَجِّهى بها إلىّ وما يَكْفينا من النَّبيذ والنُّقْل ، ليعرفوا مَنزلَتِى عِندَكِ ، فوجَّهَتْ إليه بكل ما سَأل ؛ ثم كتب إليها يوماً آخَر : جُعِلْتُ فِدَاكِ ، قد اشتهيتُ أنا وأصحابى رءوسًا سمانًا ، فأحِبُّ أن توجِّهى إلينا بما يَكفِينا ، ومن النبيذ بما يُرْوينا ؛ فكَتَبَت الجارية عند ذلك : إنِّى رأيتُ الحبَّ يَكونُ فى القَلْب ، وحُبّك هٰذا ما تجاوز المعدة . وكَتَبَتْ أسفَلَ الرُّقعة :

عَذِيرِى من حَبِيبٍ[6] جا ءنا فى زَمَنِ الشِّدّةْ

(١) فى (ا) صار ؛ وهو تحريف .
(٢) سلمان ، أى سليمان ؛ وهى لغة فيه .
(٣) ورد موضع هذه النقط فى (ا) وحدها كلام هنا نصه : انزل بقوم قفرة صيام ولم يأتوه به ولكن دلوه على موضعه ، وقالوا له : اذهب ما منه وكأنه يذم أم مبواء :

إذا دعيت بما فى البيت قالت نحن من الجدال وما حييت

ولا يخفى ما فى هذا كله من التحريف الكثير وقد بحثنا عنه فى مختلف المصادر التى بين أيدينا فلم نجده .
(٤) السكباجة : مرق يصنع من اللحم والخلّ .
(٥) وردت هذه الكلمة فى (ا) مهملة الحروف من النقط ، وفى (ب) « دسجة » ؛ والصواب ما أثبتنا . والدستجة : إناء كبير من زجاج فارسيته دسته .
(٦) فى (ا) « حيث » ؛ وهو تصحيف .

وكان الحُبُّ فى القَلبِ فصارَ الحُبُّ فى المِعْدَهْ

وقال جرير :(١)

ولا يَذْبَحُونَ الشاةَ إلا بمَيْسِرٍ(٢) كثيرٌ تَناجيها لِئامٌ قُدُورُها

وقالت عادِيَة(٣) بنتُ فَرْعَةَ الزّبيرِيّة فى ابنها دَوْس :

تَشْبُهُ(٤) دَوْسُ نفراً كراما
كانوا الذُّرَى والأنف والسّناما
كانوا لمن خالَطهم إدَامَا
كالسّمْن لمّا سَغْبَلَ الطعاما

يقال سَغْبَلَ رأسَه [بالدُّهْن] وسَغْسَغه(٥) ورَوّاه وأمرعه(٦) .

قال الواقدىّ : قيل لأمّ أيوبَ : أىُّ الطّعامِ كانَ أحَبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم : فقد عرَفتم ذلك بمُقامه عندكم ؟ فقالت : ما رأيتُه أمَرَ بطعامٍ

---

(١) البيت لغسان بن ذهل يهجو جريرا وقبله :

لعمرى لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى كليبا جريرها
إذا نزعت يوما كليب وسومت تقاعس فى ظهر الأتان مغيرها
رأيت كليبا يعرف اللؤم ريحها إذا اسود بين الأملحين جمورها
ولا يذبحون الشاة الخ ...

انظر الجزء الأول من ديوان جرير ص ١٣٤ طبع المطبعة العلمية .

(٢) فى (١) « بمئزر » ؛ وفى (ب) « بمنسر » بالنون وهو تحريف فى كلتا النسختين والتصويب عن ديوان جرير ج ١ ص ١٣٤ طبع المطبعة العلمية . يريد أن ذبح الشاة عندهم أمر ذو بال لا يفعلونه إلا بواسطة قداح الميسر التى يشترك فيها الجميع وتفرق بينهم كل بنصيبه كما يذبح الجزور فى زمن الجدب والقحط .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى كلتا النسختين .

(٤) فى (١) « أسنه » ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ب) « وسمسمه » بمهملتين ؛ والمعنى واحد .

(٦) كذا فى (ب) وكتب اللغة والذى فى (١) « وأمرغه » بالغين المعجمة .

يُصنَع له بعَيْنِه ، ولا رأيناه أُتِي بطعام فعابه قطّ . وقد أخبرنى أبو أيوب أنه تَعَشَّى عنده ليلةً من قَصْعَة أرسلَ بها سعدُ بن عُبادة [فيها] طَفَيْشَل(١) فرأيتُه ينهك تلك القَصْعة(٢) ما لم يَنْهَكْ غيرها ، فرجع إلىّ فأخبرنى ، فكنا نَعْمَلُها له . وكنا نَعمَل له الهريسة ، وكانت تُعْجبه ، وكان يحضر عَشاءه(٣) من خمسة إلى ستةٍ إلى عَشرة كما يكون الطعام فى القِلة والكَثْرة .

وكان أسعد بن زرارة يَعْمل له هَرِيسةً ليلةً وليلةً لا ، فكان رَسُول الله صلى الله عليه وسلّم يَسأل عنها ؛ أجاءت قصعة أسعد أم لا ؟ فيقال نعم ، فيقول : هَلُمُّوها ؛ فنعرف بذلك أنّها تُعْجبه

قَدِمَ صُهَيْب على رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقُباء ومعه أبو بكرٍ وعُمر ، بين أيديهم رُطَبٌ قد جاءهم به كُلثوم بن الهِدْم(٤) أُمّهاتُ جَراذِين(٥) وصُهَيْبٌ قد رَمِدَ فى الطَّريق ، وأصابَتْه مَجاعةٌ شديدة ، فوَقَع فى الرُّطَب ؛ قال صُهَيْب : فجَعَلتُ آكُل ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا ترى إلى صهيب يَأكلُ الرُّطبَ وهُوَ رَمِد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « أتأكُلُ الرُّطَبَ وَأنْتَ رَمِد ؟ » فقال صهيب : أنا آكل بشقّ عينى الصحيحة ، فتَبَسَّمَ [رسول الله] صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) الطفيشل : نوع من المرق .

(٢) فى (ا) القدر ؛ وهو تبديل من الناسخ .

(٣) فى (ب) « عنده » .

(٤) فى (ا) « ابن مبروم » ؛ وفى (ب) ابن الهرم ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين والتصويب عن كتب اللغة ومعجمات الأعلام التى بين أيدينا .

(٥) فى (ا) حرافين ؛ وفى (ب) حرادين ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ؛ والتصويب عن كتب اللغة وكتب الحديث ، وأم جرزان : نوع من الرطب كبار ، وسمى بذلك لأن نخله يجتمع تحته الجرزان لحلاوة ثمره . وأم جرزان آخر نخلة بالحجاز إدراكا ، وهى أم جرزان رطبا ، فإذا جفت فهى الكبيس .

وقال الأعشى :

لو أُطعِموا المَنَّ والسَّلْوَى مَكانَهمُ ما أبْصَرَ الناسُ طُعْمًا فيهمُ نَجَعا

وقال الكُمَيْت :

وما استُنْزِلَتْ فى غيرِنا قِدْرُ جارِنا ولا ثُفِّيَتْ إلاّ بنا حِينَ تُنْصَبُ

يقول إذا جاوَرَنا جارٌ لم نُكلِّفْه أن يَطْبُخَ مِنْ عنده ، ويكون ما يَطْبُخه مِن عندِنا مما نُعْطِيه من اللَّحْمِ لِيَنْصُبَ[1] قِدْرَه . ويقال الحَيْسِ[2] سَوِيطَةَ[3] . وقال : الرَّغِيفَة[4] لبن يُطْبخ . وقال : هى العصيدة ، ثم الحَرِيرة[5] ثم النَّجِيرة[6] ، ثم الحَسُوُ[7] . واللُّوقَة : الرُّطَب بالسَّمْنِ[8] ، والسَّلِيقَة : الذُّرَة تُدَقُّ وتُصْلَح باللبَن ، والرَّصِيعَة[9] : البُرُّ يُدَقُّ بالفِهْرِ وَيُبَلُّ ويطبخُ بشَىْء من السَّمْن ، والوَجِيئة : التَّمرُ يُوجَأُ ثم يُؤكل باللَّبَن .

وقال أعرابىّ : ليس من الألبان أحْلَى من لبن الخَلِفَة[10] .

---

(١) فى (ب) « ينضب » ؛ وهو تحريف .

(٢) الحيس تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً ثم يخرج منه نواه .

(٣) السويطة : من السوط وهو الخلط ؛ وفى (١) « الصريطة » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى اللسان أن « الرغيفة » : حسو من الزبد ؛ وقيل : لبن يغلى ويذر عليه دقيق .

(٥) فى اللسان أن « الحريرة » دقيق يطبخ بلبن أو دسم

(٦) فى اللسان : أن النجيرة لبن وطحين يخلطان ؛ وقيل : هى لبن حليب عليه سمن . وقيل : هى ماء وطحين يطبخ . والنجيرة : بين الحسو وبين العصيدة . والذى فى كلتا النسختين « النجبرة » ؛ وهو تصحيف .

(٧) الحسو : طعام يعمل من الدقيق والماء .

(٨) وقيل : إن اللوقة الزبدة .

(٩) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مضطربة الحروف فى رسمها . وقد قلبناها على عدة وجوه ، وهذا الذى أثبتناه هو ما وجدناه فى كتب اللغة بالمعنى الذى ذكره المؤلف هنا .

(١٠) الخلفة : المخاض من النياق .

والنَّخِيسة والقَطِيبَةُ يُخْلَط لبن إبلٍ بلبَن غَنَمٍ (١) .

وقال أعرابيّ : الحمد لله الذى أغنانا باللَّبَن عمَّا سِواه . ويقال أكل خبزاً قَفاراً وعَفاراً وعَفيراً : لا شىء معه (٢) وعليه العَفَار والدَّمار وسُوء الدار (٣) ؛ وأكلَ خُبْزاً جبيزاً (٤) أى فَطِيراً (٥) يابساً . وجاء بتَمر فَضٍ (٦) وفَضًا وَفَذٍ وحَتٍّ (٧) : لا يَلْزَقُ بَعْضُه ببعض .

قال أبو الحسن الطُّوسىّ : أخبرنى هشام قال : دَخَلَ علىّ فَرَجٌ الرُّخَّجِىُّ وقد تَغَدَّيْتُ واتَّكَأْتُ ، فقال : يا أبا عبدالله : إنَّما تُحْسِنُ الأكلَ والاتِّكاء . [قال] : فتركتُ [الأكلَ] عنده أيَّامًا ، و بلغه ذلك ، فبَعَثَ إلىّ : إن كُنْتَ لا تأكُلُ طَعامَنا فليس لنا فيك حاجَة . قال : « فأكلتُ (٨) شيئًا ثم أتَيتُه » فلَم يَعْتَذر ممّا كان .

---

(١) فى كتب اللغة أن « النخيسة » و « القطيبة » لبن الماعز يخلط بلبن الضأن ، لا لبن ابل كما هنا .

(٢) عبارة النويرى « لا أدم معه » .

(٣) فى (١) « وشواء النار » .

(٤) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مصحفة الحروف يحتاج إصلاحها إلى بحث فى كتب اللغة . وهذا الذى أثبتناه هو ما وجدناه فى تلك الكتب بالمعنى المذكور هنا ، وهو الخبز اليابس .

(٥) « الفطير » هو الذى أعجل قبل أن يختمر .

(٦) كذا فى كتب اللغة ، وقد وردت هاتان الكلمتان فى كلتا النسختين مصحفتى الحروف يحتاج إصلاحهما إلى تقليبهما على عدة وجوه .

(٧) فى كلتا النسختين ، « وقد وحاء حب » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين ، وما أثبتناه عن كتب اللغة .

(٨) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى كلتا النسختين مضطربة الحروف ، تتعذر قراءتها ، والسياق يقتضى إثباتها على هذا الوجه .

قال أبو الحسن : أخبرنى الفَرّاء قال : العرب تسمّى السَّكْبَاجَة(١) الصَّنْفَصَة . وأنْشَدَ :

أبو مالكٍ يَعْتَادُنا فى الظّهائِرِ يَجُوء فيَلْقِى رَحْلَهُ عِنْدَ عامِرِ(٢)

أبو مالك : الجوع ، هكذا تقول العرب ويَجِىء(٢) ويَجُوء لغتان .
وقال الآخر :

رأيتُ الغوانى إذ نَزَلْتَ جَفَوْننى أبا مالكٍ إنى أظُنُّكَ دائبا(٣)

أبو مالك ها هنا الشَّيْب .

قال أبو الحسن : أخبرنى التَّوْرِىّ(٤) عن أبى عُبَيْدَة فى الحديث الذى يُرْوَى عن عمرَ بن الخطاب أنّه رَأى فى رَوْثِ فَرَسِهِ حَبَّةَ شَعِير ، فقال : لأجعلنّ(٥) لك فى غَرَزِ(٦) النَّقِيع ما يَشْغَلُك عن شَعِيرِ المُسْلمين . قال : والنقيع : موضع بالمدينة أحماهُ عمر [بن الخطّاب] لخيل المسلمين ، خِلاف البَقِيع بالباء .

قال الطّوسِىُّ : العرب تقول : « أيدِى الرِّجال أعناقُها » أى مَن كان أطولَ يداً على المائدةِ تناوَل فأكل ، الهاء تَرْجِــع على الإبل ، أى أيدى الرجال أعناق الإبل ، أى مَنْ طالَ نال .

قال الأصمعىّ : سألت بعضَ الأكَلَة فيمَن كان يُقدِم على مُيَسَّرِى

(١) السكباجة : مرق يعمل من اللحم والخل .
(٢) عامر : من أسماء الخبز ، ويسمى أيضاً جابرا وعاصما . والذى فى الأصل : يجوّ مكان « يجوء » . . . ويجىّ ويجوّ فى التفسير بعد ؛ وهو تحريف ، والتصويب عن اللسان . وفى كتاب ما يعول عليه « يلم فيلقى » . وجابر مكان « عامر » .
(٣) فى كلتا النسختين « دانيا » ؛ وهو تصحيف . والتصويب عن اللسان وما يعول عليه وروايته فى كلا الكتابين : أبا مالك إن الغوانى هجرننى أبا مالك الخ
(٤) فى (ب) التوزى ؛ والثورى ، والتوزى ، كلاهما معروف .
(٥) فى (١) لأجعلنك . (٦) الغرز بالتحريك : نبات يشبه الثمام ينبت على شواطىء الأنهار ، وفى كلتا النسختين عزيز ؛ وهو تصحيف .

الناس كيف تَصْنَع إذا جَهَدَتْكَ الكِظَّة — والعرَبُ تقول : « إذا كنتَ بَطِناً فعُدَّكَ زَمِناً — ؟ قال : آخُذُ رَوْثاً حارًّا وأَعْصِرُه وأشرب ماءه ، فأَخْتَلِفُ[١] عنه مِراراً ، فلا أَلْبَثُ أن يَلْحَقَ بَطْنى [بِظَهْرِى] فأشتهى الطعام .

قال ابن الأعرابى : قال الكلابىّ : هو يَنْدِفُ الطَّعامَ إذا أكَلَهُ بيدِه ، ويَلْقَمُ الحَسُوّ ، واللَّقْمُ بالشَّفَة ، والنَّدْفُ : الأكْلُ باليد . وقال الزبيرىّ : يَنْدِف[٢] .

وأنشد ابن الأعرابىّ :

ويَظَلُّ ضَيْفُ بَنِى عُبَادَةَ فِيهِمُ مُتَضَمِّرًا وبطُونُهُمْ كُتُمُ

أى مُمْتَلِئة . والتَّضَمُّرُ : الهُزال والنَّحافَةُ ، كالنخل المُصَمَّرِ ، أى الذى قد ذَوَتْ[٣] جُذُوعهُ . قال الشَّنَبُوذىّ فى قول الله تعالى[٤] : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أعْمالًا [الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحَياةِ الدُّنْيا]) . قال : الذين يَثْرُدُون ويأكُلُ غيرُهُمْ . قال أبو الحسن : كانت لى أبنة تجلِسُ مَعى على المائدةِ فتُبْرِزُ كفًّا كأنها طَلْعَةٌ ، فى ذِرَاعٍ كأنَّها جُمَّارَة ، فلا تقع عينُها على أكلةٍ نفيسَةٍ إلّا خَصَّتْنِى بها ، فزَوَّجْتُهَا ، وصار يجلسُ مَعى على المائدةِ أبنٌ لى ، فيُبْرِزُ لى كفًّا كأنَّها كِرْنَافة[٥] ، فى ذراعٍ كأنها كَرَبَة[٦] ، فوالله إنْ[٧] تَسْبِقُ

(١) يقال : اختلف إلى الخلاء ، إذا أصابه إسهال فتردد إليه .
(٢) يظهر أن فى هذه العبارة نقصا وقع من الناسخ .
(٣) فى (١) « وقت » بالواو ؛ وهو تحريف ، ولعل صوابه «رقت» بالراء مع تشديد القاف . وفى (ب) «درت» بالدال المهملة والراء ؛ وهو تحريف أيضاً ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، كما يقتضيه سياق الكلام . (٤) فى (ب) فى قوله عز وجل .
(٥) الكرنافة : أصول الكرب التى تبقى فى جذع النخلة بعد قطع السعف .
(٦) الكربة بالتحريك : أصول السعف الغلاظ العراض التى تقطع منها .
(٧) إن تسبق ، أى ما تسبق ؛ فإن هنا نافية .

عيني إلى لُقمةٍ طَيِّبَةٍ إلاّ سبقَتْ يدُه إليها .

وقال أعرابيٌّ للنبي صلى الله عليه وسلّم : إني نَذَرْتُ إذا بَلّغَتْنِي نَاقَتِي أن أنحَرَهَا وآكُلَ مِنْ كَبِدِهَا . قال : « بئسما جازَيْتها » .

أضلّ أعرابيٌّ بعيراً له ، فطلبه ، فرأى على باب الأمير بُخْتيًّا ، فأخذه وقال : هذا بعيري ، فقال : إنّك أضلَلْتَ بعيراً وهذا بُخْتِيّ . فقال : لَمّا أَكَلَ عَلَفَ الأمير تبَخّتَ . فضحك منه وتركه [يعيدُ قولَه ويُعْجِبُه] .

السكِدْنَةُ : غِلَظُ اللّحْمِ وتَراكُمُه ، ومنه قول هشامٍ لسالمٍ — وقد رآه فأعجبه جسمُهُ — : ما رأيتُ ذا كِدْنَةٍ أحْسَنَ مِنْك ، فما طعامُك ؟ قال : الخُبْزُ والزَّيْتُ . قال : أما تأجمه[1] ؟ قال : إذا أَجَمْتُه تركتُه حتى أشتهِيَه ، ثم خرج وقد أصاب في جسمه بَرَصاً . فقال لَقِعَنِي[2] الأحْوَلُ بعينه ، فما خَرَجَ هِشَام من المدينة حتى صلّى عليه .

وقال عبد الأعلى القاص[3] : الفقير مَرَقَتُه سِلْقَة ، وغِذاؤه[4] عُلْقَة[5] ، وخُبْزَتُهُ فِلْقَة[5] ، وسَمَكَتُهُ شِلْقَة ، أي كثيرة الشَّوْكِ[6] .

قال رجاء بن سَلَمَة : الأَكْلُ في السُّوقِ حَماقة .

قيل لذُوَيْب بن عَمْرو : إنك مُفْلِسٌ لا تَقْدر على قُرْصٍ ولا جُمْعٍ[7]

(١) أجم الطعام : مله .
(٢) لقعه بعينه ، أي أصابه بها .
(٣) في ب « القاضي » بالضاد المعجمة ؛ وفي (ا) العاص بالعين المهملة .
(٤) في (ا) « ورداؤه » ، وفي ب « وعداؤه » وهو تصحيف .
(٥) العلقة : ما يتبلغ به من الطعام . والفلقة : القطعة ، كالفلذة .
(٦) في كتب اللغة أن الشلقة شيء على خلقة السمك صغير له رجلان عند ذنبه كهيئة الضفدع ، ويكون في أنهار البصرة ، ولعله المعروف عندنا بأبي جلنبو .
(٧) الجمع بضم الجيم وسكون الميم : ما يملأ جمع الكف ، أي قبضته من الطعام ونحوه .

وقال مُهَلْهِل :

إنا لنَضْرِبُ بالسيوفِ رُءوسَهُمْ ضَرْبَ القُدَارِ نَقِيعَةَ القُدَّامِ

القُدَار: الجزّار والقُدَار: المَلِكُ أيضاً. والقُدَّام: رؤساء الجيوش، والواحد قادم.

وقال مَعْن[1] بن أوس يصف هَدِيرَ قِدْرٍ:

إذا التَطَمَتْ[2] أمواجُها فكأنها عوائذُ دُهْمٌ فى المَحَلَّةِ قُيَّلُ

إذا ما أُنتحاها المُرْمِلون[3] رأيتَها لِوَشْكِ قِرَاها وهى بالجَزْلِ تُشْعَلُ

سمعتَ لها لَغْطاً[4] إذا ما تَغَطْمَطتْ كَهَدْرِ الجِمَالِ رُزَّماً حين تَجْفُلُ

وقال آخر :

إذا كان فَصْدُ العِرْقِ والعِرْقُ ناضِبٌ وكَشْطُ سَنَامِ الحىِّ عَيْشاً[5] وَمَغْنَما

(١) كذا فى (ب)، والذى فى (ا) «بكر». وقد ورد هذا الشعر فى ديوان معن بن أوس المطبوع فى ليبزج سنة ١٩٠٣ من قصيدة يمدح بها سعيد بن العاص؛ وأولها:

إليك سعيد الخير جابت مطيتى فروج الفيافى وهى عوجاء ميهل

(٢) يريد بالتطام الأمواج هنا اضطراب ما فى القدر عند غليانها. ويريد بقوله «عوائذ دهم» خيلا سوداً حديثات النتاج. شبه القدور بتلك الخيل التى معها أولادها. وقيل: من القائلة. ويروى «عواتب» مكان قوله «عوائذ»، وهى التى تمشى على ثلاث قوائم وعقرت رابعتها. شبّه القدر بها، لأنها توضع على أثافّ ثلاث.

(٣) المرملون: الذين نفدت أزوادهم. والجزل: الحطب الغليظ. والذى فى كلتا النسختين: «إذا ما امتطاها الموقدون»؛ وهو تحريف.

(٤) اللغط (بفتح أوله وتسكين ثانيه): اللغط بفتحهما معا، وهو نشيش القدر. وفى كلتا النسختين: «لفظا»؛ وهو تحريف. والتصويب والتفسير عن ديوان معن بن أوس المطبوع فى ليبزج. وتغطمطت، أى صوتت فى غليانها. والرزّم من الإبل: التى تخرج أصواتها من حلوقها لا تفتح بها أفواهها، كما ورد ذلك فى التفسير المكتوب على هذا البيت فى شعر معن بن أوس. وفى كلتا النسختين: «تحفل» بالحاء المهملة مكان «تجفل» بالجيم؛ وهو تصحيف.

(٥) فى رواية: «زادا ومطعما». وكانت العرب فى الجدب تشق أسنمة الإبل وهى حية وتأخذ ما فيها من الشحم وتأكله.

ولا حُفَالة(١) ، وَبَيْتك عامِرٌ(٢) بالفأر .

قال علي بن عيسى : الطلاق الثّلاث البَتَّة إن كان يمنَعُهم(٣) مِنَ التَّحوُّل عنه إلا أنهم يسرِقونَ أطعمة الناس يأكلونها في بيته لِأَمْنِهِمْ فيـه ، لأنه لا هِرَّ هناكَ ولا أحدَ يأخذ شيئاً ولا يُؤْذَوْن ، وإنّ لهم لَمِستقاةً مملوءةً ماء كلما جفَّتْ سُكِبَ لهم فيها ماء .

جعَلَ الخبَرَ عن الفأر على التملح ، كالخبرِ عن قوم عُقلاء .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَكرِمُوا الخُبْزَ فإنّ اللهَ أكْرَمَه وسخَّرَ له بَرَكات السَّمٰوات والأرض » .

وقال آخر :

كأنّ صوتَ سَحْبِهَا(٤) المُمتَاحِ ... سُعَالُ شَيْخٍ مِنْ بَنِى الجُلَاحِ

يقولُ من بعد السُّعَال آحِ

قال الأصمعيّ : الرَّجيعُ : الشِّوَاء يُسَخَّنُ ثانيةً . والنَّقيعَةُ ما يُحْرِزُه رئيس القوم منَ الغنيمة قبل أن تُقسَم والجمع نَقائِع . وقال : أنشدني عيسى بن عمر لمعاوية بن صعصعة :

مثلُ الذُّرَى لُحِبتْ عَرَائِكُهَا(٥) ... لَحْبَ الشِّفارِ(٦) نَقائعَ النَّهْبِ

(١) الحفالة : الحثالة ، أو عكر الدهن ؛ أو مارق من رغوة اللبن ؛ كل من هـذه المعاني الثلاثة تصح إرادته هنا . وفي (ا) « ولا صقالة » ؛ وهو تحريف .

(٢) سيأتي ما يفيد تعليل كون بيته عامرا بالفأر مع خلوه من الطعام .

(٣) « يمنعهم » ، الضمير يعود على الفئرة .

(٤) سحبها ، أي سحب البكرة التي يستقى بها من البئر . وفي (ب) « شحنها » ، وهو تصحيف . « والمتاح » من امتاح الماء إذا أخرجه من البئر .

(٥) لحبت عرائكها ، أي أهزلت أسنمتها ، جمع عريكة .

(٦) لحب الشفار الخ : اللحب في هذا الشطر بمعنى القطع ، أي كما تقطع الشفار ، أي « السكاكين » — لحم النياق العظيمة ، أو لعله السفار بالسين المهملة مكان الشين ، أي كما يهزل السفر تلك النياق بمشقته فيذهب بما فيهـا من لحم وشحم .

وكان عَتِيقُ[١] القِدِّ خيرَ شِوائهم ... وصارَ غَبُوقُ الخُودِ ماءً مُحَمَّما
عَقَرْتُ لهم دُهْمًا مَقاحِيدَ[٢] جِلَّةً ... وعادت بَقايا البَرْكِ نَهْبًا مُقَسَّما

قال[٣] : وإذا كان القَحْط فصدوا الإبل وعالجوا ذلك الدَّمَ بشيء من الملاج لما كما يصنع الترك ، فإنها تجعله فى المُصْران ، ثم تشويه أو تطبخه ، فيؤكل كما تؤكل النَّقانِقُ[٤] وما أشْبَه ذلك .

وأما قوله : « والعِرْق ناضِبٌ » فإنما يعنى قلّةَ الدَّم لهزال البعير ، وكذلك جميع الحيوان ، وأكثر ما يكون دمًا إذا كان بينَ المَهْزُول والسَّمين .

وقالت أمّ هِشَام السَّلوليّة : ما ذَكَرَ الناسُ مذكوراً خيراً من الإبل وأجْدَى[٥] على أَحَدٍ بخير ؛ هكذا رُوى .

وقال الأندلسىّ : إنْ حَمَلَتْ أثقلَتْ ، وإنْ مَشَتْ أبعدَتْ ، وإنْ حَلَبَتْ أرْوَتْ ، وإنْ نُحِرَتْ أشبعتْ .

قال أبو الحسن الهَيْثَم ، عن عبد العزيز بن يسار قال : قدمتُ باُجَيْرَى[٦] بخمس سَفائِفَ[٧] دقيق ، وذاك فى زمن مصعب وهو مُعسكِرٌ بها فلَقِيَنى

(١) عتيق القد ، أى القديم من الجلد ، وكانت العرب تشتويه وتأكله إذا أجدبت . ويعير بالشطر الثانى إلى قلة اللبن حتى إن الخود (وهن الشوابّ الحسان الناعمات) لا يجدن اللبن يغتبقن به أى يشربنه فى المساء ، فهن يشربن الماء الحارّ المسخن . يقال : حمّم الماء إذا سخنه . وفى الأصل « الجود » بالجيم مكان « الخود » بالخاء ؛ وهو تصحيف .

(٢) المقاحيد من النياق : العظيمة الأسنمة . والجلة : العظيمة منها . والبرك : الإبل البارِكة .

(٣) قال ، أى من روى عنه المؤلف ؛ ولعله الأصمعى ؛ إذ هو أقرب مذكور .

(٤) لم نجد هذا النوع من الطعام فيما راجعناه من الكتب . (٥) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) : وأجاءه ؛ وهو تحريف ؛ ولعلّ صوابه ما أثبتنا .

(٦) باُجَمَيْرَى : موضع دون تكريت من أرض الموصل كان يعسكر فيه مصعب ابن الزبير . والذى فى (ا) الوارد فيها هذه القصة وحدها دون (ب) بأحز وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب التاريخ ومعجم البلدان لياقوت . (٧) السفائف : جمع سفيفة ؛ وهى النسيجة من الخوص نحو الزنبيل . وفى الأصل « سقائق » ؛ وهو تصحيف .

عِكْرِمَةُ بنُ رِبْعِيّ الشَّيبانيُّ فقال : بكم أَخَذْتَها ؟ قلتُ بتسعين ألفاً . قال : فإني أُعطيكَ مائةً وخمسين ألفاً على أن تؤخِّرَني . فدفعتُهنَّ إليه ، وما في المُعَسكر يومئذ دقيق . قال : فجاء بنو تَيْم الله فأخذوا ذلك الدقيق ، فجعل كلُّ قومٍ يَعْجِنون على حِيالِهم ، ثم جاءوا إلى رَهْوَةٍ[1] من الأرض فحفروها ، ثم جعلوا فيها الحشيش ، ثم طرحوا ذلك العجينَ فيها ، ثم أقبلوا فأخذوا فرَساً وَدِيقاً[2] . . .[3] فخَلَّوْا عنه ، ثم أقبلوا وهو[4] يَتْبَعهم حتى انتهوا إلى الحَفِيرة ، فدفعوا الفرَسَ الوَدِيق فيها ، وتبِعَها الفرس ، وتَنادَى الفريقان : إن فرَس حَوْشَب وقع في حَفيرة عِكْرِمَةَ فما أخرجوهُ إلا بالعَمَد . قال : فغَلَبه عِكرمة .

قال شاعر :

لا أَشْتُمُ الضَّيفَ إلا أن أقول له : أَباتَكَ[5] اللهُ في أبيـــاتِ عَمَّارِ

أَباتَكَ[5] اللهُ في أبياتِ مُعْتَنِزٍ[6] عنِ المكارم لا عَفٍّ ولا قارِى

جَلْدِ النَّدَى زاهدٍ في كلِّ مَكْرُمَةٍ كأنَّما[7] ضَـــيْفُه في مَلَّةِ النَّارِ

---

(١) الرهوة : المكان المنخفض من الأرض .

(٢) الوديق : من الوداق بكسر الواو ، وهو شهوة الفحل .

(٣) يظهر لنا أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل يفيد أنهم أقبلوا إلى فرس آخر ذكر لرجل منهم يسمّى حوشبا ، فخلوا عنه الخ ما هنا ، وذلك أخذا من قوله فيا يأتي بعد : فدفعوا الفرس الوديق فيها وتبعها الفرس الخ القصّة .

(٤) وهو ، أى فرس آخر ذكر ، ولم يذكر في الكلام ؛ فلعل فيه نقصا كما نبهنا على ذلك في الحاشية التي قبل هذه .

(٥) في (ا) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) : « أثابك » في كلا الموضعين وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة .

(٦) في (ا) التي ورد فيها هــذا الشعر وحدها : « معتمر » ، ولم نتبين له معنى يناسب السياق . والصواب ما أثبتنا . والمعتنز : المتنحّى بعيداً .

(٧) في (ا) التي ورد فيها هــذا الشعر وحدها : « كأنهم ضيفه » ؛ وهو تحريف . وسياق الشعر يقتضي ما أثبتنا . وملة النار : موضعها .

وقال آخر :

وهو إذا قيل له : وَيْهًا كُلْ فإنّه مُوَاشِكٌ مُسْتَعجِلْ

وهو إذا قيل له : وَيْهًا(١) فُلْ فإنّهُ أحْجِ بهِ أن يَنْكُلْ

[قيل لصُوفِيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : لا حدَّ له ، ولو أرادِ الله أن يؤكل بحَدٍّ لبَيّنَ كما بيّنَ جميعَ الحدود . وكيف يكون للأكل حدّ ، والأكلَةُ مختلفو الطِّباع والمزاج والعارض والعادة ، وحكمة الله ظاهرة فى إخفاء حدّ الشِّبَع حتى يأكل مَن شاء على ما شاء كما شاء] .

وقيل لصوفيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ فقال : ما نشّطَ على أداء الفرائض ، وثبّطَ عن إقامة النَّوافِل .

وقيل لمُتكلِّم : ما حدُّ الشِّبَع ؟ فقال : حدُّه أن يجلِبَ النوْم ، ويُضْجِرَ القَوْم ، ويبعثَ عَلَى اللَّوْم .

وقيل لِطُفَيْليّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أنْ يُؤكَلَ على أنه آخِرُ الزّاد ، ويُؤتَى عَلَى الجلّ وَالدِّقّ .

وقيل لأعرابيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أمّا عندكم يا حاضِرَةَ فلا أدْرِى ؛ وأما عندنا فى الباديةِ فما وجَدَت العيْن ، وامتدَّت إليه اليَد ، ودارَ عليه الضِّرْس وأساغَهُ الحلق ، وانتفَخَ به البطن ، واستدارت عليه الحوَايا ، واستغاثَت منه المَعِدَة ، وتقوّست منه الأضلاع ، والتَوَتْ عليه المصارين ، وخِيف منه الموت .

وقيل لطبيب : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : ما عدَّل الطبيعة ، وحفِظَ المِزاج وأبْقَى شَهوَةً لما بَعْد .

---

(١) « ويها فل » بالفاء ، أى إذا نودى باسمه لعظائم الأمور فقيل : يا فلان ، نكل عن النداء وتنكّب . وفى الأصل : « قل » بالقاف ... وينكل . وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين . والتصويب عن اللسان . وويها : كلمة حض واستحثاث .

وقيل لقصّار : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أنْ تَثِبَ إلى الجَفْنَةِ كأنّكَ سِرْحان وتأكل وأنتَ غَضْبان ، وتَمْضَغَ كأنك شيطان ، وتبلَعَ كأنك هَيْمان ، وتَدَعَ وأنت سَكران ، وتَسْتَلقِيَ كأنك أوَان(١) .

وقيل لحمّال : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن تأكل ما رأيتَ بعَشْرِ يديْكَ غيرَ عائفٍ ولا مُتقَزِّزٍ ، ولا كارهٍ ولا متعزّزٍ .

وقيل لملّاح : ما حدُّ الشِّبَع(٢) ؟ قال : حدُّ السُّكر . قيل(٣) : فما حَدُّ السُّكْر ؟ قال : ألّا تَعْرِفَ السَّماء من الأرض ، ولا الطُّولَ من العَرْض ، ولا النافلةَ مِنَ الفَرْض ، مِنْ شِدَّةِ النَّهْشِ والكَسْرِ والقَطْعِ والقَرْض . قيل له فإنَّ السكر محرَّم، فلِمَ جعلتَ الشِّبَعَ مِثْلَه ؟ قال : صدَقْتم ، هما سُكْران : أحدُ السُّكْرَيْن موصوفٌ بالعَيْب والخَسار ، والآخَرُ معروفٌ بالسَّكينة والوَقار . قيل [له] : أما تخاف الهَيْضَة ؟ قال . إنما تُصيبُ الهَيْضَةُ مَن لا يسمِّى اللهَ عند أكلِه ، ولا يشْكُرُه على النعمة فيه . فأما من ذَكَرَ اللهَ وشَكَرَه فإنه يَهْضِم ويستَمْرِئ ويَقْرَمُ إلى الزِّيادة .

وقيل لبخيل : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : الشبَعُ حَرامٌ كلُّه ، وإنّما أحلَّ اللهُ من الأكلِ ما نَفَى الخَوَى ، وسكَّنَ الصُّدَاع ، وأمسكَ الرَّمَق ، وحال بين الإنسان وبين المَرَح ، وهل هَلَكَ الناسُ فى الدِّين والدنيا إلا بالشِّبَع والتَّضَلُّع والبِطْنَة والاحتشاء ، والله لو كان للناس إمامٌ لَوَكَّلَ بكلِّ عَشرةٍ منهم مَن يحفَظ عليهم عادةَ الصحة ، وحالةَ العدالة ، حتى يزول التعدِّى ، ويفشُوَ الخير .

(١) الأوان : العدل (بكسر العين) ، كالأون (بسكون الواو) .
(٢) فى (ب) : « الأكل » مكان « الشبع » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٣) كذا فى (ب) وهو أنسب . والذى فى (ا) : « قال » .

وقيل لجُنْدِيّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : ما شدَّ العضُدَ ، وأحمَى الظَّهر ، وأدَرَّ الوَرِيد ، وزادَ فى الشَّجاعة .

وقيل لزاهد : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : ما لم يَحُلْ بينَك وبينَ صوم النَّهار وقيامِ اللَّيل . وإذا شكا إليك جائعٌ عرَفْتَ صِدقَه لإحساسك به .

وقيل لمَدَنِىّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ فقال : لا عهدَ لِى به ، فكيف أصِفُ ما لا أعرف ؟

وقيل ليَمَنِىّ : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن يُخْشَى حتى يُخْشَى .

وقيل لتُركىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن تأكلَ حتى تَدْنُوَ من الموت .

وقيل لِسِمّويه[1] القاصّ : مَنْ أفضلُ الشهدَاء ؟ قال : من مات بالتُّخَمَة ، ودُفِنَ عَلَى الهَيْضَة .

قيل لسَمرقَنْدِىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : إذا جَحَظَتْ عَيْناك ، وبَكِمَ لِسانُك ، وثَقُلَتْ حَرَكتُك ، وَارْجَحَنَّ بَدَنُك ، وزالَ عَقلُك ، فأنت فى أوائل الشِّبَع . قيل له : إذا كان هذا أوَّلُه ، فما آخِرُه ؟ قال : أن تَنْشَقَّ نِصْفَيْن .

قيل لهندىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : المسئلة عن هذا كالمُحال ، لأنّ الشِّبَع من الأرُزِّ النقىِّ الأبيض ، الكِبارِ الحَبِّ ، المطبوخِ باللَّبن الحليب ، المَغْرُوف على الجامِ البِلَّوْرِ ، المَدُوفِ[2] بالسُّكَّر الفائق ، مخالفٌ للشِّبَع من السَّمَك المَمْلوحِ وخُبْزِ الذُّرَة ، وعلى هذا يختلف الأمرُ فى الشِّبَع . فقيل له : فَدَعْ

(١) كذا ورد هذا الاسم فى الأصول ؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب .
(٢) المدوف : المخلوط . وفى كلتا النسختين : « المدفون » ؛ وهو تحريف .

هذا ، إلى مَتَى يَنْبَغى أن يأ كلَ الإنسان ؟ قال : إلى أن يقع له أنّه إن أراد لُقمة زَهَقَتْ نفسُه إلى النّار .

قيل لمُكارٍ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : واللهِ ما أدْرِى ، ولـكنْ أُحِبُّ أنْ آ كلَ ما مَشَى حِمارى مِنَ المنْزِلِ إلى المنْزِل .

قيل لجمّال : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : أنا أُوَاصِلُ الأ كلَ فـا أعرفُ الحدّ ، ولو كنتُ أنتهى لوَصَفْتُ الحال فيه ، أعنى أنى ساعةَ ألتّ(١) الدقيق ، [وساعة أَمَلّ المَلّة ، وساعةَ أثْرُد ، وساعةَ آ كلُ] وساعةَ أشْرَبُ لَبَنَ اللِّقاح ؛ فليس لى فَرَاغ فأدرى أنى بَلَغْتُ من الشِّبَع ، إلا أننى أعْلَمُ فى الجُمْلة أنّ الجُوعَ عَذابٌ وأنَّ الأ كلَ رَحْمَة ، وأنّ الرَّحمةَ كلّما كانت أ كثرَ ، كان العَبدُ إلى اللهِ أقرب ، واللهُ عنه(٢) أرضَى .

قال الوزير : لمّا بَخْتُ هذا الموضع من الُجزء — وكنتُ أقرأ عليه — : ما أحسنَ ما اجتَمعَ مِن هذه الأحاديث ! هل بقِىَ منها شىء ؟ قلت : بَقِىَ منها جزء آخر(٣) . قال : دَعْهُ لِلَيـلةٍ أخرى وهاتِ مُلْحَةَ الوَداع . قلت : قيل لصُوفِىٍّ فى جامع المدينة : ما تَشْتَهِى ؟ قال : مائدةَ رَوْحاء(٤) عليها جَفْنَةٌ رَحّاء(٤) ، فيها ثَرِيدَةٌ صَفْراء ، وقِدْرٌ حمراء بيضاء .

قال(٥) : أبَيْتَ(٦) الآن [ألّا] تودِّع [إلّا] بِمِثْلِ ما تقدّم ؟ وانصرفتُ .

---

(١) فى (ب) : « أعجن » .

(٢) فى (ب) : « عن العبد » .

(٣) فى (ب) : « واحد » مكان قوله : « آخر » .

(٤) يقال : جفنة روحاء ، إذا كانت واسعة عريضة ؛ والرحّاء كذلك .

(٥) قال ، أى الوزير .

(٦) وردت هـذه الـكلمة فى كلتا النسختين مهملة الحروف تتعذّر قراءتها ، والسياق يقتضى إثباتها على هذا الوجه .

الليلة الثانية والثلاثون

(١) ثم حضَرْتُ فقرَأْتُ ما بَقِىَ من هذا الفنّ .

قال رجلٌ مِن فزارة(١) :

تَنْبَحُ أحيــانًا وأحيانًا تَهِرْ وتَتَمطَّى(٢) ســاعةً وتَقْذَحِرّْ
تَعْدُو على الضَّيْفِ(٣) بعودٍ مُنْكسِرْ يَســـقُطُ عنها ثوبُها وتأْتَزِرْ
لو نُحِرَتْ فى بيتِها عَشْرُ جُزُرْ لَأصْبَحَتْ مِنْ لَحْمِهِنّ تَعْتَذِرْ
بحَلِفٍ سَحٍّ(٤) ودَمْعٍ مُنْهَمِرْ يَفِرُّ مَنْ قَاتَلَهَا(٥) ولا تَفِرّْ

المُقْذَحِرّ : المتهيِّئُ للسِّباب .

وقال أبو دُلامة الأَسَدىّ(٦) :

---

(١) ورد بعض هذا الرجز فى المحاسن والأضداد ومجموعة المعانى ولسان العرب . وبعض ما ورد فى هذه الكتب لم يرد هنا ، كما أن بعض ما ورد هنا لم يرد هناك ، وهذا ما ورد فى اللسان ، وهو ما لم يذكر هنا :

أم حوار ضنؤها غير أمر صهصلق الصوت بعينيها الصبر
سائلة أصداغها لا تختمر الخ .

(٢) فى كلتا النسختين : « وتعطر » ؛ وهو تحريف ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى اللسان : « على الذئب » .

(٤) سح ، أى كثير متتابع ، كما فى كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤١ لغة . وفى مجموعة المعانى وكتاب المحاسن والأضداد : « سبيح » ، وهو يستقيم على الإضافة لا على الوصف . والذى فى الأصل : « سبح » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « تفر » بالتاء ... « ولا تفر » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .

(٦) فى (ا) الوارد فيها هذا الكلام وحدها : « الأسامى » ؛ ولم نجد هذه النسبة لأبى دلامة فيما راجعناه من الكتب . والذى وجدناه أن أبا دلامة كان مولى لبنى أسد ، فلعل الصواب ما أثبتنا .

قد يُشْبِع الضَّيفَ الذى لا يَشْبَعُ مِنَ الهَبِيدِ وَالحِرَادُ تَسَع[(١)]
ثم يقول أَرْضُوا بهذا أَوْ دَعُوا

وقال آخر :

حتى إذا أَضْحَى تَدَرَّى[(٢)] واكْتَحَلْ لجارَتَيْهِ ثم وَلَّى فَنَتَلْ
ذَرْقَ الأُنُوقَيْنِ[(٣)] القَرَنْبَي وَالجُعَلْ

وقال آخر :

[إذا[(٤)] أَتَوْه بطعامٍ وَأَكَلْ] باتَ يُعَشِّى وَحْدَهُ أَلْفَىْ جُعَلْ

وقال أبو النَّجْم :

[تُدْنى من الجَدْوَلِ[(٥)] مِثْلَ الجدْوَلِ] أَجْوَفَ فى غَلْصَمَةٍ[(٦)] كالمِرْجَلِ

---

(١) الهبيد : حب الحنظل . والحراد : ذكور الضباب ، الواحد حردون بالدال المهملة أو الذال المعجمة . وتسع ، أى تتسع لأكله مهما كثر .

(٢) كذا ورد هذا الشعر فى كتاب الحيوان للجاحظ ، وتدرى ، أى تمشط . والمدرى والمدراة : المشط . والذى فى (ا) الوارد فيها هذا الشعر وحدها : « لجاذبته » مكان قوله : « لجارتيه » ؛ وهو تحريف . ونتل ، أى راث .

(٣) الأنوق : لفظ يطلق على كل ما يأكل العذرة من الرخم وغيرها ، قاله الجاحظ فى كتاب الحيوان وذكر هذا الشعر شاهدا على ذلك . والقرنبى : دويبة كالخنفساء وأعظم منها بيسير طويلة القوائم . وقد فسّر اللغويون الأنوق أيضا بأنه الطير الذى يبيض فى الهواء ولا يستقيم معناه هنا .

(٤) هذا الشطر ساقط من الأصل ، وقد أثبتناه عن الحيوان للجاحظ لتمام المعنى به . ويشير بقوله : « بات يعشى » الخ إلى أنه كثير البراز ، فيقول . إنه إذا أكل تعشى مما يخرج منه ألفا جعل ، لأن الجعل تقتات بالبراز . قاله الجاحظ .

(٥) هذا الشطر ساقط من الأصل ؛ ولا يتم المعنى بدونه . ويشير إلى سعة فمها ، فيشبهه بالجدول الذى يشرب منه .

(٦) الغلصمة : متصل الحلقوم بالحلق .. وقيل هى اللحم الذى بين الرأس والعنق .

تَسْمَعُ للماء كَصَوْتِ المِسْحَلِ(١) بين وَرِيدَيْها(٢) وبين الجَحْفَلِ
يُلقيه(٣) من طُرُقٍ أتتْها من عَلِ قَذْفُ لها جَوْفٍ وَشِدْقٍ أَهْدَلِ(٤)
كأنَّ صَوْتَ جَرْعِها المُستَعْجِلِ جَنْدَلَةٌ دَهْدَهْتَها(٥) في جَنْدَلِ

وقال آخر:

يقول للطّاهى المُطَرِّى(٦) في العَمَلْ ضَهِّبْ(٧) لنا إنَّ الشِّواء لا يُمَلّ
بالشَّحْمِ إمَّا قد أَجِمْناه(٨) بِخَلّ عَجِّلْ لنا مِنْ ذَا وَأَلْحِقْ بالبَدَلْ

وأنشد ابن الأعرابىّ:

أعْدَدْتُ للضَّيْفِ وَللرَّفيقِ وَالجارِ وَالصَّاحِبِ وَالصَّدِيقِ
وللعِيالِ الدَّرْدَقِ(٩) الأَلُوقِ حمراءَ مِنْ مَعْزِ أبى مَرْزُوقِ
تَلْحَسُ خَدَّ الحالِبِ الرَّفيقِ بلَيِّنِ المَسِّ قليلِ الرِّيقِ

(١) الضمير فى «تسمع» للمخاطب. والمسحل: المبرد.

(٢) كذا فى أرجوزة أبى النجم المنشورة فى مجلة المجمع العلمى العربى. والذى فى الأصل: «مديديها»؛ وهو تحريف. ويريد بالجحفل: شفتها.

(٣) فى الأصل: «يكفيه»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن أرجوزة أبى النجم المنشورة فى مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٢٨ م. ويلقيه، أى يلقى الماء، وفاعله قوله بعد: «قذف».

(٤) الأهدل: المسترخى.

(٥) دهدهتها، أى دحرجتها.

(٦) المطرى: الطاهى الذى يخلط الطعام بالأفاويه. وطرّى الطعام: إذا خلطه بالتوابل.

(٧) ضهب، أى اشو شيئا غير كامل النضج، يريد الاستعجال. والتضهيب أيضا: شىّ اللحم على الحجارة المحماة.

(٨) أجمناه، أى مللناه.

(٩) الدردق: الصبيان الصغار. والذى فى الأصل: «الزردق»؛ وهو تحريف.

كأنَّ صَوْتَ شُخْبِها الفَتِيقِ   فَحيحُ(١) ضَبٍّ حَرِبٍ حَنِيقِ
في جُحُرٍ ضاقَ أشَدَّ الضِّيقِ

وأنشد أيضاً :

هل لكَ في مِقْرَاةِ قَيْلٍ نِيّ(٢)   وشَكْوَةٍ باردةِ النَّسِيّ(٣)
تُخْرِجُ(٤) لَحْمَ الرَّجُلِ الضَّوِيّ   حتى تَراهُ ناهِدَ الثُّدِيّ

وأنشد ابن حبيب :

نِعْمَ لَقُوحُ(٥) الصِّبْيَةِ الأصاغِرِ   شَرُوبُهُمْ مِنْ حَلَبٍ وحازِرِ(٦)
حتى يَرُوحوا سُقَّطَ المآزرِ   وُضْعَ القِفاحِ(٧) نُشَّزِ الخَواصِرِ

وأنشد الآمِديّ :

كأنَّ في فِيه حِرَاباً شُرَّعَا   زُرْقاً تَقَضُّ(٨) البَدَنَ المُدَرَّعَا
لو عَضَّ رُكْناً وَصَفاً تَصَدَّعَا

---

(١) في (١) التي ورد فيها هذا الشعر وحدها : « بحنح » ؛ وهو تحريف ، صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة . والفحيح : صوت الضب .

(٢) المقراة : الإناء الذي يُقرَى فيه . والقيل : اللبن الذي يشرب نصف النهار وقت القائلة . وقد ورد هذا الشطر في الأصل هكذا : « هل لك في المعرى بقبل بى » ؛ ولا يخفى ما فيه من تصحيف .

(٣) الشكوة : وعاء من أدم يتخذ للبن والماء . والنسي : اللبن الحليب يصب عليه الماء .

(٤) « تخرج لحم الرجل الضوى » ، أي تسمن المهزول الضاوي .

(٥) اللقوح : الناقة الحلوب .

(٦) الحازر : اللبن الحامض .

(٧) الوضع : جمع أوضع وهو قليل لحم الوركين والإليتين ، والأوضع والأرسح واحد .

(٨) تقض : تكسر .

وقال محمد بن بشير :

لَقَلَّ عاراً(١) إذا ضَيْفٌ تَضَيَّفَنى ما كانَ عِندى إذا أعطَيْتُ مجهودى
فَضْلُ المُقِلِّ إذا أعطَاه مُصطَبِرًا ومُكْثِرٍ فى الغِنَى سِيَّانِ فى الجُودِ
لا يَعْدَمُ السائلون الخيرَ أفعَلُه إمَّا نَوالِى وإمَّا حُسْنَ مَرْدُودى

قال الأعرابى : نِعْم الغَداء السَّوِيق ، إنْ أكلته عَلَى الجُوع عَصَم ، وإنْ أكلته عَلَى الشِّبَع هَضَم .

وقال العَوَّامى(٢) — وكان زَوَّارًا لإخوانه فى منازلهم — : العُبوسُ بُوس ، والبِشْرُ بُشْرَى ، والحاجةُ تَفْتُقُ الحِيلة ، والحِيلةُ تَشْحَذُ الطَّبيعة .

ورأيت الحنبلونى(٣) يُنشد [ابنَ آدم — وكان مُوسِرًا بخيلا] — :

وما لامرىءٍ طُولُ الخُلودِ وإنَّما يُخَلِّدُه حُسْنُ الثَّنَاءِ فيَخلُدُ
فلا تَدَّخِرْ زاداً فتُصْبِحَ مُلْجَأً إليه وكُلُّ اليومَ يُخلِفه الغَدُ

وحَكَى لنا ابن أسادة قال : كان عندنا — يَعْنِى بأصبهانَ — رَجُلٌ أعمَى يَطُوفُ ويَسْأل ، فأعطاه مرَّةً إنسانٌ رَغيفا ، فدَعا له وقال : أحسنَ اللهُ إليك ، وبارَكَ عليك ، وجزاك خيراً ، ورَدَّ غُرْبتَك . فقال له الرَّجُل : ولِمَ ذكَرْتَ الغُرْبَةَ [فى دُعائك ، وما عِلْمُكَ بالغُرْبة ؟] فقال : الآن لى ها هُنا عشرونَ سَنَةً ما ناوَلَنى أحدٌ رَغيفاً صحيحاً .

(١) كذا فى ديوان الحماسة . والذى فى (ا) الوارد فيها هذا الشعر وحدها : « لقد غلوا » وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ولا الوزن .

(٢) فى (ا) العراقى ، ولم نقف على العراقى هذا الموصوف بما ذكر . والذى أثبتناه عن (ب) ؛ وإن كنا لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام ، إلا أنه ورد ذكره كثيرا فيما سيأتى .

(٣) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « الحيلوهى » ؛ ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب ومعجمات الأعلام التى بين أيدينا .

وقال آخر:

يُرَى جارُهمْ فيهمْ نحيفاً وضيفُهمْ ... بجوعٌ وقد باتُوا مِلاءَ المَذاخِرِ[(١)]

وقال السكَرَوَّسِيُّ:

ولا يَسْتَوِي الأَثْنانِ[(٢)] للضَّيْفِ: آنِسٌ ... كريمٌ، وزاوٍ بين عَيْنَيْه قاطِبُ

وأنشد:

طَعامُهُمْ فَوْضَى فَضًى في رِحالِهِمْ ... ولا يُحْسِنُونَ السِّرَّ إلاَّ تَنادِيا[(٣)]

وأنشد آخر:

يُمانُ ولا يَمونُ وكان شيخاً ... شَديدَ القَمِّ هِلْقاماً بطينا[(٤)]

العرب تقول: إذا شَبِعَتْ الدَّقيقةُ[(٥)] لَحَسَتِ الجَليلةَ.

قال ابنُ سَلاَّم: كان يُخْبَزُ في مَطْبَخِ سُليمانَ — عليه السلامُ — في كلِّ يومٍ سِتَّمائةِ كُرِّ[(٦)] حِنْطة، ويُذْبَحُ له في كلِّ غَداةٍ ستَّةُ آلاف ثَور وعشرون شاةً، وكان يُطْعِمُ الناسَ ويُجلِسُ عَلَى مائدتِهِ بجانبيه[(٧)] اليَتامى والمساكينَ وأبناء

---

(١) المذاخر: الأجواف.

(٢) في الأصل: «الإناء» مكان قوله: «الاثنان»؛ وهو تحريف.

(٣) فوضى فضى، أي أنهم مشتركون في طعامهم لا يختص به واحد دون رفاقه. ويريد بالشطر الثاني أنهم ليس لأحدهم سرّ دون أصحابه. وفي الأصل موس فضى مكان «فوضى فضى»؛ وهو تحريف؛ والتصويب عن اللسان.

(٤) الهلقام: عظيم الفم. والبطين: عظيم البطن.

(٥) يريدون بالدقيقة: الغنم. وبالجليلة: الإبل. وهـذا مثل يقال إذا قل العشب. وذلك لأن الشاة إذا قدرت على أكل العشب القصير القليل وشبعت منه فإن الناقة لا تقدر على أكله لقصره وقلته فتلحسه. يضرب للفقير يخدم الغنيّ. وعبارة الأصل: «إذا شعت لحست الحليلة»؛ وفيه نقص وتحريف ظاهران؛ والتصويب عن البيان والتبيين وغيره.

(٦) الكرّ: ستون قفيزا، وهو ستة أوقار حمار، وقيل: أربعون أردبا.

(٧) في الأصل «بحاجته»؛ وهو تحريف.

السَّبيل ، ويقول لنَفْسِه : مِسكينٌ بين مساكين .

ولما وَرَدَ تِهامةَ وافَى الحَرَمَ وذَبح لابَيْت طولَ مُقامِه بمكةَ كلَّ يومٍ خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثَوْر وعشرين ألفَ شاة . وقال لمن حَضَر : إنّ هذا المكانَ سيَخْرج منه نبيٌّ صِفَتُه كذا وكذا .

وقال أعرابيٌّ :

وإذا خَشِيتَ من الفؤادِ لَجَاجَةً ... فاضرِبْ عليه بجُرْعةٍ من رائبِ

وروى هشيم أنَّ النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : مِنْ كَرَم المَرْء أنْ يطَيِّبَ زادَه فى السَّفر .

وقال ابن الأعرابىّ : يقال : جاء فلانٌ ولقد لَغَطَ[1] رِباطُه من الجوع والعَطَش .

وأنشد :

رَبَا الجوعُ فى أُونَيْه[2] حتّى كأنَّه ... جَنِيبٌ به إنّ الجَنيبَ جَنيبُ

أى جاع حتى كأنّه يَمشى فى جانب متعقفًا[3] .

وقال أيضاً : إنَّ مِنْ شُؤْمِ الضَّيف أن يَغيبَ عن عَشاءِ الحَىِّ ، أى لا يُدْرِكه ، فيُرِيدُ إذا جاءهم أنْ يتكلَّفوا له عَشاءً عَلَى حِدة .

(١) يريد أن بطنه قد ضمرت فاسترخى رباطه حتى صار له صوت ، فشبه ذلك الصوت باللغط .

(٢) الأونان : الخاصرتان . وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

وبال الجوع فى أرنبه حتى ... كأنه حبيب يدان إلى حبيب

وفيه تحريف ظاهر . والتصويب عن إصلاح المنطق لابن السكيت ولسان العرب .

(٣) متعقفا ، أى معوجا .

وأنشد :

حَيَّاكَ رَبُّكَ واصْطَبَحْتَ ثَرِيدَةً ... وإدامُهـــا رُزٌّ وأنتَ تُدَبِّلُ

والثُّمْة والقُمْة إذا جُمِعَتا من الثريد والعصائد يقال لها دُبْلَة ، ومنه سُمِّيَت الدُّبَيْلة ، وهى الوَرَم الذى يخرج بالناس . وأنشد :

أقول لمّا ابتركوا جُنوحَا ... بقَصْعَةٍ قد طُفِّحَتْ تَطفيحا
دَبِّلْ أبا الجَوْزاءِ أو تَبطيحَا[1]

وقال الفرزدق :

مدبَّلْتُ أمثالَ الأثافِي كأنَّها ... رُءوسُ أعادٍ قُطِّعَتْ يومَ مَجْمَعِ

وقال سعيد بن المسيِّب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطيبوا الطعامَ فإنّه أنـفَى للسُّخط ، وأجْلَبُ للشُّكر ، وأرْضَى للصاحِب » .

قال بشّار .

يَغَصُّ إذا نالَ الطَّعامَ بذِكرِكمْ ... ويَشْرَقُ مِنْ وَجْدٍ بكُمْ حين يَشْرَبُ

المَسْعُور : الجائع . قال هميان بن قُحافة :

* لاقَى مِعافًا بَطِنًا مَسْعورا *

وقال شاعر :

* يَمشِى مِنَ البِطْنةِ مشْىَ الأبْزَخِ[2] *

(١) فى الأصـل : « دبل أما الجوز أو بطيخا » ؛ وفيه تصحيف ظاهر . والتصحيح عن المخصص .

(٢) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « الأنزح » ... « النزح » بالنون والحاء ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين ؛ والصواب ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة

البَزَخُ : دخول البَطن وخروج الثُنَّة أسْفلَ السُّرَّة .

وقال آخر :

أغرُّ كمصباحِ الدُّجنّـــة يتَّقى شَذَى[١] الزادِ حتى تُستَفادَ أطايبُهْ

شذاه[١] : طيبه .

وقال أعرابى : بنو فلان لا يَبْزِرون[٢] ولا يَقْدُرون .

وقال الثورىّ : بَطِّنوا غَداءكم بشَرْبة .

[وقال الشاعر[٣]] :

لا يَستوى الصَّوْتان حينَ تجاوَبا صَوْتُ الكَرِيبِ[٤] وصَوتُ ذِئبٍ مُقفِرِ

الكَرِيب : الشَّوبَق[٥] وهو المِحْوَر والمِسْطَح .

وقال الشاعر :

إذا جاء باغِى الخير قُلْنا بَشاشَةً له بوجوهٍ كالدَّنانير : مرْحَبَا

وأهْلا فلا مَمْنوعَ خير تريده ولا أنت تَخْشَى عندنا أن نُؤَوَّبا

قال الشعبى : اسْتَسقَيت عَلَى خِوانِ قُتَيْبة ، فقال : ما أسْقِيك ؟ فقلت : الهيِّنُ الوُجْد ، العَزِيزُ الفَقْد ، فقال : يا غلام ، إسْقِه الماء .

---

(١) ورد هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم فى الأصل بالقاف وهو تحريف .

(٢) لا يبزرون ، من بزرت القدر إذا رميت فيها البزر ، وهو التابل . ولا يقدرون ، من القدر بفتح القاف ، وهو الطبخ فى القدر .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « الكريث » بالثاء ؛ وهو تصحيف . والتصحيح عن إصلاح المنطق . وفى الأصل : « مقر » ؛ وهو تصحيف أيضا . والتصحيح عن إصلاح المنطق كذلك .

(٥) فى الأصل : « السويق » ؛ وهو تحريف . والتصويب عن إصلاح المنطق . والشوبق : هو الخشبة التى يبسط عليها الخباز الخبز .

مرّ مِسكينٌ بأبي الأسْوَدِ لَيْلًا وهو ينادي : أنا جائع ! فأدخَلَه وأطعَمَه حتى شَبِع ، ثم قال له : انصَرِفْ إلى أهلك ، وأتبَعَه غُلاماً وقال له : إنْ سَمِعْتَه يسأل فارْدُدْه إلىّ . فلما جاوَزَه المسكينُ سأل كعادته ، فتشبَّث به الغلامُ وردَّه إلى أبي الأسود . فقال : ألم تَشبع ؟ فقال : بلى . قال : فما سُؤالك ؟ ثم أمرَ به فحُبِس في بَيْتٍ وأُغلق عليه الباب ، وقال : لا تُرَوِّع مسلماً سائر الليلة ولا تَكذِب . فلمّا أصبَح خَلّى سبيلَه ، وقال : لو أطَعْنا السُّؤّالَ صِرْنا مِثلَهم .

وسمعَ دابّةً له تعتَلِفُ في جوْف الليل ، فقال : إني لأراكِ تَسهَرِين في مالي والناسُ نِيام ، والله لا تُصْبِحِين عندي . و باعها .

وأبو الأسود يُعَدُّ في الشعراء والتابعين والمحدِّثين والبُخَلاء والمَفاليج والنحويِّين والقُضاة والعُرْج والمعلِّمين .

وقال الشاعر :

أَنفِقْ أبا عَمْرٍو ولا تَعذُرَا وكُلْ مِنَ المالِ وأَطعِمْ مَنْ عَرَا
لا يَنفَعُ الدِّرْهَمُ إلّا مُدْبِرَا

كان مُسلم بن قُتَيْبةَ لا يجلس لحوائجِ الناسِ حَتّى يَشْبَع من الطّعام الطيِّب ، ويَرْوَى من الماء البارِد ، ويقول : إنّ الجائعَ ضَيِّق الصَّدْر ، فقيرُ النَّفْس ، والشبعانَ وَاسعُ الصَّدْرِ ، غَنِيُّ النَّفْس .

وقال أعرابيٌّ :

هَلَكتْ هَرِيثةً[1] وهَلَكتُ جُوعاً وخَرّقَ مِعْدَتى شَوْكُ القَتادِ

(١) هريثة ، أى بردا . يقال قرة (بكسر القاف) فيها هريثة ، أى يصيب الناس منها ضر وموت كثير . والهريثة : وقت اشتداد البرد ، كما في اللسان .

وحَبَّـــــةُ حَنْظَلٍ ولُبابُ قطنٍ وتَنُّومٌ ينظِّمُ بَطْنَ وَادِى[(١)]

وقال الفرزدق :

وإن أبا الكِرْشاء[(٢)] ليس بسارقٍ ولكنّه ما يَسْرِق القَوْمُ يأكل

ولديك الجنّ :

إذا لم يكنْ فى البَيْتِ مِلْحٌ مُطَيَّبٌ وخَلٌّ وزَيْتٌ حَوْلَ حُبٍّ[(٣)] دَقيقِ

فرأسُ ابن أُمّى فى حِرِ أُمٍّ [ابن] خالتى ورأسُ عـدوِّى فى حِرِ أُمِّ صديقى

وقال آخر :

وما جيرةٌ إلّا كليبُ بنُ وائلٍ ليالِيَ تحمى عِزَّةً مَنْبِتَ البَقْلِ

وقال مِسْعَر بن مكدَّم لِرَقَبة بن مَصْقَلة : أراك طُفَيْليّا . قال : يا أبا محمد ، كلُّ مَن ترى طُفَيْلِيٌّ إلّا أنّهم يتكاتمون .

وقال شاعر :

قومٌ إذا آنَسوا ضَيْفاً فلم يجدُوا إلا دَمَ الرَّأسِ صَبُّوهُ على الباب

قال المفجّع : الرأس الرئيس .

اشتدّ بأبى فِرعونَ الشاشِىِّ الحالُ فكتب إلى بعض القُضاة بالبَصرة :

يا قاضِىَ البَصْرَةِ ذا الوَجْهِ الأغَرْ إليكَ أشكو ما مَضى وما غَبَرْ

عَفَا زمانٌ وشِـــتاء قد حضَرْ إنّ أبا عَمْرَةَ[(٤)] فى بَيْتِى أَبْجَرْ

يَضْرِبُ بالدُّفِّ وإن شاء زَمَرْ فاطْرُدْه عنى بدقيــق يُنْتَظَرْ

فأجابه إلى ما سأل .

(١) التنوم : شجر له حب كحب الخروع . وينظم بطن وادى ، أى يملؤه ويعمه .

(٢) كذا فى (ا) وديوان الفرزدق . والذى فى (ب) : « أبا المرجاء » ؛ وهو خطأ من الناسخ . (٣) الحُبّ بضم الحاء : الجرة ؛ ولعلهم كانوا يضعون الدقيق فى الجرار .

(٤) أبو عمرة : كنية الجوع .

ويقال : وقَفَ أعرابيٌّ على حَلْقةِ الحسَن البَصريِّ رحمةُ الله عليه فقال : رَحِمَ اللهُ من أعطَى مِن سَعَة ، وواسَى من كَفاف ، وآثَرَ من قِلّة . فقال الحسَن : ما أبقَى أحداً إلّا سألَه .

وقال ابنُ حبيب : يقال أحمَقُ من الضَّبُع ، وذلك أنها وَجَدَتْ تَوْدِيَةً[1] فى غَدِير ، فجعلتْ تَشْرَبُ الماء وتقول : « يا حَبَّذا طَعْمُ اللَّبَن » حتى انشَقَّ بطنُها فماتَتْ . والتَّوْدِيةُ : العُودُ يُشَدُّ على رأسِ الخِلْفِ[2] لئلّا يَرضَعَ الفَصيلُ أمَّه .

دعا رجل آخرَ فقال له : هذه[3] تُكْسِبُ الزيارة وإن لم تُسعِدْ ، ولعل تقصيراً أنفعُ فيما أُحِبُّ بلوغَه من برِّك[4] . فقال صاحبه : حرصك على كرامتى يكفيكَ مؤونةَ التكلف لى .

قيل لأعرابىّ : لو كنتَ خليفةً كيف كنتَ تصنَع ؟ قال : كنتُ أستكْفِى[5] شريفَ كلِّ قومٍ ناحيتَه ، ثم أخْـــلو بالمطبخ فآمُرُ الطهاةَ فيُعْظِمون[6] الثَّريدةَ ويُكثِرون العُرَاق[7] ، فأبْدأ فآكلُ لُقَمًا ، ثم آذَنُ للنَّاس ، فأىُّ ضِياعٍ[8] يكون بعدَ هذا ؟ !

---

(١) فى الأصل : « بودقة » بالباء والقاف ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة . وعبارة مجمع الأمثال : تزعم الأعراب أن أبا الضباع وجد تودية فى غدير ... الخ ما هنا .

(٢) الخلف : الضرع . وفى الأصل : « الحلف » بالمهملة ؛ وهو تصحيف .

(٣) هــذه : إشارة إلى دعوته إياه . أى أن هذه الدعوة تكسبنى زيارتك لى وان لم تسعد ، أى تُعنّى على قضاء الحق كله . وفى الأصل : « تكثر » مكان « تكسب » . وهو تحريف . ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ترك » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (ا) : « استلق » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ا) : « فيطعمون » ؛ وهو تحريف .

(٧) العراق (بالضم) : جمع عرق (بفتح فسكون) ، وهو العظم الذى أخذ أكثر ما عليه من اللحم وبقى عليه شىء يسير .

(٨) فى كلتا النسختين : « صناع » ؛ وهو تصحيف .

وقال أعرابيّ لابن عمّ له : واللهِ ما جِفانُكم بعِظام ، ولا أجسامكم[(١)] بوِسام ، ولا بدَت[(٢)] لكم نار ، ولا طُولِبتُم بثار .

وقيل لأعرابي : لِمَ قالت الحاضرةُ للعبد : باعَكَ اللهُ في الأعراب ؟ قال : لأنّا نُعرِي جِلدَه ، ونُطيلُ كدَّه ، ونُجيعُ كَبِدَه .

وقال طفيليّ : إذا حُدِّثتَ على المائدة فلا تزِدْ في الجواب على نعم ، فإنّكَ تكون بها مؤانساً لصاحبك ، ومُسِيغاً لِلُقمَتِك ، ومُقبِلاً على شأنك .

وقيل لأعرابي : أيُّ شيء أحَدّ ؟ قال : كَبِدٌ جائعة ، تُلقِي إلى أمعاء ضالِعة[(٣)]

وقيل لآخَر : أيُّ شيء أحَدّ ؟ قال ضِرسٌ جائع ، يُلقِي [إلى] مِعًى ضالع[(٣)]

وقال آخَر :

أُحِبُّ أنْ أصطادَ ضَبًّا سَحْبَلاَ[(٤)] ووَرَلاً يَرْتَادُ رَمْلاً أرْمَلاَ

قالت سُلَيمَى لا أُحِبُّ الجَوْزَلا ولا أُحِبُّ السَّمَكاتِ مَأكَلا

الجَوْزَلُ : فَرْخ الحَمَام . والوَرَل : دابة[(٥)] . أرْمَل : صِفَةٌ للوَرَل . وإذا كان كذلك[(٦)] كان أسْمَنَ له ، وهو[(٧)] . يَسْفِدُ فيهزُل .

---

(١) في (١) : « ولا آجامكم » ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا في (ب) . والذي في (١) : « نيرت » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٣) يريد بالضالعة هنا القوية على احتمال ما يلقى إليها ، وكذلك الضالع الآتي بعد . والذي وجدناه في كتب اللغة أنه الضليع ، من الضلاعة ، وهي القوة . ولم نجد الضالع بهذا المعنى . والذي في كتاب التنبيه على أغلاط أبي علي القالي ص ٢٢ أن المحفوظ : ضرس قاطع يقذف في معى جائع ، وهذا هو الصحيح .

(٤) السحبل : العظيم المسن من الضباب . والورل دابة تشبه الضب وأعظم منه بيسير . والأرمل : الذي لا زوج له . ويقال ذلك في المذكر على التشبيه . قاله في اللسان مستشهداً بهذا البيت ، وروايته فيه : « رعى الربيع والشتاء أرملا » مكان قوله : « وورلا يرتاد » .

(٥) في (١) : « بيت » ؛ وهو تحريف ، وقد سبق التعريف بهذه الدابة في الحاشية التي قبل هذه . (٦) كذلك ، أي أنه أرمل لا زوج له .

(٧) في الأصل : « مرى » ؛ وهو تحريف ، والسياق يقتضي ما أثبتنا .

ويقال : أقبحُ هَزِيلَيْنِ : المرأةُ والفرَس ، وأطيبُ غَثٍّ أكلَ غثَّ الإبل ، وأطيب الإبل لحمًا ما أكلَ السَّعْدان[1] ، وأطيب الغنم لبنًا ما أكلَ الحُرْبُث[2] .

ويقال : أهْوَنُ مظلومٍ سِقاءٌ مُرَوَّب ، وهو الذى يُسْقى منه قبل أن يُمْخَض وتَخْرجَ زُبْدَته .

ويقال : سَقانا ظليمةَ وَطْبِه[3] ، وقد ظُلِمَتْ أوْطُبُ[4] القَوْم .

وقال الشاعر :

وصاحِبِ[5] صِدْقٍ لم تَنلْنِى شَكاتُه ظلمْتُ وفى ظلمى له عامِدًا أجْرُ

يعنى وَطْبَ لبن .

وكان[6] الحسنُ البَصرىُّ إذا طَبخ اللحمَ قال : هَلُمُّوا إلى طعامِ الأحرار .

قال سفيانُ الثَّوْرىّ : إنى لألْقى الرَّجُلَ فيقول لى مرحبًا فيلينُ له قلبى ، فكيف بمن أطأُ بِساطه ، وآكلُ ثَرِيدَه ، وأزْدَرِدُ عَصيدَه ؟ .

حكى أبو زيد : قد[7] هَجأَ غَرْثِى[8] : إذا ذَهَب ، وقد أهْجأَ طعامُكم غَرْثِى : إذا قَطَعه . قال الشاعر :

---

(١) السعدان : نبت تشبه شوكته حلمة الثدى ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ويقال فى المثل : « مرعى ولا كالسعدان » .

(٢) الحربث : نبت منبسط له ورق رقاق طيب الرائحة يزيل بخر الفم .

(٣) فى الأصل : « وطى » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : « طبية » ؛ وهو تحريف .

(٥) ورد هذا البيت فى الحيوان ، ولم ينسبه كما هنا .

(٦) فى (١) : « وقال » ؛ وهو تبديل من الناسخ .

(٧) فى (١) : « قال » ؛ وهو تحريف . (٨) الغرث : الجوع .

والشراب تملُّؤًا ، إذا شَبِعْتَ منهما وامتلأْتَ . ويقال : لفأْتُ[١] اللحمَ عن العظم لَفْأً[١] إذا جَلَفْتَ[١] اللحمَ عن العظم . واللَّفيئة[٢] هى البَضْعَةُ التى لا عَظْمَ فيها نحو النَّحْضَة[٢] والهَبْرة والوَذْرَة[٢] .

وأنشد يعقوب :

سَقَى[٣] اللهُ الغَضَا وخُبُوتَ قومٍ   متى كانت تكون لهم دِيارا
أُناسٌ لا يُنادِى[٤] الضَّيْفُ فيهم   ولا يَقْرُون آنيـــةً صِفارا

قال الأصمعى : قال ابن هُبَيْرَة : تَعْجِيلُ الغَداء يَزِيد فى المروءة ، ويطيِّب النَّكْهة ، ويُعين على قَضَاء الحاجة .

قال بعض العَرَب : أطيَب مضغة أكلها الناس صَيْحَانِيَّةٌ مُصَلَّبة[٥] .

ويقال : آكَلُ الدَّوَابّ ، بِرْذَوْنَةٌ رَغُوث وهى التى يَرْضَعُها وَلَدُها[٦] .

قال أبو الحارث حميد : ما رأيْتُ شيئاً أشبَهَ بالقَمَر ليلةَ البَدْر مِنْ قِدْرٍ سُقِيَت اللبن كثيرةِ السُّكَّر .

---

(١) فى الأصل : « لفأت ... لفاء إذا جعلت » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٢) فى الأصل : « والفئة ... البحضة ... والودنة » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٣) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر : سل الله ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا . ولم نجد هذين البيتين فيما راجعناه من الكتب . والخبوت : جمع خبت ، وهو المطمئن من الأرض .

(٤) لا ينادى الخ ، أى أنهم لا يكلفون الضيف مؤونة السؤال .

(٥) الصيحانى : ضرب من تمر المدينة أســود صلب الممضغ . والمصلب : الذى خلط بالصليب ، وهو الودك ، وهو مثل يضرب للمتلائمين المتوافقين . وفى الأصـــل : « مقلية » بالقاف والياء ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن مجمع الأمثال .

(٦) يلاحظ أن تفسير البرذونة الرغوث بهذا المعنى المذكور هنا غير صحيح ، إذ البرذونة لا ولد لها . والرغوث من البراذين هى التى لا تكاد ترفع رأسها من العلف . أما التى يرضعها ولدها فهى الرغوث من الشياه . فلعل فى الكلام نقصا ، وتكملته : « والشاة الرغوث هى التى ... الخ » .

فأَخْزاهُمُ[١] ربى ودَلَّ عليهمُ وأَطْعَمَهُمْ مِنْ مَطْعَمٍ غيرِ مُنْجِى[٢]

قال : ويقال بَأَرْتُ[٣] بُؤْرَةً فأنا أَبْأَرُها ، إذا حَفَرْتَ حَفيرةً يُطْبَخ فيها وهى الإِرَة . ويقال : أَرْتُ إِرَةً فأنا أَئِرُها وَأْرًا .

وقال حسّان :

تَخَالُ قُدُورَ الصّادِ[٤] حَوْلَ بُيوتنا قَنابِلَ دُهْمًا فى المَبــاءةِ صُيَّما

قال أبو عُبَيْدة : كان الأصمعىّ بخيلا ، وكان يَجْمَع أحاديثَ البخلاء ويُوصِى بها وَلَدَه ويَتَحَدَّثُ بها .

وكان أبو عبيدة إذا ذُكِر الأصمعىّ أَنْشَد :

عَظُمَ الطَّعام بعَيْنِه فكأنّه هو نَفْسُه للآكِلينَ طعام

ويقال : أَسْأَرْتُ ، إذا أبقَيْتَ من الطعام والشراب أو غيرهما ، والاسم السُّؤْر وجماعتُه الأَسْآر . ويقال : فَأَدْتُ[٥] الخُبْزَة فى المَلَّة[٦] أَفأَدُها[٥] إذا خَبَزْتَها فيها . والمِفْأَد[٥] : الحديدة التى يُخْبَزُ بها ويُشْوَى . ويقال : تَمَلأْتُ من الأكل

(١) فى الأصل : « فأجزاهم » بالجيم ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل . « مهجى » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « ثأرت ثورة فأنا أثأرها » ؛ وهو تصحيف فى الكلمات الثلاث .

(٤) الصاد : النحاس ، وقيل نوع منه . وفى الأصل : « الضأن » ؛ وهو تحريف . والقنابل : طوائف الخيل ، الواحد قنبل وزان جعفر وقنبلة . وفى الأصل : «قناديل» ؛ وهو تحريف . وفى ديوان حسان : « فى المحلة » ، والمعنى عليه يستقيم ؛ وفى الأصل « فى الماة » والظاهر أن هذا اللفظ محرف عما أثبتنا نقلا عن محاضرات الأدباء . وقبل هذا البيت :

إذا اغبر آفاق السماء وأمحلت كأن عليها ثوب عصب مسهما

وفى ديوان حسان : « حسبت قدور » مكان قوله : « تخال » .

(٥) فى الأصل : « قادت ... وأقادها .. والمقاد » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٦) الملة : موضع النار .

وقال الشاعر :

وإنى لأستحيى رفيقى أن يرى مكان يدى من جانب الزاد أقرعا

ضَمَّ[١] عثمانَ بن رَوَاح[٢] السَّفرُ ورفيقاً له ، فقال له الرّفيق : امض إلى السّوق فاشتر لنا لحماً . قال : واللهِ ما أقدِر . قال : فمضى الرفيقُ واشترى اللحمَ ثم قال لعثمان : قم الآنَ فاطبُخ القِدْر . قال : والله ما أقدِر . فطبخها الرفيق . ثم قال : قم الآنَ فاثرُدْ . قال : واللهِ إنى لأعجِزُ عن ذلك . فثَرَدَ الرّفيق . ثم قال : [قم] الآنَ فكُلْ . فقال : والله لقد استحييْتُ من كثرةِ خِلافى عليك ، ولولا ذلك ما فعلت .

قال يونس : أتيتُ ابن سيرينَ فدعَوْتُ الجاريةَ ، فسمِعْتُه يقول : قولى إنه نائم . فقلت : مَعِى خَبِيص . فقال : مَكانَكَ[٣] حتى أخرجَ إليك .

قال أردشير : احذَرُوا صَوْلةَ الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شَبِع .

قال النبى صلّى الله عليه وسلّم فيما رَوَاه جابرُ بنُ عبد الله : هَلاكُ الرّجُل أن يحتقِرَ ما فى بيتِه أن يقدّمه إلى ضَيْفِه ، وهَلاكُ الضيف أن يحتقِرَ ما قُدِّمَ[٤] إليه .

وقال الشاعر :

يا ذاهباً فى دارِه جائياً[٥] بغيرِ معنًى وبلا فائدَهْ

قد جُنَّ أضيافُكَ مِن جُوعِهم فاقرأْ عليهمْ سُورةَ المائدَهْ

---

(١) فى إحدى النسختين : « ضم » ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى (ب) : « ابن دراج » وهو تصحيف . (٣) فى (ا) : « فركابك »

(٤) فى الأصل : « واقدم » مكان قوله : « ما قدم » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « خائبا ... يعين » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .

وقال ابن بَدْر:

ونحن نَبذُلُ عند القَحْطِ ما أكلُوا ... مِنَ السَّدِيفِ إذا لم يؤنَسِ القَزَعُ[١]
ونَنْحَرالكُوم[٢] عَبطًا[٣] فى أرُومَتِنا ... للنَّازلين إذا ما اُسْتُنْزِلوا شَبِعوا

وقال آخَر:

أطْعَمَنِى بَيْضَــــةً وناوَلَنى ... مِنْ بَعْدِ ما ذُقْتُ نَقْدَه قَدَحا
وقال أىَّ الأصواتِ تَسْتَلُّنى[٤]؟ ... يَزِيد، إنِّى أراكَ مُقْتَـرِحا
فقلتُ صَوْتَ المِقْلَى وجَرْدَقَةً[٥] ... إنْ خابَ ذا الاقتراحُ أو صَلَحا
فقَطَّبَ الوجْهَ وانْثَنَى غَضِبًا[٦] ... وكانَ سَكْرانَ طافِحًا فَصَحا
فقلتُ: إنِّى مَزَحْت، قال: كذا ... رأيتَ حُرًّا بمِثْلِ ذا مَزَحا؟

قال ابن حبيب: كان الرَّجُل إذا اشتدَّ عليه الشِّتاء تَنَحَّى ونَزَلَ وَحْده لئلا يَنْزِلَ به ضَيْفٌ فيكونَ صُقْعاً مُسْتَحَبًا.

وهذا ضِدُّ قول زهير:

بسَطَ البُيوتَ لكى تكونَ مَظِنَّةً ... مِن حيثُ توضَعُ جَفْنَةُ المُسْتَرْفِدِ

فإذا كان الشِّتاء انحازَ الناسُ مِن الجدْبِ والجهْد، وإذا أخْصَبوا أغاروا للثأر لا للسُّؤال.

---

(١) السديف: لحم السنام. والقزع بالقاف: السحاب. وفى الأصل: «الفزع» بالفاء.
(٢) الكوم واحده كوماء بفتح الكاف؛ وهى الناقة العظيمة السنام.
(٣) فى الأصل: «غيظا»؛ وهو تصحيف.
(٤) فى الأصل: «قاسلنى * يريد»؛ وهو تحريف.
(٥) الجردقة: الرغيف، فارسية. وفى الأصل: «خودبة»؛ وهو تحريف.
(٦) فى الأصل: «حصنا»؛ وهو تحريف.

وقال الشاعر فى عُبَيد الله بن عبّاس :

فى السنةِ الجَدْباء أطْعَمْتَ حامِضاً وحُلْوًا وشَحمًا تامِكاً[١] وسَنامَا

وقال مجاهدٌ فى قول الله عزّ وجلّ : (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً) ، أى طعاماً ، يقال : اتَّكأنا عند فلانٍ ، أى طَعِمْنا .

ذكر الأصمعىُّ أن أعرابيًّا خَرَج فى سَفَر ومعه جماعة ، فأَرْمَلَ[٢] بعضُهم من الزاد ، وحَضَرَ وقتُ الغَدَاء وجعَل بعضُهم ينتظر بَعْضاً بالغداء ، فلمّا أبطأ ذلك عليهم عَمَدَ بعضُهم إلى زادِه فألقاه بين يَدَى القَوْم ، فأقبَلوا يأكلون ، وجلس صاحبُ الزادِ بَعيداً للتَّوْفيرِ[٣] عليهم ، فصاح به أعرابى : يا سُوْدَدَاه ! وهل شَرَفٌ أفضلُ من إطعامِ الطعامِ والإيثارِ به فى وَقْتِ الحاجَةِ إليه ؟ لقد آثرتَ فى مَخْمَصَةٍ ويوم مَسغَبة ، وتفرَّدْتَ بمكرمةٍ قَعَدَ[٤] عنها مَنْ أرَى من نُظَرائك ، فلا زالت نِعَمُ الله عليك غادِيةً ورائحة .

وفى مِثْله يقولُ حاتمٌ الطائىّ :

أكُفُّ يَدِى مِن أن تَنالَ أكُفَّهُمْ إذا ما مَدَدْناها وحاجاتُنا مَعَا

وإنِّى لأَستَحْيِى رَفِيقِىَ أن يَرَى مكانَ يَدِى مِن جانبِ الزَّاد أقرَعا

قال : المَخْمَصَةُ : المَجاعَة . والخَمْص : الجُوع .

قال شاعرٌ يَذُمُّ رجلا :

يَرَى الخَمْصَ تَعذيباً وإنْ يَلْقَ شَبْعةً يَبِتْ قَلْبُهُ مِن قِلّةِ[٥] الهمِّ مُبْهَما

(١) التامك : الكثير العظيم . (٢) أرمل من الزاد : فرغ ما عنده منه .
(٣) فى الأصل : « يعدّ القوفر » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين لا معنى له ، ولعل الصواب ما أثبتنا . (٤) فى الأصل : « فقد » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى الأصل « من شدة » ؛ وهو خطأ من الناسخ . والبيت لحاتم الطائى .

وقال المرقّش الأكبر :

إن يُخْصِبوا يَغْنَوْا بخصْبهم أو يُجْدِبوا فجُدوبهمْ أَلَمُ

[وكَتَبَ بعضُهم[1] إلى أخٍ له] : إنْ رأيتَ أنْ تَرْوِىَ ظَمَأ أخيكَ بقُرْبك ، وتُبرِّدَ غَليلَه بطَلْعتِك ، وتؤنِسَ وَحْشَتَه بأُنسك ، وتَجْلوَ غِشاء ناظِرِه بوَجْهك ، وتُزَيِّنَ مجلسَه بجَمَال حُضورِك ، وتَجعلَ غَدَاءَكَ عنـدَه فى منزِلك الذى هو فيه ساكن ، وتَمَّمْتَ له السرورَ بك باقِىَ يَوْمِك ، مؤثِراً له على شغلك ، فعلْتَ — إن شاء الله — .

وقال الشاعر :

وكأنّ هَذْرَ دِمائهمْ فى دُورِهِم لَغَطُ القَبِيلِ[2] على خِوانِ زِيادِ

قال بعض الخُطَباء[3] : العَجَبُ مِن ذى جِـدَةٍ مُنعَمٍ عليه يطوى جارُه جوعاً وقرّا ، وأفرُخُه شُمْثٌ جُرْدٌ من الرِّيش ، وهو مِبْطانٌ محتشٍ من حُلْوِه وحامضِه ، مُسكْتَنٌّ فى كِنٍّ ودِفْئه ، مزيَّنٌ له شهوَةٌ عن أداء الذى عليه لجارِه وقريبه وذى خُلَّةٍ بَطِرٍ[4] رَفِهٍ كيف يأمَنُ سَلْبًا مفاجِئاً ؟ أمَا لو وَجَّه بعضَ فَضْله إلى ذى حاجةٍ إليه كان مستديماً لِما أولى ، مستزيداً ممَّا أوتى .

قال الشاعر[5] :

وإذا تأمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مقْبِلٍ متسَرْبِلٍ سِرْبالَ مَحْلٍ أغْـبَرِ

(١) فى (ا) : « كاتب » ثم ذكر الـكتاب .

(٢) فى الأصل : « القتيل » ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى (ب) : « الحـكماء » .

(٤) فى (ب) : « وذى خلة يطور به » ؛ وهو تحريف .

(٥) هو العلوى صاحب الزنج ، كما فى مجموعة المعانى .

أوْمَا إلى الكَوْمَاء هـذا طارقٌ   نَحَرَتْنِىَ الأعداء إن لم تُنْحَرِى

[وفى هذه الأبيات ما يُستَحسَن(١) :

كَمْ قد وَلَدْتمْ من كريمٍ ماجدٍ   دامِى الأظافرِ أو غمامٍ مُمطِرِ

سدِكَتْ(٢) أناملُه بقائمِ مرهَفٍ   وبنَشْر عائدةٍ وذِرْوَةِ مِنْـبَرِ

يَلْقَى السيوفَ بوَجْهه وبنحْره   ويُقيمُ هامتـه مقامَ المِغْفَرِ

ويقولُ للطِّرْف : اصْطبِرْ لشَبَا القَنَا   فهَدَمْتُ رُكْنَ المَجْدِ إنْ لم تُعْقَرِ]

وقال آخَر :

وقال وقَدَّمَ(٣) كشَكيّةْ   فـكُلُّ شيْءٍ إنّها فى النهايَةْ

تُطْفِى المُرارَ وتَنفِى الخُمارَ   وما بَعْدَها فى النِّهاياتِ غايَةْ

ولا تتوَقَّعْ أخـيراً بَجِيِك   ففِى أوَّل المُسْتطَابِ الكِفايَةْ

وقال آخَر :

كأنّما فُوهُ إذا تمـدَّدَا   لِلَقْمِ أخلاقُ جِرابٍ أسْوَدَا

كأنّه مُخْتَرِصٌ(٤) قد جَوَّدَا   جانِى جَرادٍ فى وِعاء مِقْلَدَا(٥)

---

(١) وردت هذه التكملة فى (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ، مهمل من النقط ما ظهر منها ؛ وقد أثبتناها هكذا أخذا من السياق . وبعضها عن مجموعة المعانى .

(٢) سدكت أنامله إلخ ، أى أولعت بقائم السيف ، يقال : سدك بالشىء ، إذا أولع به وخفت يده فى عمله .

(٣) فى الأصل : « وقد قدم القوم » ؛ وهو تحريف ، كما أن قوله : « القوم » زيادة من الناسخ لا يستقيم بها وزن البيت .

(٤) المخترص الذى يضع فى خرسه (بكسر الخاء) أى جرابه ما يريد . وفى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) مخترض ؛ وهو تصحيف . كما أن فيها : « هناه » مكان « كأنه » ولا معنى له أيضا .

(٥) أورد فى اللسان هذا الشطر ، مادة « قلد » شاهدا على أن المقلد (بكسر الميم) الرجل المجمع .

وصاحِبٍ صاحَبْتُ غَيْرَ أَبْعَدَا   تراه بين الحُرْبَتَيْن مُسْنَدَا[١]

الحُرْبَة : الغِرارة .

وقال جابرُ بنُ قَبِيصة : ما رأيتُ أحْلَمَ جَلِيساً ، ولا أفضَلَ[٢] رفيقاً ، ولا أشبَهَ سريرَةً بعَلَانية ، مِن زِياد .

وقال جابر أيضا : شَهِدْتُ قَوْمًا ورأيتهم بعَيْنِى ، فما رأيتُ أقرأَ لكتاب الله ، ولا أفقَهَ فى دين الله ، من عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه . وما رأيتُ رَجُلًا أعطى من صُلْبِ مالِهِ فى غير وَلائه ، من طَلْحَةَ بن عُبَيْد الله . وما رأيتُ رجلا أسوَدَ من معاوية . وما رأيت رجلا أنصَعَ[٣] ظَرْفا ، ولا أحْضَرَ جوابا ، ولا أكثرَ صَوَابا ، من عَمْرِو بن العاص . وما رأيت رجلا المعرفَةُ عنده أنفع منها عند غيره ، من المُغيرة بن شُعْبة .

ويقال : ما كان الطعامُ مَرِيئاً ولقد مَرَأ ، وما كان الرَّجل مَرِيئاً وقد مَرُؤ .

وقال لنا القطّان أبو منصور رئيس أهل قَزْوِين : الرَّجُل من أرض أردبيل إذا دَخَل بَلداً يَسْأل فيقول : كيف الخُبْز والمُبَرِّز[٤] ، ولا يَسأل عن غيرهما . فقيل له : لِمَ ذلك ؟ فقال : يأخذ الخبز والمُبَرِّز ، ويأ كلُ ويَسْلَحُ[٥] إلى الصباح .

قال الشاعر :

وما تُنْسِنا الأيّامُ لا نَنْسَ جُوعَنا   بدارِ بَنِى بَدْرٍ وَطُولَ التَّلَدُّدِ

(١) أورد فى اللسان هذين الشطرين مادة (حرب) . والذى فى الأصل :

وصاحب صاحب عيرا يعبدا   تراه بين الحرتين .... إلخ

ولا يخفى ما فى ذلك من تحريف .

(٢) فى الأصل : « أغضب » .

(٣) فى (١) : « أيضيع طرف » ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) المبرّز : المطلق للبطن .

(٥) فى كلتا النسختين : « يسرج » بالسين ؛ وهو تحريف .

ظَلِلْنا كأَنَّا بينهم أهلُ مأتمٍ ... عَلَى ميِّتٍ مُسْتَوْدَعٍ بطْنَ مَلْحَدِ
يُحَدِّثُ بَعْضٌ بعضنا عن مُصابه ... وَيَأمُرُ بَعْضٌ بَعْضَنا بالتَّجَلُّدِ

وقال آخر :

دَعُونى فإنى قد تَغَدَّيْتُ آنِفا ... فإنْ مَسَّ كَفِّى خُبزَكم فاقطَعوا يَدِى

وقال آخر يَصِفُ دارَ قَوْم :

الجوعُ داخِلَها وَاللَّوْحُ(١) خارِجَها ... وليس يَقْرُبُها خُبْزٌ وَلا ماء

قال الهلالىّ : أتى رجلٌ أبا هريرة فقال : إنِّى كنتُ صائما فدخَلْتُ بَيْتَ أبى فوَجَدْتُ طعاماً ، فنَسِيتُ فأكلتُ . قال : الله أطعَمَك . قال : ثم دخلت بيتاً آخر فوَجَدْتُ أهلَه قد حَلَبوا لَقْحَتَهم فسَقَوْنى ، فنسيت فشَرِبْتُ . فقال : يا بُنَىَّ هوِّن عليك فإنك قلَّما اعتَدْتَ الصِّيام .

وقال الشاعر :

وَجَدْتُ وَعْدَكَ زُورًا فى مُزَوَّرَةٍ(٢) ... ذَكَرْتَ مُبْتَدِئًا إحكامَ طاهيها(٣)
فلا شَفَى اللهُ مَنْ يَرْجُو الشِّفَاءَ بها ... وَلا عَلَتْ كَفُّ مُلْقٍ كفَّه فيها
فاحْبِسْ رسولَكَ عَنِّى أنْ يجىءَ بها ... فقد حَبَسْتُ رَسُولِى عن تقاضيها

قال مطرِّف بنُ عبدِ الله بنِ الشِّخِّير عن أبيه : قَدِمْنا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، فقُلنا : يا رسول الله ، أنت سيِّدنا ، وأنت أطوَلُنا علينا طَوْلا ،

(١) اللوح : العطش . والذى فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر « والنوح » وما أثبتناه هو المناسب لقوله بعد : « ولا ماء » .
(٢) المزورة : مرقة تعمل بغير لحم يصفونها للمرضى .
(٣) فى الأصل : « ظاميها » ؛ وهو تحريف .

وأنت الجَفْنةُ الغَرّاء . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « قولوا بقَوْلكم ولا يَستَفِزَّنّكم الشَّيطان فإنما أنا عبْدُ الله ورسوله » .

وقال آخَر :

وأحمرُ مُبْيَضُّ الزُّجاجِ كأنه ... رِداءُ عَرُوسٍ مُشْرَبٌ بخَلوقِ

له في الحَشا بَرْدُ الوِصالِ وطَعْمُه[1] ... وإن كان يَلقاه بلَوْنِ حَرِيقِ

كأنَّ بَياضَ اللَّوْزِ[2] في جَنَباته ... كواكبُ دُرٍّ في سماء عَقِيقِ

قال يونس : أشدُّ طعامٍ ضُرًّا ما كان مِنْ عامٍ إلى عام ، وهو اللِّبَأُ الذي لا يوجَد إلّا في الوِلادة كلَّ عامٍ وإنْ كان مُزْبِدا .

حَكَى يونس : التَّنافِيط[3] ، أن يُنزَعَ شَعْرُ الجِلد[4] ثم يُلقى في النار ثم يؤكل ، وذلك في الجَدْب .

وقال الشاعر :

جاوَرْتُ شَيْبانَ فاحْلَوْلَى جِوارُهمُ ... إنَّ الكِرامَ خِيارُ الناسِ للجارِ

وكتَبَ ابنُ دينار إلى صديق له : وكتبتَ تفضُّلاً منكَ تَعتَذِرُ من تأخُّرِكَ عن قضاء حقِّ زيارتي بقُصورِ يدَيك عن بِرٍّ يُشْبِهُني ويُشْبِهُك ؛ فأمّا ما يُشْبِهني في هذا الوقت فرَغيفٌ وسكُرَّجةُ كامَخٍ حِرِّيفٍ يَثقُب اللِّسانَ بحرافته .

وكان ابنُ أبي البَغْل إذا أنشد : * أرُوني مَنْ يَقُومُ لكم مَقامي * يقول :

---

(١) في (ب) : « وطيبه » .

(٢) في (١) : « اللون » بالنون ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط تتعذر قراءتها . وقد أثبتناها هكذا نقلا عن كتب اللغة بعد تقليبها على عدة وجوه .

(٤) في الأصل : « الخلد » ؛ وهو تصحيف .

لو شَهِدْتُ قاتَلَه لقلت : كلبُ الحارس يَقوم مَقامك . هـذه قِصّةٌ فى حضور ما يشبهنى ، فأمّا ما يشْبهك فتعـذّر كما قيل :

* ومَطْلَبُ مِثْلى إن أَرَدْتَ عَسِيرُ[1] *

وقال رجل لعُبَيْدِ الله بن زياد بن ظَبْيان : ما أعْدَدْتُ فى كِنانتى سَهْمًا غيرَكَ . فقال : لا تُعِدَّنى فى كِنانتِك فو الله لو قمتُ فيها لَطُلْتُها ، ولو جلَسْتُ فيها لخرقتُها . ولئن أنتظرتَ بى ما يشْبهك طال الانتظار ، والعامّةُ تتمثّل[2] — على خساسةِ لَفْظِها — : « إذا أَرَدْتَ ألّا تُزَوِّجَ ابنَتَكَ فغالِ بمَهْرِها » . وأملى فيك على الأحوال بعيد ، وظنّى فيكَ جميل ، ولستُ أخْشى فيما لى عندك الفَوْتَ فأُعْجِلَه ، * وهل يُلقَمَ الـكلبُ إلا الحَجَر * .

العرَبُ تقول : لئيمٌ جَبانٌ[3] .

وقال أعرابىّ : لا يكنْ بطْنُ أحـدِكم عليهِ مَغْرَمًا ، ليَـكْسِرْه بالتُّمَيْرَة والـكُسَيرة والبُقَيْلة والعُلَيْـكة .

قال ابنُ الأعرابى : الفَرَزْدَق ، الرَّغيفُ الواسع .

قيلَ لابن القِرِّيَّة[4] : تـكلّمْ . فقال : « لا أُحِبُّ الخبز إلّا يابسا » . أراد لا أُحِبُّ أن أتـكلّمَ إلّا بعد الأرتئاء .

وروى أبو عُبَيْدَة فى تفسير بَيْتِ الأعشى فى ديوانه :

---

(١) فى (ا) : « عزيز » .

(٢) فى (ا) : تقول .

(٣) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل ، والظاهر أن لها بقية سقطت من الناسخ .

(٤) فى الأصل : « ابن القرم » .

(١)[إذا ما همُ جَلسوا بالعَشِىِّ]   فأحـلامُ عادٍ وأَيْدِى هُضُمْ

قال : شبَّهَهم بأنسال عاد ، وهم ثمانية ذَوُو أحلامٍ وسؤْدَدٍ : مالك — وهو سيِّد الثمانية — وعمّار وطُفَيل(٢) ، وشَمِر ، وقرزعة(٣) ، وحُمَمة ، وتَنِض(٤) ، ودُفَيف ؛ وهم الذين بعَثَ لقمانُ بنُ عادٍ جاريةً بعُسٍّ من لبَن ، فقال لها : ايتِى الحىَّ فادفعيه إلى سيِّدهم لا تَسْأَلى عنه . فأتت الجاريةُ الحىَّ ، فرأتهم مختلِفين بين عاملٍ ولاعِب ، وثمانيةً على رءوسهم الطَّير وَقاراً ؛ ورأتْ جاريةً من الحىِّ ، فأخبرَتْها بما قال لُقمان ؛ قالت : هؤلاء سادةُ الحىّ ، وسأصِف لك كلَّ واحدٍ منهم ، فادفعى العُسَّ إلى مَنْ شئتِ أمَّا هذا فعَمّار ، أخَّاذٌ وَدَّار(٥) ، لا تخمُدُ له نار ، المُعْشِبات عَقّار (المُعشِبَة : التى تَسْمَنُ على شَحْمٍ قديم) ، وأمَّا هـذا فحُمَمَة ، غَداؤه كل يوم ناقةٌ سَنِمة(٦) ، وبَقَرةٌ شَحِمة ، وشاةٌ(٧) كَدِمَة . وأمَّا هذا فقَرْزَعَة(٣) ، إذا لقىَ جائعاً أشبَعَه ، وإذا لقىَ قِرْناً جَعْجَعَه(٨) وقد خابَ جَيْشٌ لا يَغزو معه . وأمَّا هذا فطُفَيل ، غَضَبه حين يَغضَبُ وَيْل ، ورِضاه حين يَرْضَى سَيْل ، ولم تَحْمِل مثلَه على ظَهرِها إبلٌ ولا خَيْل ، وأمَّا هذا فشَمِر ،

(١) لم يرد هذا الشطر الذى بين مربعين فى الأصـل ؛ وقد أثبتناه عن شعر الأعشين المطبوع فى أوربا . وفى الأصل : « وأنشد » مكان قوله : « وأيدى » ؛ وهو تحريف . وهضم بضمّتين : جمع هضوم ، وهو الجواد المتلاف .
(٢) فى الأصل : « وثميل » ؛ وهو تحريف .
(٣) كذا ورد هذا الاسم فى كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام ؛ ولم نجد من نصٍّ على تصحيحه بالعبارة .
(٤) كذا ورد هذا الاسم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الـكلام هنا وفى صفحة ٥٠ سطر ٣ . ولم نجد من نص على تصحيحه فيما راجعناه من المظان .
(٥) ودّره : أهلـكه .
(٦) فى الأصل : « شبمة » ؛ وهو تحريف .
(٧) فى الأصل : « وسماه » ؛ وهو تحريف . والشاة الـكدمة : الغليظة السمينة .
(٨) جعجعه : نحره .

ليس فى أهله بالشَّحيح القَتِر، ولا المُسْرِف البَطِر، ولا يَخْدَع الحىَّ إذا اؤتُمِر[١]. وأمّا هذا فذُفَيف، قارى الضَّيف، ومُغْمِدُ السَّيف، ومُعِيلُ[٢] الشِّتاء والصَّيف. وأمّا هٰذا فنَبَضٌ، أسْنَتَ الحىُّ فمرِض، فعَدَلَ مَرَضُه عنـدهم إسْناتَهُمْ (أى قَحْطَهُمْ)، فقاموا[٣] عليه فأوْسَعَهُمْ دَقيقاً ولحمًا غَرِيضاً، ومِسْكاً رَميضا[٤]، وكساهُمْ ثيابًا بِيضا؛ وأمّا هٰذا فمالِك، حامِيَتنا[٥] إذا غزَوْنا، ومُطْعِمُ وِلْدانِنا إذا شَتَوْنا[٦]، ودافِعُ كلَّ كريهةٍ إذا عَدَتْ عَلَيْنا. فدَفَعتِ العُسَّ إلى مالِكٍ، فكان سيِّدَهُمْ.

بَشَّرَتْ امرأةٌ زَوْجها بأنّ ابنَها منه قد اتّغَر[٧]، فقال: أتُبَشِّرينَنى بعَدُوِّ الخُبْز؛ اذْهَبِى إلى أهْلِكِ.

قال الشاعر:

من يَشْتَرِى مِنِّى أبا زَيْنِ بَكْرَ بنَ نَطَّاحٍ بفَلْسَيْنِ
كأنّما الآكِل مِنْ خُبْزِهِ يَقْلَعُ مِنْهُ شَحْمَةَ العَيْنِ

وأنشدَ غلَيمٌ مِنْ بَنى دُبَيْرٍ[٨]:

يا بنَ الكِرام حَسَبًا ونائِلَا حقًّا أقولُ لا أقولُ باطِلَا

(١) اؤتمر: استشير.
(٢) يقال: أعال الرجل أهله، إذا كفاهم ومانهم، كعالهم.
(٣) قاموا عليه، أى قاموا بخدمته وما يصلحه فى مرضه.
(٤) الرميض: الحاد، يريد هنا حدة الرائحة. والذى فى الأصل: «رفيضا»؛ ولعله محرف عما أثبتنا. أو لعله: «فضيضا»، أى متفتتا متكسرا.
(٥) حاميتنا الخ، أى أنه يحمى بيوت الحى من المغيرين إذا خرج الرجال للغزو.
(٦) فى الأصل: «سنونا»؛ وهو تحريف.
(٧) اتغر الغلام واثغر: نبت ثغره.
(٨) فى الأصل: «دينار»؛ وهو تحريف.

إليكَ أشكو الدَّهْرَ والزَّلازِلا وكلَّ عامٍ نَقَّحَ الحَمائلا[١]

التَّنْقِيحُ : القَشْرُ ، أى قشَرُوا حَمائلَ سُيوفِهِمْ فباعُوها لشدَّةِ زَمانِهِمْ .

وأنشد :

سَلَا أُمَّ عبَّادٍ إذا الرِّيحُ أعْصَفَتْ وَجَلَّلَ أطْرافَ الرِّعانِ قَتامُها[٢]

وَجَفَّتْ بَقايا الطِّرْقِ إلّا نَضِيَّة[٣] يَصُدُّ الأشافِى[٤] والمَواسِى سَنامُها

وَضَمَّ إلىَّ الليلُ منزِلَ رُفْقَةٍ تَرَامَتْ بهم طَخْياءُ[٥] داجٍ ظَلامُها

تَكادُ الصَّبا تَهْتَزُّهُمْ مِنْ ثِيابِهِمْ شديداً بأرْياطِ الرِّجالِ اعْتِصامُها

لقد عَلِمَتْ أنّى مُفِيدٌ وَمُتْلِفٌ وَمُطْعِمُ أيّامٍ يُحَبُّ طَعامُها

وقال آخَر :

إنَّ بَنِى غاضِرَةَ الكِرامَا إنْ يُقِمِ الضَّيْفُ بهم أعوامَا

يَكُنْ قِراهُ اللَّحْمَ وَالسَّنامَا أوْ يُصْبِحِ الدهرُ لهم غُلامَا

يَكُنْ ظَرِيفاً وَجْهُه كُرامَا

وقال سَماعةُ بنُ أَشْوَل :

رَأَتْ إبِلًا لأبَنِى عُبَيْدٍ تَمَنَّعَتْ مِنَ الحَقِّ لم تُورَكْ بحقٍّ إيالُها[٦]

---

(١) فى الأصل : « الحلائلا » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « قيامها » ؛ وهو تحريف . وأطراف الرعان ، يريد أطراف الجبال .

(٣) فى الأصل : « قصية » بالقاف والصاد ، وهو تصحيف .

(٤) الأشافى : المثاقب ، واحدته إشفى بكسر الهمزة وسكون الشين والفاء المفتوحة .
وفى الأصل : « تصد السلافى » وهو تحريف . يقول : إن سنامها لم يبق فيه ما تخرجه الأشافى ولا المواسى : جمع موسى .

(٥) الطخياء : الظلمة الشديدة .

(٦) كذا ورد هذا الشطر فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام ؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب .

فقالتْ ألا تَغْدُو لِقاحُكَ هكذا فقلتُ أَبَتْ ضِيفانُها وعِيالُها
فما حَلَبَتْ إلّا الثُّلاثةَ(١) والثُّنَى وَلا قُيِّلَتْ إلّا قَرِيبًا مَقالُها

وأنشد أبو الجَرّاح :

أرَى الخُلّانَ قد صَرَموا وِصالِي وَأَضْحَوْا لا سَلامَ وَلا كَلامْ
وَما أَذْنَبْتُ مِنْ ذَنبٍ إليهم سِوَى خَفِّ(٢) المَنائحِ والسَّوامْ

وقال آخر :

خِرْقٌ إذا وَقَعَ(٣) المَطِيُّ منَ الوَجَا لم يَطْوِ دُونَ دقيقِه ذو المِزْوَدِ
حتّى تَؤُوبَ به قليلا . . . . (٤) حَمِدَ الرَّفيقُ نَدَاكَ أَوْ لم يَحْمَدِ

وقال آخر :

تَزَوَّدْتُ إذ أقبلْتُ نَحْوَكَ(٥) غادِيًا إليكَ ونحوَ(٥) النّاسِ لا أتَزَوَّدُ
أرانى إذا ما جِئْتُ أَطْلُبُ نائلًا نظَرْتَ إلى وَجْهِى كأنّكَ أَرْمَدُ

---

(١) الثلاثة بضم الثاء ، أى الثلاثة بفتحها ؛ يريد أنها لم تحلب إلا الثلاثة من الآنية أو الاثنين . وقيلت بضم القاف وتشديد الياء المكسورة : ذكره ثعلب هكذا ؛ ورواها بعضهم قيلت بفتح القاف من القيل بمعنى اللبن الذى يشرب وقت القائلة (اللسان) (مادة ثلث) .

(٢) خف المنائح ، أى خفتها ، مصدر خَفَّ ؛ يريد قلة المنائح ، جمع منيحة ، وهى الناقة الممنوحة للانتفاع بوبرها وولدها ولبنها . وفى الأصل « جف » بالجيم ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « رتع المطى من الرحا » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين . ويريد توانى المطايا وتخاذلها عن المشى من طول السفر وشدة ما أصاب حوافرها من المشى . يصف ممدوحه بالكرم فى هذه الحال ، وأنه خرق أى كريم متخرق فى المعروف وأن ذا مزوده (أى صاحب زاده القيم عليه) لم يُخْفِ دقيقه ولم يخبئه ، بل يبذله للمرملين من الرفاق . (٤)

(٤) كذا ورد هذا الشطر فى الأصل ناقصا ؛ ولم نقف عليه فيما راجعناه من الكتب .

(٥) فى الأصول : « نحول » مكان « نحوك » و « حق » مكان « ونحو » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

ويقال : أزوادُ(١) الرَّكْبِ مِنْ قُرَيْشٍ أبو أُمَيَّةَ بنُ المُغيرة ، والأَسْوَدُ(٢) ابنُ المطَّلبِ بنِ أَسَدِ بن عبد العُزَّى ، ومُسافرُ بن أبي عَمْرو بن أُمَيَّةَ عَمُّ عُقْبَة كانوا إذا سَافَرُوا خَرَجَ معهم الناسُ فلم يَتَّخِذُوا زَاداً ، ولم يُوقِدُوا ناراً كانوا يَكْفُونَهُمْ .

وقال الشاعر :

وبالبَدْوِ جُودٌ(٣) لا يزالُ كأنَّه ... رُكامٌ بأطْرافِ الإِكامِ يَمُورُ

وقال آخر :

والناسُ إنْ شَبِعَتْ بُطُونُهُمُ ... فَفَيْرُهُمْ(٤) منْ ذَاكَ لا يَشْبَعُ

وقال آخر :

دُورٌ تُحاكى الجِنانَ حُسْناً ... لـكنَّ سُكَّانَها خِساسُ
متى أرَى الجُنْدَ ساكِنِيها ... وفى دَهاليزِها يُدَاسُ

وقال آخر :

لولا مخافةُ ضَعْفِى عن ذَوِى رَحِمِى ... وحالُ مُعْتَصِمٍ بى منْ ذَوِى عَدَمِ
وحاجةُ الأخِ(٥) تَبْدُو لى فأُنْجِحَها ... لم أَثْنِ فى عملٍ كَفِّى على قلمى

وقال آخر :

وأُوثِرُ ضَيفِى حِينَ لا يُوجَد القِرَى ... بقُوتِىَ أَحْبُوه وأَرْقُدُ طاوِيَا

(١) فى الأصل : « ازدار الراكب » ؛ وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .
(٢) فى شرح القاموس « زمعة بن الأسود » .
(٣) فى الأصل : « جوع » ؛ وهو تحريف ، إذ ليس من المعروف تشبيه الجوع بالسحاب المتراكم ، وإنما يشبه بذلك الجود .
(٤) فى الأصل : « فعترتهم فى » ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : « لاح » ، وهو تصحيف .

وما أستكثرتْ نفسى لباذلِ وَجْهِه نَوالًا وإنْ كان النَّوالُ حَياتيا

وقال المبرّد : البَطِنُ : الّذى لا يَهُمّه إلّا بطْنُه . والرّغيب : الشّديدُ الأكل . والمَنْهُوم : الّذى تَمْتَلِئُ بَطْنُه ولا تنتهى نفسُه .

وأنشد ابنُ الأعْرابىّ :

وإنّ قِرَى أهْلِ النِّباجِ أرانِبٌ وإن جاء بَعْدَ الرّيْثِ فهو قَليلُ

إذا صَدّ مَثْغُورٌ[1] وأعْرَضَ مُعْرِضٌ فيومٌ على أهْلِ النِّباجِ طَويلُ

وقال آخر :

يَمينُك[2] فيها الخِصْبُ والناسُ جُوّعٌ وقد شَمِلَتْهمْ حَرْجَفٌ[3] ودَبُورُ

وقال آخر :

ألْقَتْ قَوائمَها خَسًا[4] وتَرَنّمتْ طَرَبًا كما يَتَرَنّمُ السّكْرانُ

يَعنِي قِدْراً . وقوائمُها ، يَعْنِى الأثافى . وخَسًا : فَرْد .

وأنْشَد :

بِئْسَ غِذاء العَزَبِ المَزْمُوعِ[5] حَوْأبَةٌ تُنْقِضُ بالضُّلوعِ

الرُّماع[6] : داء . وحَوْأبَة : دَلْوٌ كَبِيرة . والحَوْبُ والحُوبُ : الإثم .

---

(١) المثغور : الذى سقطت أسنانه لا يقدر على الأكل

(٢) فى الأصل : « عينك » ؛ وهو تحريف .

(٣) الحرجف : الريح الشديدة ، وكنى بالحرجف والدبور عن الجدب ، وفى الأصل : « وقد شملهم جرجف ودنور » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : « قرائعها حسا » وهو تحريف فى كلتا الكلمتين ؛ والتصحيح عن كتب اللغة .

(٥) فى الأصل : « العرب المرنوع * خوانه » الخ البيت ؛ وهو تحريف كما ترى .

(٦) عبارة الأصل : الرقاع وخوانه داء كثيرة ؛ وهو تحريف فى جميع هذه الألفاظ وقد ذكر اللغويون أن الرماع داء فى البطن يصفر منه الوجه . وتُنقِض الضلوع ، أى تسمع الأضلاع نقيضا ، أى صوتا من ثقل تلك الدلو .

والجِيبَة : الحال . والحَوْباء : النَّفْس[١] .

العَرَبُ تقول : ماءٌ لا تِبْنَ[٢] معه ولا غَيْره . خبزٌ قَفار : لا أُدْمَ معه . وسَوِيقٌ جافٌّ هو الذى لم يُلَتّ بِسَمْنٍ ولا زَيْتٍ . وحَنْظَلٌ مُبَسَّل ، وهو أن يُؤكلَ وَحْدَه .

قال الراجز :

بئس الطّعامُ الحَنْظَلُ المُبَسَّلُ   يَاجَعُ منه كَبِدى وأَكْسَلُ[٣]

وَيَيْجَعُ أيضاً .

وقال أبو الجرّاح : المُبَسَّلُ يُحْرِق الكَبِدَ . والمُبَكَّل[٤] : أن يُؤْكَلَ بتَمْرٍ[٥] أو غيرِه ، يقال بَكّلُوه[٤] لنا ، أى اخْلِطوه . قال : وعندنا طعامٌ يقال له : الخَوْلَع وهو أنْ يُؤخَذَ الحَنْظَلُ فيُنقَعَ مَرّاتٍ حتى تَخْرُجَ مَرارَتُه ، ثم يُخْلَطَ معه تَمْرٌ ودقيق فيكون طعاماً طيّبا .

وقال : الخَليطةُ والنَّخِيسةُ والقَطِيبَة : أنْ يُحْلَبَ لَبَنُ الضَّأْنِ على لَبَنِ المِعْزَى ، والمِعْزَى على لَبَنِ الضَّأن ، أو حَلَب النُّوقِ على لَبَنِ الغَنَم .

قال :

* اسقنى[٦] وأبردْ غَليلِى *

---

(١) يلاحظ أن استطراد المؤلف هنا بذكر الحوب لا مناسبة له ، فإن الحوأبة فى البيت إنما هى من مادة « حأب » ، والحوب الذى ذكره من مادة (حوب) .

(٢) يريد بالتبن ما يعم أنواع العلف .

(٣) فى الأصل : « وأبسل » ؛ وهو تحريف .

(٤) ورد هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم فى الأصل بالدال مكان الباء ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة . يقال : بكله : إذا خلطه .

(٥) فى الأصل : « بمرا وغيره » ؛ وهو تحريف .

(٦) لم ترد فى الأصل بقية هذا البيت ؛ ولم نجده فيما راجعناه من الكتب .

مَلِئَ الرَّجُلُ : سَمِنَ بعد هُزال .

قيل لطفَيْل العَرَائس : كم اثنين فى اثنين ؟ قال : أَرْبعَةُ أَرْغِفَة .

وقيل له : حُكِىَ أنّ العَرَب تقول نحن العَرَبَ أقرى الناس للضيف ، فقال : إنّ هذا النَّصْبَ على المدْح .

وقال العُمانىّ :

من كلّ جِلْفٍ[(1)] لم يكن مُصَرَّما جَعْدٍ يُرَى منه التصنُّعُ رَيْثَما[(2)]

لم يَتَجَشَّأْ من طَعامٍ بَشَما . . . .[(3)]

ولم يبِتْ من فَتْرةٍ مُوَصَّما[(4)] يَغمِزُ صُدْغَيْه ويَشْكُو الأعْظُما

إذا أجاعَ بَطْنَه تَحزَّما[(5)] لَم يَشْرِبِ الماء ولَم يَخْشَ الظَّما

يَكْفيه مِن قارِصَةٍ[(6)] ما يَمَّما

---

(١) فى الأصل حلف بالحاء المهملة ؛ وهو تصحيف . وقوله : لم يكن مصرما ، إما أن يفسر بأنه لم يكن منتعلا ، مأخوذ من الصرم بكسر الصاد وهو الخف الذى له نعل . وإما أن يراد أنه لم يكن ذا مال مأخوذ من الصرمة بكسر الصاد ، وهى القطعة من الإبل من الأربعين إلى الخمسين ؛ وقيل غير ذلك فى عددها .

(٢) ريثما ، أى يتصنع ريثما ينال بغيته . وفى الأصل ريّما ؛ وهو تحريف .

(٣) ورد فى هذا الموضع الذى وضعنا فيه هذه النقط شطر من هذه الأرجوزة مهمل أكثر حروفه من النقط ومطموس بعضها ، ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه ، كما أننا لم نعثر على الأرجوزة فى المصادر التى بين أيدينا ؛ وها هو هذا الشطر كما فى الأصل :

* ولم يرحنا غرانا أدما *

(٤) يقال وصمته الحمّى بتشديد الصاد إذا جعلت فى جسده فترة . ويقال وصّمه التعب إذا فتّر جسمه وأكسله . وفى الأصل : « قترة » بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر : إذا أجاع قبطة تخدما . وهو تحريف فى جميع هذه الألفاظ . وسياق الشعر يقتضى ما أثبتنا .

(٦) القارصة : الطائفة من اللبن الحامض الذى يحذى اللسان بحرافته .

وَخَلَّةٍ[(١)] منــــه إذا ما أَعْيَمَا أصــــابَ مِنه مَشْرَبًا ومَطعمَا
لا يَعْقِرُ الشارفَ إلّا مُحْرِما[(٢)] وَلا يعَافُ[(٣)] بَصَــلا وَسَلْجَمَا
يَومًا وَلم يَفْغَرْ لِبِطِّيــخٍ فَمَا فهو صَــحِيحٌ لا يَخافُ سَقَمَا
أسْوَدَ كالمِحْرَاثِ[(٤)] يُدْعَى شَجْعَمَا[(٥)] صَمَحْمَحٌ[(٦)] مِنْ طُولِ ما تأثَّمَا
لم يَبِلْ[(٧)] يومًا سَوْرَةً مِنَ العَمَى ولم يَحُجَّ المَســجِدَ المُكَرَّمَا
وَلم يَزُرْ حَطِيمَــــه وزَمْزَمَا وَلا تَرَاهُ يَطْلُب التَّفَــهُّمَا
لو لم يُرَبِّ[(٨)] مُسلِمًا ما أسْــلَمَا ما عَبَدَ اثنــانِ جَمِيعًا صَنَمَا
عاتٍ يَرَى ضَرْبَ الرِّجالِ مَغْنَمَا إذا رأى مُصَــدِّقًا تَجَهَّمَا
وَهَزَّ فى الكَفِّ وأبْدَى المِعصَمَا هِرَاوَتَيْنِ[(٩)] نَبْعَــةً وسَلَمَا
يَتْرُكُ[(١٠)] ما رامَ رُفاتًا رِمَمَا وإنْ رأى إمَّرَةً[(١١)] تَزَغَّمَا
لم يُعْطِهِ شيئًا وإنْ تَرَغَّمَا وإنْ قَرَا عَهْــدًا له مُنَمْنَمَا
هانَ عليه شَــقُّهُ ما قد رَقَمَا وأنْ يَذُقَ طِيــنَهُ المُخَتَّمَا

(١) وخلّة منه ، أى من اللبن ، واحدة الخلّ ، معروف ، أى الطائفة منه . والخلّ قد يكون من اللبن كما فى كتب اللغة .
(٢) فى الأصل : لايعرف الشادف المحترما ؛ وفيه تحريف كما ترى ، وسياق الشعر يقتضى ما أثبتنا . والشارف : المسنّة من الإبل ، أى لا يعقر الناقة إلا فى الحج حين يجب عليه عقرها .
(٣) فى الأصل : « ولا يأنف » ؛ وهو تحريف .
(٤) المحراث : حديدة تحرك بها النار .
(٥) الشجعم من الحيات : الشديد الغليظ . وفى الأصل : سجعما بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف .
(٦) الصمحمح : الشديد المجتمع الألواح .
(٧) فى الأصل : « يبك » بالكاف ؛ وهو تحريف .
(٨) فى الأصل : « يرث » بالثاء المثلثة ، وهو تصحيف .
(٩) فى الأصل : « إهاوه بيعثة » وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين .
(١٠) فى الأصل : « ينزل » ؛ وهو تحريف .
(١١) الإمرة : الضعيف الرأى الذى يوافق كلا على ما يريد ولا رأى له

صَمْصامُه ماضٍ إذا ما صـمَّمَا إذا اعترته عِزَّةٌ(١) ثم انتمى

فى ثَرْوَةِ الحىِّ إذا ما يمَّمَا ظَلَّ يرى حُكْمًا عليه مُبْرَمًا(٢)

أن يَظْلِمَ النَّاسَ وألّا يُظْلَمَا

وقال آخر :

ما كان يُنكَرُ فى نَدِىِّ مُجاشِعٍ أَكْلُ الخزيرِ ولا ارتضاعُ الفَيْشَلِ(٣)

وقال آخر :

بلادٌ كأنَّ الجوعَ يَطْلُبُ أهلَها

بذَحْلٍ(٤) إذا ما الضَّيْفُ صَرَّتْ جنادبُه(٥)

وقال آخر :

كَرِيُّه لا يُطْعِمُ الكَرِيَّا(٦) باللَّيْلِ إلَّا جِرْجِرًا مَقْلِيَّا

مُحْترقًا نِصْفًا ونِصفًا نِيَّا

وقال الأصمعى : قال الهيثم بنُ جَراد — وذمَّ قومًا — : واللهِ ما أنتم آلُ

(١) فى الأصل : « غرة » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « منهما » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ا) الوارد فيها وحدها هذا الشعر « عزى » مكان «ندى» ، وحريز مكان خزير ؛ وهو تحريف كما ترى ، والتصحيح عن النقائض ؛ والبيت لجرير . والخزير : لحم يقطع صغارا ويلقى فى الماء فإذا أميت طبخا ذرّ عليه الدقيق .

(٤) فى الأصل : « بدخل » ؛ وهو تصحيف .

(٥) صرير الجندب مثل يضرب للأمر يشتد حتى يقلق صاحبه . والأصل فيه أن الجندب إذا رمض فى شدة الحر لم يقر فى الأرض ، وطار فتسمع لرجليه صريرا . والجندب طائر أصغر من الصدى يكون فى البرارىّ .

(٦) إذا أكريت إنسانا بعيرك أو أكراك بعيره فكل منكما كرىّ صاحبه ، قاله فى اللسان وأنشد هذا الرجز . والجرجر : الفول بلغة أهل العراق ؛ أو هو نبت . والذى فى الأصل « كدنة » مكان قوله « كريّه » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا بعد تقليب هذه الكلمة على عدة وجوه .

فَلاةٍ فتَمْصمَكمْ ، ولا أنتم آلُ رِيفٍ فتأكلون . فقيل : لو زِدتَ ؟ فقالَ : مابعْد هذا شيء .

قال : وما أشبه هذا الجواب بقَوْل عقيل بن عُلَّفة[1] حين قيل له : لم لا تطيلُ الهجاء ؟ قال : يَكْفيكَ مِن القِلادة ما أحاط بالعُنُق .

وقيل لابن[2] عُمَر : لو دعَوْتَ الله بدعَوات ؟ فقال : اللهمّ عافِنا وارحَمْنا وارزُقنا . فقيل له : لو زِدتَنا ؟ فقال : نَعوذُ بالله مِنَ الإسْهاب .

قال شاعر :

إذا أغلَقَ البابَ الكريمُ مِنَ القِرَى فليس على باب الفَرَزْدَق حاجِبُ

فَتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثناء بمالِهِ إذا أغبرَّ مِنْ بَرْدِ الشتاء الكواكِبُ

قال : وكلّ لحمٍ وخُبْزٍ أُنْضِجَ دَفِيناً فهو مَلِيل ، وما كان فى تنُّور فهو شِواء ؛ وما كان فى قِدْرٍ فهو حميل[3] .

قال الأحنفُ لعُمر بن الخطاب : إن إخواننا من أهل الكوفة والشام نَزَلُوا فى مُقْلَةِ[4] الجمل وحِوَلاء النَّاقة من أنهارٍ متفجِّرة ، وثِمارٍ متدلِّية ، ونَزَلنا

---

(١) كذا فى (ب) والذى فى (ا) : « ابن علقمة » .

(٢) فى (ب) « لأبى عمرو » .

(٣) كذا فى الأصل ؛ ولم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والذى وجدناه بالمعنى المذكور « قدير » أى مطبوخ فى القدر ؛ ولعل قوله حميل بالحاء المهملة مصحف عن جميل بالجيم ؛ وهو الشحم المذاب ، فيكون هنا كلام سقط من الناسخ قبل هذه الكلمة المصحّفة التى نحن بصددها .

(٤) مقلة الجمل وحولاء الناقة يتمثل بهما فى الخصب والنعمة ، فيقال : هم فى مثل حدقة البعير ، وذلك أن حدقة البعير أخصب ما فيه ، لأن بهما يعرفون مقدار سمنه ، وفيها يبقى آخر النقى ، وهو مخ العظم . ويقال صاروا فى حولاء الناقة إذا صاروا فى خصب ؛ وإذا وصفت الأرض قيل كأنها حولاء الناقة ، لأن ماء الحولاء أشد ماء خضرة . والحولاء : الماء الذى يخرج على رأس الولد إذا ولد ، وليس فى الكلام فعلاء بالكسر ممدودا إلا حولاء =

بسَبِخَةٍ نَشّاشة(١) يأتينا ماؤُنا فى مِثل حلقوم(٢) النَّعامَة أو مرىء الجَمَل ، فإما أن تَشُقّ لنا نَهرًا ، وإما أن ترفعنا إليك .

قال جابر : كان النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم يأمرُ الأغنياء باتّخاذ الغَنَم ، والفُقراء باتّخاذ الدّجاج .

والعربُ تقول : أكرِمُوا الإبل إلّا فى بيتٍ يُبنَى ، أو دمٍ يُفدَى ، أو عزَبٍ يتزوّج ، أو حَمْلِ حَمالة .

وقال مُعاوِيَةُ لأعرابىّ : ما تجارتُكَ ؟ قال : أبيع الإبل ، قال : أما علمت أن أفْوَاهَها حَرَب(٣) ، وجلودَها جَرَب ، وبعرها حَطَب ، وتأكل الذهب .

وقال خالدُ بنُ صَفْوان : الإبلُ للبُعْد ، والبغالُ للثقل ، والبَراذينُ للجَمالِ والدّعة ، والحيرُ للحوائج ، والخَيْلُ للكَرّ والفرّ .

وقال آخر :

يَقذِفْنَ فى الأعناقِ والغَلاصِمِ(٤) قَذْفَ الجَلاميد بكَفِّ الراجِمِ

يُريدُ بالأعناق الحُلُوق .

= وعنباء وسيراء . وقيل : الحولاء : غلاف أخضر كأنه دلو عظيمة مملوءة ماء وتنفقأ حين تقع على الأرض وهو قائد السلى ، أى يخرج قبله ؛ ويقال أيضا هم فى مثل حولاء السلى . انظر ما يعوّل عليه للمحبى ولسان العرب .

(١) نشّاشة ، أى نزّازة بالماء لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها .

(٢) حلقوم النعامة ومرىء الجمل : مثلان فى قلة ما يأتيهم من الماء وضيق مسايله إليهم .

(٣) حرب ، أى ذات حرب ، وهو والكلب واحد وزنا ومعنى ؛ وجلودها جرب أى ذات جرب .

(٤) الغلاصم : جمع غلصمة ، وهى رأس الحلقوم . يريد أن هذه الإبل تقذف الطعام فى حلوقها وأعناقها قذف الحجارة . يصفها بقوة القذف قذف الطعام . والذى فى الأصل : « يقدمن » مكان « يقذفن » ؛ وهو تحريف .

وقال آخر :

نَغَارُ إذا ما الرَّوْعُ أَبْدَى عن البُرَى   ونَقْرِى عَبيطَ اللَّحْمِ والماء جامِسُ(١)

وقال آخر :

تِلْكَ المكارِمُ لا ناقٌ(٢) مُصرَّمَةٌ   ترعَى الفَلاةَ وَلا قَعْبٌ مِنَ اللَّبنِ

وقال أبو الصَّلت :

تِلكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ(٣) مِنْ لَبَنٍ   شِيبَا بماء فعادا بعدُ أبْوالا

وَوَصفَ بعضُ البُلغاء التجار فقال : لا يوجد الأَدَبُ إلّا عند الخاصّة والسُّلطانِ ومُدَبِّريه ، وأما أصحابُ الأسواقِ فإنّا لا نَعدَم من أحدهم خُلُقًا دقيقًا ودِينًا رَقيقًا ، وحِرْصًا مُسْرِفًا ، وأدبًا مُختَلفًا ، ودناءة مَعْلومة ، ومُرُوءة مَعْدومة وإلْفاءَ اللَّفيف(٤) ، ومُجاذَبةً عَلَى الطَّفِيف ، يَبْلُغُ أحدُهم غايةَ المَدْحِ والذَّمّ فى عِلْقٍ(٥) واحد فى يوم واحد مع رجل واحد ، إذا اشتراهُ مِنه أو باعه إيّاه ، إن بايَعكَ مُرابَحةً(٦) وخَبَّرَ بالأثمان ، قوّى الأَيْمانَ على البُهْتان ، وإن قَلَّدْتَه

(١) البيت لذى الرمة ، والبرى : الخلاخيل ، والماء الجامس : الجامد . يقول إنهم يغارون على النساء إذا اشتد الفزع ، وكشف الرعب عن سيقانهن فأبدين من خلاخيلهن ، فهم إذ ذاك يحمونهن ويكفينهن ما يفزعهن ؛ ثم يقول فى الشطر الثانى إنهم كرام ، إذا اشتد البرد وجمد الماء يقرون أضيافهم عبيط اللحم ؛ وفى رواية سديف ؛ وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا : يغار إذا ما الزرع أبدى عن الثرى   ويقرى الخ . . . . . .
وفيه تصحيف فى بعض كلماته كما ترى ؛ والتصويب عن ديوان ذى الرمة وغيره .

(٢) الناق : جمع ناقة . وفى (أ) التى ورد فيها وحدها هذا البيت : « لا ناب » بالباء ؛ وهو تحريف ، إذ الناب الواحدة — وهى المسنّة من الإبل — لا تكون مصرّمة ، أى بالغة صرمة ؛ وهى عدة من الإبل تبلغ الأربعين .

(٣) القعب : القدح الضخم .   (٤) اللفيف : الصديق .

(٥) العلق : النفيس من المتاع .

(٦) يريد بالمرابحة هنا أن يقول المشترى للبائع : أربحك فى هذه السلعة كذا فوق ما اشتريتها به من الثمن أو أن يقول البائع للمشترى ذلك .

الوَزْنَ أعْنَتَ لِسانَ الميزان ، ليأخُذَ بِرُجْحانٍ أو يُعْطِىَ بنُقْصان ؛ وإن كان لك قِبلَه حَقٌّ لَواهُ مُحْتَجًّا فى ذلك بسُنَّةِ الشُوفيِّين ، يَرْضَى لكَ ما لا يَرْضَى لنفسه ، ويأخذُ منكَ بِنقْدٍ ويُعطيك بغَيْره ، ولا يرَى أنّ عليه من الحقّ فى المبايَعَة مثلَ ما لَه ؛ إن استَنْصَحْتَه غشّك ، وإن سألته كَذَبَك ، وإن صَدَقْتَهُ حَرَبَكَ مُتَمرِّدُهم صاعقةٌ على المُعامِلين ، وصاحبُ سَمْتِهم نِقْمَةٌ على المُسْتَرْسِلِين[1] ؛ قد تعاطَوا المُنْكَرَ حتّى عُرِف ، وتَناكروا المعروفَ حتّى نُسِى ، يتَمَسَّكونَ من المِلّةِ بما أصْلح البضائع ، وينهَوْن عنها كلّما عادتْ بالوضائع[2] ؛ يُسَرُّ أحدهم بحِيلةٍ يُرْزَقُها[3] لِسِلْعَةٍ ينفقُها ، وغِيلةٍ لمُسْلمٍ يَحْميه الإسلام ، فإذا أحكم حِيلته وغِيلتَه غدًا قادرًا على حَرْدِه ، فقرّ وَضَرّ ، وآبَ إلى مَنزله [بحطام قد جَمعه مغتبطًا بما أباحَ مِن دِينه] وانتَهَكَ من حُرْمَةِ أخيه ، يَعُدُّ الذى كان منه حِذقًا بالتكسّب ، ورِفقًا بالمطلَب ، وعِلْمًا بالتجارة ، وتَقَدُّمًا فى الصناعة .

(٣) فلمّا بلغتُ قراءتى هـذا الموضعَ قال الوزير : إن كان هذا الواصفُ عَنَى العامّةَ بهذا القَوْل فقد دخل فى وصفه الخاصةُ أيضاً ، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاقَ إلّا شائعة فى أصناف الناس من الجُنْد والـكُتّاب والتُّنّاء[4] والصالحين وأهل العلم ؛ لقد حالَ الزّمانُ إلى أمْرٍ لا يأتى عليه النّعْت ، ولا تَستَوْعِبُه الأخبار ، وما عَجَبِى إلّا مِنَ الزِّيادة على مَرّ الساعات ، ولو وَقَفَ لعَلّه كان يُرْجَى بعضُ ما قَدْ وَقَع اليأسُ منه ؛ وأُعترِضَ القُنوطُ دُونَه .

(١) السمت : هيئة أهل الخير وطريقتهم . والمسترسلون : من استرسل إليه إذا انبسط إليه واستأنس ثقة به واتـكالا على ما بينهما من ودّ وصلة . وفى الأصل : المترسلين ، وهو تحريف . (٢) الوضائع : الخسائر .

(٣) فى (ا) « يزورها » بتشديد الواو ؛ وهو وإن صح به المعنى إلا أنه لا يستقيم به السجع . (٤) التنّاء : الدهاقين ورؤساء القرى ، الواحد تانئ .

فقال ابن زُرْعة وكان حاضرًا : هــذا لأنّ الزمان من قبل كان ذا لَبُوس من الدِّين رائع ، وذا يَدٍ من السِّياسة بسيطة ، فأخْلَقَ اللَّبوسُ [وبَلِيَ ، بل تمزّق] وفَنِيَ ، وضعفت اليَدُ بل شَلّتْ وقُطعتْ ، ولا سبيلَ إلى سياسة دينيّة لأسْبَاب لا تتفق إلّا بعلل فلــكيّة ، وأمور سماويّة ، فحينئذ يكونُ انقيادُ الأمور الجامحة[1] لها ، فى مُقابلة حِران الأمُور الجامحة[1] عنها ، وذلك مُنْتَظَر فى وَقْتِه ، وتَمَنِّى ذلك قبل إبّانِه وسواسُ النَّفْس ، وخَوَرُ الطِّباع ، والناس أهدافٌ لأغراض الزمان ومُتَقَلِّبون بحوادث الدهور[2] ، ولا فَــكاكَ لهم مِن المــكاره ، ولا أعتلاقَ لهم بالمحابّ [إلّا] بالدواعى والصوارف التى لا سبيل لهم إلى تحويل هذه إلى هذه ، ولا إلى تبديل هــذه بهذه ، وأختيارُهم للتوجُّه إلى محبوبهم أو الإعْراضِ عن مكْرُوههم ضَعيفٌ طفيف ، ولولا ذلك لــكانت الحَسَرات تزول فى وَقتِ ما يُراد[3] ، والغبْطةُ تُملَكُ[4] بإدراك ما يُتمنّى ، وهذا شأوٌ مَحْــكومٌ به بقُوّة النَّفس ، غيرُ مُسْتَيْقَظٍ إليه[5] بقوّة الحِسّ .

فقال الوزير : أحسنتَ يا أبا علىّ فى هذا الوصف ، « وإنّ نَفْسَكَ[6] ليَدُلُّ على أكثرَ مِن ذلك » ، ولو كان البالُ ظافراً بنِعْمة ، والصَّدْرُ فارغاً من كُرْبَة ، لــكنّا نَبْلُغُ من هذا الحديث مبلغاً نَشْفِى به غَلِيلَنا [قائلين] ونُشْفَى به مُسْتَمِعين ،

(١) ورد هذان اللفظان فى كلتا النسختين كل منهما مكان الآخر ، والسياق يقتضى ما أثبتنا كما ترى .

(٢) فى (ب) « الأمور » .

(٣) كذا فى (ب) والذى فى (ا) « فى فوت الإيراد » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ب) «تدرك» ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) فى كلتا النسختين : « عليه » وسياق الــكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٦) كذا ورد هذا الــكلام الذى بين هاتين العلامتين فى (ب) والذى فى (ا) « وأن تقبله كيدك على أعزز من ذلك » ؛ وفى هذا الــكلام تحريف كما ترى لا يفهم له معنى .

ولكنّي قاعِدٌ معكم وكأني غائب ، بل أنا غائبٌ مِنْ غير كاف التّشبيه ، والله ما أملِكُ تصرُّفي ولا فِكْري في أمْري ، أرى واحدًا في فَتْلِ حَبْل(١) ، وآخَرَ في حَفْرِ بئر ، وآخَرَ في نَصْبِ فَخّ ، وآخَرَ في دَسّ حِيلة ، وآخَرَ في تقْبيح حَسَن ، وآخَرَ في شَحْذِ حَديد ، وآخَرَ في تمْزِيق عِرْض ، وآخَرَ في اختلاق كَذِب ، وآخَرَ في صَدْع مُلْتَئِم ، وآخَرَ في حَلّ عَقْد ، وآخَرَ في نَفْثِ سِحْر ، وناري مع صاحِبي رَماد ، ورِيحُهُ عليّ عاصِفة ، ونَسِيمي بَيْني و بَيْنَه سَموم ، ونَصِيبي منه هُموم [وغُموم] ، وإنّي أحدِّثكم بشيء تَعلَمُون [به] صِدْقي في شَكْوَاي ، وتقِفون منه على تَفَسُّخِي(٢) تَحْتَ بَلْواي ، ولولا أنّي أطفِئ بالحديث لَهَبًا قد تضَرَّم صدْري به نارًا ، واحتَشى فؤادي منه أُوارًا ؛ لما تَحدَّثْتُ به ، ولو استطَعْتُ طَيَّه لَما نَبَسْتُ بحَرْفٍ منه ، ولكنّ كِتْماني للحديث أنقَبُ لحِجابِ القَلْب من المَتَلة لسُور القَصْر .

دَخَلْتُ منذ أيام فوصلت(٣) إلى المجلس ، فقال لي قد أعَدْتُ الخِلْعَة فالْبَسْها على الطائر الأسْعد ، فقلت أفعَل ، وفي تذكرتي(٤) أشياء لا بدّ مِنْ ذِكرها وعَرْضها .

فقال : هاتِ ، فقلت : يُتقدَّم(٥) بكذا وكذا ، ويُفعَل كذا وكذا . فقال : عندي جميعُ ذلك ، أمْضِ هذا كلَّه ، واصنَعْ فيه ما ترى ، وما فَوْقَ يَدِك يد ، ولا عليك لأحدٍ اعتراض ؛ فانقلبتُ عن المجلس إلى زَاوِيَةٍ في الحُجْرة ، وفيها تحدَّرَت دُموعي ، وعلا شَهِيقي ، وتَوَالى نشيجي ، حتّى كِدْتُ أفتَضِح

(١) وردت هذه العبارة في كلتا النسختين مهمل بعض حروفها من النقط تتعذر قراءتها .
(٢) في كلتا النسختين « تفسحي » ؛ وهو تحريف .
(٣) في (ب) « فدخلت » . (٤) في (ا) « وفي فكري » .
(٥) يتقدم بكذا ، أي يؤمر به .

فدَنَا منّى بعضُ خدَمى من ثِقاتى ، فقال : ما هـذا ؟ الناس وقوفٌ يَنْتَظِرون بُرُوزَكَ بالخِلْعة المُبارَكة والتّشريف المَيْمون ، وأنت فى نوحٍ ونَدَم ؟! فقلتُ : تَنَحَّ عنّى ساعةً حتّى أُطْفِئَ نارَ صَدْرِى ، وإنما كان ذلك العارضُ لأنى كنت عرضتُ على صاحبى تذكرةً مشتملةً على أشياء مختلفة ، فأمضاها كلَّها ، ولم يُناظرنى فى شىء منها ، ولا زادنى شيئاً فيها ، ولا ناظَرَنى عَلَيْها ، ولعلىِّ قد بَلَوْتُهُ بها ، وأخْفَيْتُ مَغْزَاىَ فى ضِمْنِها ، فخُيِّل إلىَّ بهذه الحال أنَّ غَيْرِى يَقِفُ مَوْقِفى ، فيقول فىَّ قَوْلاً مُزَخْرَفاً ، ويَنْسبُ إلىَّ أمراً مؤلَّفا ، فيُمضى ذلك أيضاً له كما أمضاه لى ، فوجدتُنى[1] بهذا الفِكْرِ الذى قد فَتَقَ لى[2] هـذا النوع من الأمرِ كراقمٍ على صَفْحَةِ ماء ، أو كقابضٍ فى جوٍّ على قِطعَةٍ من هَواء ؛ أو كمن يَنفخُ فى غيرِ فَحَم ، أو يلعبُ فى قيْد[3] ، ولقد صَدَق الأوّل حيث قال :

وإنّ امرأً دُنْياهُ أكبرُ هَمِّه ... لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحَبْـلِ غُرُورِ

غير أنّى أذكر لكم ما عَنّ لِى[4] من هذا الأمر .

اِعْلموا أنّى ظَنَنْت أنَّ ما نظَّمَه[5] الماضى — رحمه الله — وأصْلَحَه ، وبَنَاه وقَوَّمَه ، ونسَجَه ونَوَّقَه[6] لا يَسْتَحِيل فى ثَلاثين سَنةً ولا خَمْسين سنة ؛ وأنّ

(١) فى (ب) « فوجدته » ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا كما فى (ا) .
(٢) فى (ا) « فىّ » .
(٣) فى كلتا النسختين : « فى مد » ؛ وظاهر أن معناه لا يناسب ما هنا ؛ ولعله محرف عما أثبتنا .
(٤) فى (ب) : « ما غرق » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى (ا) : « ما يظهر » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (ا) : وقونه ؛ وهو تحريف . ويلاحظ أن (ا) وحـدها هى التى وردت فيها هذه الكلمة والتى قبلها .

الحالَ تَدُومُ على ذلك المِنْهاج ، وتستمرُّ على ذلك السِّياج ، ونكونُ قد أَخَذْنا بطريق من السّعادة ، وبَلَغْنا لأَنْفُسِنا بعضَ ما كُنّا نُسَلِّط عليه التَّمَنِّيَ من الإرادة فنَجْمَعُ بين علوِّ المرتبة ، وشَرَفِ الرِّياسة ، ونَيْلِ اللَّذّة ، وإدراك السرور ، واصطناع العُرْف ، وكسْبِ الثّناء ، ونَشْرِ الذِّكْر ، وبُعْدِ الصِّيت ، فعادَ ذلك كلُّه بالضِّد ، وحالَ إلى الخلافِ ، ووقَفَ على الفِكْرِ المُضْنِي ، والخَوْفِ المُقْلِق ، واليأْسِ الحيِّ ، والرَّجاء الميّت ؛ وما أحْسَنَ ما قال القائل :

أظمَتْنِيَ[(1)] الدُّنيا فلمّا جئْتُها مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عليَّ مَصائبا

فقال له ابن زُرْعة : إنّ الأُمورَ كلَّها بيدِ الله ، ولا يُسْتَنْجَزُ الخَيْرُ إلاّ منه ، ولا يُسْتَدْفَع الشرُّ إلاّ به ، فَسَلْه جَميل الصُّنْع [وحُسْن النّية] وانو الخير ، وبُثَّ الإحسان ، وكِلْ أعْداءَك إلى رَبِّكَ الّذى إذا عرَفَ صِدْقَكَ وتوَكُّلَكَ عليه فَلَّ حَدَّهم ، وعَفَّرَ خَدَّهم ، وسَيَّحَ الفُرات إلى جَمَراتِهم حتى يُطْفِئَها ، وسَلَّطَ الأَرَضَةَ على أبْدانِهم حتى تَقْرِضَها ، وشَغَلَهُمْ بأنفُسِهم ، وخالَفَ بين كَلِمَتِهم ، وصَدَّعَ شَمْلَ جَميعِهم ، ورَدَّهم إليكَ صاغِرِين ضارِعين ، وعَرَضَهُمْ عليك خاضِعين ؛ وما ذلك على الله بعَزِيز ، وإنّ اللهَ مَعَ المُحْسِنين على المُسِيئين .

قال : والله لقد وَجَدْتُ رَوْحاً[(2)] كثيراً بما قُلْتُ لكم وما سَمِعْتُ منكم ، وأرجُو أنّ الله يُعِينُ المَظْلُوم ، ويُهِينُ الظّالم . قد تَمَطَّى اللّيل ، وتَغَوَّرَتْ النُّجُوم ، وحَنَّ البَدَنُ إلى التَّرَفُّه ؛ فإذا شِئْتُمْ[(3)] . فانصرَفْنا مُتَعَجِّبين .

---

(١) فى (ا) : « أطعمتنى » . وفى (ب) : أطمعتنى ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين . والبيت للمتنبى .

(٢) الروح بفتح الراء والراحة كلاهما بمعنى واحد .

(٣) هذه الجملة أريد بها الإيذان بالانصراف .

الليلة الثالثة والثلاثون

(١) عُدْنا إلى ما كنّا فيه مِنْ حَدِيثِ المُمالحة — وكانَ قد استزادنى — فكتبْتُ له هٰذِه الورقات وقرأتُها بين يدَيه ، فقال كلامًا كثيرًا عند كلّ ما مرّ ممّا يكون صِلَةً لِذٰلك الحديث ، خزَلْتُه طَلَبًا للتخفيف .

قال حمّاد الرّاوية : عن قتادَةَ قال زيادٌ لغَيلانَ بن خرَشة : أُحِبُّ أن تحدّثنى عن العرَب وجَهْدِها وضَنْكِ عَيْشِها لنحمَدَ اللهَ على النِّعْمَة الّتى أصبحْنا بها . فقال غَيْلان : حدّثنى عمّى قال : توالَتْ على العرَب سِنون [سَبْعٌ فى الجاهلية] حَصّت[١] كلّ شىء ، فخرجتُ على بَكْرٍ لى فى العرَب ، فمكثتُ سبعًا لا أذوقُ فيهنّ شَيْئًا إلّا ما يَنالُ بعيرى من حشرات [الأرض] حتى دنوتُ[٢] إلى حِواء[٣] عظيم ، فإذا ببَيْتٍ جَحِيشٍ[٤] عَنِ الحىّ ، فمِلْتُ إليه ، فخرجت إلىّ امرأةٌ طُوالَةٌ حسّانة[٥] ، فقالت : مَن ؟ قلتُ : طارقُ لَيْلٍ يَلتمِسُ القِرَى . فقالت : لو كان عِنْدَنا شىءٌ آثرْناكَ به ، والدالُّ على الخَيْر كفاعِلِه ، جُسْ هٰذِه البُيُوتَ فانْظُرْ إلى أعْظَمِها ، فإنْ يَكُ فى شىء منها خَيْرٌ ففيه . ففعَلْتُ حتى دَنَوْتُ[٦] إليه ، فرحّبَ بى صاحِبُه وقال : مَن ؟ قلتُ : طارقُ لَيْلٍ يَلتَمِسُ القِرَى . فقال : يا فلان ، فأجابه ، فقال : هل عِنْدَكَ (من) طَعام ؟ قال :

(١) فى (ب) : « أهلكت » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً . يقال : حص الشعر ونحوه إذا استأصله .

(٢) فى (ب) : « ولجت » . (٣) الحواء : جماعة البيوت .

(٤) الجحيش : من قولهم : رجل جحيش المحل إذا نزل ناحيــة عن الناس ولم يختلط بهم . ويريد بعد ذلك المنزل وانعزاله عن منازل ذلك الحىّ .

(٥) طوالة حسانة ، أى طويلة حسنة .

(٦) فى (ب) : (دفعت إليه) ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

لا ، قال : فوالله ما وَقَرَ فى أُذُنِى شىء كان أشدّ علىّ منه . فقال : هل عندكَ مِنْ شَراب ؟ قال : لا ، ثم تأوّهَ وقال : قد أبقَيْنا فى ضَرْعِ فلانةَ(١) شيئاً لِطارقٍ إنْ طرَق ، قال : فأتِ به ، فأتى العَطَن فا بتعَثَها ، فحدّثنى عمّى أنّه شَهِدَ فَتْحَ أصْفهانَ وتُسْتَرَ ومِهْرَجان(٢) قُذَق وكُوَرَ الأهْوازِ وفارسَ ، وجاهَدَ عند السُّلْطان وكَثُرَ ماله وَوَلَدُه ، قال : فما سمعتُ شيئاً قطُّ كان ألذَّ إلىّ من شَخْبِ تلك الناقة فى تِلكَ العُلْبَة ، حتى إذا مَلأها ففاضت مِنْ جَوانِبها وارتفعَتْ عليها رُغْوَةٌ كجُمَّة(٣) الشَّيْخ أقبل بها نَحْوِى فعَثَر بعُودٍ أو حَجَر ، فسقطت العُلبَةُ مِن يده ، فحدّثنى أنه أُصِيبَ بأبيه وأُمّه [وولده] وأهل بيته ، فما أُصيبَ بمُصيبة أعظمَ عليه مِن ذهاب العُلْبة ؛ فلمّا رآنى(٤) كذلك رَبُّ البَيْتِ خَرج شاهِرًا سَيْفَه ، فبَعَثَ الإبِلَ ثم نَظَر إلى أعظَمِها سَنامًا ، على ظَهْرِها مثل رأسِ الرّجل الصَّعِل(٥) ، فكَشفَ عن فُوّهَتِه(٦) ثم أوقد ناراً ، وأُجْتُبَّ سَنامَها ، ودَفَعَ إلىّ مُدْيَةً وقال : يا عبدَ الله ، اصْطَلِ واجْتَمِلْ(٧) فجَعَلْتُ أهْوِى بالبَضْعَةِ إلى النّارِ ، فإذا بلغَتْ إناها أكَلْتُها ، ثم مَسَحْتُ ما فى يَدِى من إهالَتِها على جِلْدِى ، وكان قَدْ قَحِلَ(٨) على عَظْمِى حتّى كأنّه شَنٌّ(٩) ، ثم شربتُ ماءً وخَرَرْتُ مَغْشِيًّا علىّ ، فما أفَقْتُ إلى السَّحَر .

(١) فلانة : كناية عن اسم بعض نياقه . وفى (أ) : الغلابة ؛ وهو تحريف .

(٢) تستر : مدينة عظيمة بخوزستان . ومهرجان قذق : كورة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة ، من نواحى الجبال . وغير هذين من البلاد المذكورة هنا معروف فلا مقتضى للتعريف به .

(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس ، وهى أكبر من الوفرة .

(٤) فى (ب) : « فلما رأى ذلك » . (٥) الصعل : الدقيق الرأس .

(٦) فوّهة الشىء : أعلاه ، يريد أعلى السنام . وفى الأصول ما يشبه فى الرسم كلمة عرقوبها ولا مقتضى لكشف عرقوب الناقة هنا . (٧) اجتمل الشحم : أذابه فى النار .

(٨) قحل على عظمى ، أى يبس من وهج الحر وبعد عهده بالماء .

(٩) الشن : المزادة اليابسة الخلقة .

فقَطَعَ زيادٌ الحديثَ وقال : لا عليكَ أنْ تُخْبِرَنا بأكثرَ مِنْ هٰذا ، فمَنِ المَنْزُول به(١) . قلتُ : عامرُ(٢) بنُ الطُّفَيْل . قال : أبو عليّ ؟ قلتُ : أبو عليّ .

واستعادَنى الوزير [أدام الله علوّه] هذا الحديثَ مرّتين وأكثر التعجُّب ، وقال : صَدَقَ القائلُ فى العَرَب : مُنِعُوا الطَّعامَ وأُعطُوا الـكلامَ .

تَغَدَّى أبو العَيْناء عند ابن مكرَّم ، فقدَّمَ إليه عُرَاقًا(٣) ، فلما جَسَّهُ قال : قِدْرُكُم هٰذه قد طُبِخَت بشِطْرَنج ؟(٤) .

وقَدَّمَ إليه يوماً قِدرًا فوجَدَها كثيرةَ العِظام ، فقال : هذه قِدْرٌ أم قَبْر ؟

وأكلَ عِنْدَه أبو العَيْناء يَوْماً ، فَسُقِيَ ثلاثَ شَرَبات باردة ، ثم طَلَبَ الرابعةَ فَسُقِيَ شَرْبَةً حارّة ، فقال : [لعلّ] مزمّلتَكم(٥) تعتريها حُمَّى(٦) الرِّبْعِ .

قال سَلَمة : بَقِيَ أبو المَمْقامِ ببَغدادَ وكنّا نأتيه ونَسْمَع منه ، فجاءنا بجَفْنَةٍ فيها جُوذَاب(٧) فجعلَ أصحابُنا يأكلون ، ثم أتاهم بسَفُّودٍ فيه يَرابيعُ فسَلَتَها فى الجفنة ، فعَلِمَ القومُ أنّهم قد دُهُوا ، فجعَلوا يَستقيئون ما أكلوا .

وقالت عائشة : [رضى الله عنها] : يا رسول الله ، لى جارتان بأيّتهما أبْدأ ؟ قال : « بأدناهُما باباً منك(٨) » .

(١) فى (ا) : « عليه » .
(٢) عامر بن الطفيل : هو ابن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى وهو ابن عم لبيد .
(٣) العراق : العظم الذى أخذ ما عليه من اللحم .
(٤) يريد بهذه العبارة وصف ما فى القدر باليبس والصلابة كبيادق الشطرنج .
(٥) المزملة : جرة أو خابية خضراء فى وسطها ثقب فيه قصبة من الفضة أو الرصاص يشرب منها .
(٦) حمى الربع هى التى تأخذ يوما وتدع يومين ، ثم تجىء فى اليوم الرابع .
(٧) الجوذاب : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم ، وهو فارسى .
(٨) فى (ب) : « إليك » .

وقال حكيم : ينبغى ألّا يُعطَى البخيلُ أكثرَ مِنْ قُوتِهِ ، ليُحكَمَ عليه بمثلِ ما حكَم [به] على نفسه .

وقال الشاعر :

أفلحَ مَنْ كانَتْ له قَوْصَرَّهْ(١) يأكلُ منها كلَّ يومٍ مَرَّهْ
أفلحَ مَن كانَتْ له مِزَخَّهْ(٢) يَزُخُّها ثم ينامُ الفَخَّهْ
أفلحَ مَن كانت له دَوْخَلَّهْ(٣) يأكلُ منها كلَّ يومٍ مَلَّهْ
أفلحَ مَن كانت له مِرْشَفَّهْ(٤) ونَشْفَةٌ(٥) يملأُ منها كَفَّهْ
أفلحَ من كانت له كِرْدِيدَهْ(٦) يأكل منها وهو ثانٍ جِيدَهْ

وقال أبو فرعون الشاشيّ يخاطب الحجَّاج :

يا خيرَ رَكْبٍ سَلَكُوا طَرِيقا ويَمَّموا مَكَّةَ والعَقِيقا
وأطْعَمُوا ذا الكَعْكَ والسَّوِيقا والخُشْكنانَ(٧) اليابسَ الرَّقِيقا

---

(١) القوصرة : وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البوارى ؛ وينسب هذا الشعر إلى على ابن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٢) فى رواية : « طوبى لمن كانت » الخ . والمزخة : زوجة الرجل لأنه يزخها ، أى يجامعها ؛ والفخة : نومة الغداة ، وقيل نومة التعب . وفى الأصل : القخة بالقاف ؛ وهو تصحيف .

(٣) الدوخلة : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب ؛ وهى كالزنبيل . والملة : المرة .

(٤) فى رواية : « طوبى لمن كانت » الخ ، والمرشفة : خرقة ينشف بها ماء المطر من الأرض ثم تعصر فى الإناء ؛ وإنما يفعل ذلك إذا قل الماء . ذكره صاحب اللسان وأورد هذا البيت شاهداً عليه .

(٥) فى الأصل : « ومنشر » ؛ وهو تحريف . والنشفة : خرقة تنشف بها اليد .

(٦) الكرديدة : القطعة العظيمة من التمر . وهو ثان جيده ؛ أى وهو فى راحة ودعة .

(٧) الخشكنان : الخبز اليابس ، وهو المعروف عندنا بالبسكويت . انظر المعجم الفارسى الانجليزى لاستاينجاس .

وقال آخَر :

رَأَيْتُ الْجوعَ يَطْرُدُهُ رَغِيفٌ   ومِلْءُ الـكفِّ من ماء الفُراتِ

وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلّم : « الطاعِمُ(١) الشاكر بمنزلةِ الصائمِ الصّابر » .

قَبَّلَ مُزَبِّدٌ(٢) جارِيةً بَخْراء ، فقال لها : أظنُّكِ تعشَّيْتِ بكَرِش ، أو احتَشَيْتِ صَحْنا(٣) ؛ فقالت : ما أكلْتُ إلّا خَرْدَلًا . قال : قد ذَهَبَ النِّصْفُ الثانى وبَقِىَ ما قَبْلَه .

قال شاعر :

وباتُوا يُمَشّون القُطَيْعاءَ ضَيْفَهُمْ   وعندهُمُ البَرْنِىُّ فى جُلَلٍ دُسْمِ(٤)

وقال آخَر :

وما أطْعَمُونا الأوتَـكَى(٥) من سَماحَةٍ   ولا مَنَعوا البَرْنِىَّ إلا مِنَ البُخْلِ

سَمِعْتُ الحجّاجِىَّ يقول : كُلِ الْخبزَ أو السَّمَك ، فإنْ أكلَ أحدَهما كان مُطِيعاً ؛ فإذا نَفَيْتَ فقلتَ : لا تأكل الخبزَ والسَّمَك ؛ فإن أكلَ أحدَهما لم يَعْصِك ؛ وإذا قلتَ : لا تأكل الخبزَ أو السمك ، لم يَكُنْ له أنْ يأكُلَ أحدَهما

---

(١) الطاعم ، أى ذو الطعام ، أو المطعوم .

(٢) فى كلتا النسختين « مزيد » بالياء المثناة ؛ وهو تصحيف . ومزبد بالموحدة هو صاحب النوادر المعروف .

(٣) الصحنا والصحناة — وعدان ويقصران — إدام يتخذ من السمك الصغار ؛ مشهٍّ مصلح للمعدة

(٤) القطيعاء : التمر السهريز ، والتمر السهريز : الصغير ، وهو أردأ التمر ؛ وقيل هو البسر قبل أن يدرك ؛ والبرنى نوع جيد من التمر . والجلة : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر . والدسم : الغلاظ .

(٥) الأوتـكى ، هو التمر السهريز ؛ وهو والقطيعاء التى تقدم شرحها فى الحاشية السابقة واحد ؛ وفى المخصص « اللؤم » مكان « البخل » ؛ وفى الأصل : « الأربكى » مكان « الأوتـكى » ؛ وهو تحريف .

لأن التقدير في النفي لا تأكلْ أحدَهما ، والتقديرَ في الإيجاب ائتِ أيَّهما شئتَ ؛ فهذه خاصيَّةُ أو . السَّويقُ : الجَشِيش(١) ، لأنَّه رُضٌّ وكُسِرَ . المِجَشَّة : رَحًى صَغيرَةٌ يُجَشُّ بها . رُوِيَ أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم رأى الشُّبْرُمَ(٢) عند أسماء بنت عُمَيْس فقال : « حارٌّ حارٌّ » ، وأَمَرَ بالسَّنا(٣) .

ويُقال : أَكْلُ البطِّيخ(٤) يَجْفَرَة ، أي يَقْطَعُ ماءَ النكاح .

ويُقال : فلانٌ عظيمُ المُجْرَأَشِّ(٥) أي الوَسَط ، فرسٌ مُجْرَئِشٌ(٥) الجَنْبَيْن واجْرَأَشَّت(٥) الإبلُ ، إذا بَطِنَتْ ، وإبلٌ مُجْرَئِشَّة(٥) أي بِطان ؛ ويقال : كَثْأَةُ(٦) قِدْرِكُم ، وهي ما ارتفع منها عند الغَلْي .

وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما رواه ابن عباس قال : سمعتُه يقول : « ليس بمؤمنٍ مَنْ باتَ شَبْعانَ [رَيَّانَ] وجارُه جائعٌ طاوٍ » .

قال عُمَر : مُدْمِنِ اللحمِ كَمُدْمِنِ الخَمْرِ .

وقال لَقِيطُ بنُ زُرارَةَ يَذُمُّ أصحابَه يَوْمَ جَبَلَة :

---

(١) في الأصل : « الحشيش » ؛ وهو تصحيف .

(٢) الشبرم : نبات له حب كالعدس ، وأوراقه تشبه الطرخون . وفي النهاية لابن الأثير عن أم سلمة أنها شربت الشبرم الخ فقال إنه حارٌّ حارٌّ ، وفسر الشبرم بأنه حب كالحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوي ، وقيل إنه نوع من الشيح ، أخرجه الزمخشري عن أسماء بنت عميس .

(٣) السنا . نبات معروف في الأدوية ، له حمل إذا يبس وحركته الريح سمعت له زجلا الواحدة سناة ، وعرفه بعضهم بأنه نبات يشبه الحناء ، زهره إلى الزرقة وحبه مفرطح إلى الطول عريض الأوراق وأجوده الحجازي ، ويعرف بسنامكة ؛ وقد يقال له السنا المكي ؛ ونوع آخر ينبت ببلاد الروم ويقال له السنا الرومي .

(٤) في الأصل : « البطيح » بالحاء المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٥) وردت هذه الألفاظ التي تحت هذا الرقم في الأصل بالحاء والسين المهملتين ؛ وهو تصحيف ؛ والتصويب عن كتب اللغة .

(٦) في الأصل : « كباة » بالباء الموحدة ، وهو تصحيف ، والتصويب عن كتب اللغة .

إنَّ الشِّواء والنَّشيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحَسْنَاء والكَأْسَ الأُنُفْ
لِلضارِبينَ الهامَ والخَيْلُ قُطُفْ

قيل لدُبّ: لِمَ تُفْقِرُ رَجُلاً في ليلةٍ من كثرة ما تأكُلُ [من] عِنَبِه؟ فقال: لا تَلُمْني، فإنّ بين يدَيَّ أربعةَ أشهرٍ أنْجَحِرُ فيها فلا أتَلَمَّظُ إلّا بالهواء.

قال ابن الأعرابيّ: إذا أقْدَحَ(١) الرَّجُل مرّةً بعد مرّةٍ فأطْعَمَ لحمَه المَساكينَ سُمِّي متمِّمًا، وبه سُمِّيَ ابنُ نُوَيْرَة، ومن ذلك قولُ النابغة:

إنِّي أُتَمِّمُ أيْسارِي وأمْنَحُهُمْ مَثْنَى الأيادِي(٢) وأكْسُو الجَفْنَةَ الأُدُمَا

الثُّرْتُمُ(٣) من فُتات الطعام، ويقال الثُّرْتُمُ أيضاً [ما فَضَلَ من(٤) الطعام في الإناء]، ويقال: طعامٌ ذُو نُزُل(٥). والمَليحُ والمِلْحُ: السِّمَن، يقال: تَمَلَّحَت الجاريةُ وتَحَلَّمَتْ إذا سمِنَت.

وقال أبو الطمحان القَيْنيّ(٦):

وإنِّي لأرجو مِلْحَها في بُطونِكُمْ وما بَسَطَتْ مِنْ جِلْدِ أشْعَثَ أغْبَرَا

هكذا سمِعتُ. ويقال: سَمِنَ حتّى كأنّه خَرْسٌ(٧)، والخَرْسُ(٧): الدَّنّ بعَيْنه. وفي المَثَل: «إنّ آخِرَ الخَرْسِ(٧) لَدُرْدِيّ» أي آخِرُ الدَّنِّ دُرْدِيّ.

(١) أقدح الرجل، أي ضرب بالقداح في الميسر.
(٢) كذا ورد هذا البيت في اللسان؛ والذي في الأصل: «مثنى الأتاق» مكان قوله: مثنى الأيادي؛ وهو تحريف. والأدم: بضمتين هو الأدم بتسكين الدال، أي ما يؤتدم به. يقول: إنه يفوز بهذا اللحم فيطعمه المساكين.
(٣) في الأصل: الترثم؛ وهو تصحيف. والتصويب عن كتب اللغة.
(٤) لم ترد هذه العبارة في (أ) المنقول عنها وحدها هذا الكلام، غير أنها تكملة يقتضيها سياق الكلام أخذنا من كتب اللغة؛ وواضح أن الكلام بدونها يكون ناقصاً.
(٥) ذو نزل، أي ذو بركة.
(٦) في الأصل: «العنبي»؛ وهو تصحيف.
(٧) في الأصل: «الحرش»؛ وهو تصحيف في المواضع الثلاثة التي تحت هذا الرقم.

وأنشد :

حَبَّذَا الصَّيْفُ حَبَّذَا مِن أوانِ ... وزَمانٍ يَفوقُ كلَّ زَمانِ

زَمَنُ الخَمْرِ والمَساورِ والجَشْـ ... نِ(١) ووَرْدِ(٢) الخِلافِ والرَّيْحانِ

زَمَنٌ كانت المَضائرُ(٣) فيه ... بلُحوم الجِداء والحُمْلانِ

وصُدورُ الدَّجاجِ بالخَلِّ والمُـ ... ـرِّيِّ ونَثْرِ السَّذَابِ والأنجُذَانِ(٤)

وسِمانٌ مِنَ القَرارِيجِ تُغْلَى ... بعَصِيرِ الأعْنـاب والرُّمّانِ

وشِـوا الوَزّةِ اللذيذَةِ والقا ... رِص بين الحَلِيب والألبـانِ

ونَقِيِّ السَّـويقِ بالسُّكَّرِ المَنْـ ... ـخُولِ في الثلج في الزُّجاجِ اليَمانِي

وقِلالٌ تُحَطُّ مِنْ بَكَراتٍ ... مَرْوِياتٌ غَلائِلَ العَطْشَانِ

واعترضَ حديثُ العِلْمِ ، فأنشدَ ابنُ عُبَيْدٍ الكاتبُ لسابقٍ الزُّبَيْرِيِّ قولَه :

العِلْمُ يَجْلو العَمَى عن قَلْبِ صاحِبِه ... كما يُجَلِّي سَوادَ الظُّلْمَةِ القَمَرُ

وقال أيضاً :

إذا ما لم يكن لك حُسْنُ فَهْمٍ ... أَسَأْتَ إجابَةً وَأَسأتَ فَهْمَا

(١) الجشن : لفظ فارسي معناه مجتمعات الناس في الأعياد والولائم ونحو ذلك ، كما في المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس . ولم نجد للمساور معنى يناسب السياق ؛ فلعله تحريف لم نهتد إلى وجه الصواب فيه . وفي الأصل : (ومن) مكان (زمن) ؛ وهو تحريف .

(٢) في الأصل « وبرد » مكان (وورد) ؛ وهو تحريف .

(٣) في الأصل : « ومن كانت المضار » ؛ وفيه تحريف لا يخفى . والمضائر : جمع مضيرة وهي لحم يطبخ باللبن المضير ، أي الحامض ، وقد يخلطون به الحليب . أما كيفية عملها فقد ذكرت في كتب الأطعمة فانظرها .

(٤) الأنجذان : نبات له أصل أغلظ من الإصبع ، وقرون كقرون اللوبياء ، فيها حب كالعدس ؛ وهو فارسي معرّب .

آخَر :

العِلْمُ يُنْعِشُ أقواماً فَيَنْقَعُهُم(١) كالغَيْثِ يُدْرِكُ عِيداناً فيُحْيِيها

فقال الوزير : عندى فى تحيفةِ حِفْظِ الصِّبا : العِلْمُ سِرَاجٌ يُجَلِّى الظُلْمَةَ ، وضِياءٌ يَكْشِفُ العَمَى .

التَّذَلُّل مكروهٌ إلّا فى أستفادتِهِ ، والحِرْصُ مَذْمُومٌ إلّا فى طَلَبِهِ ، والحَسَدُ مَنْهِيٌّ عنه إلّا عليه .

ثم عاد الحديثُ إلى المُمَالَحَة : (٣)

حدثنى مُطَهَّرُ بنُ أحمدَ الكاتبُ عن ابن قَرَارة العطّار قال : اجتمع ذات يومٍ عندى على المائدةِ أبو علىّ بنُ مُقْلَةَ وأبو عبد الله اليزيدىّ ، وكان ابن مُقلةَ يُفضِّلُ الهَرِيسة ، وكان اليَزِيدىُّ يفضِّل الجوذابةَ ، وكان كلّ واحد منهما يصفُ النوعَ الذى يَقولُ به ويُؤْثِرُه ، فقال اليزيدىّ : الهَرِيسةُ طعامُ السُّوقِيِّين والسَّفِلَةِ ، وليست الجوذابة بهذه الصفَة ؛ فقال لى أبنُ مُقلة : ما أسم الجوذابة بالفارسيّة ؟ فقلتُ جَوْزاب(٢) ، فقال : ضُمّ الكاف(٣) . وفهمتُ ما أراد ، فقلتُ : نسألُ اللهَ العافية ، واللهِ لقد عافَتْها نفسى ، وسَكَتَ اليَزِيدىّ .

قال يزيد بن ربيع : الكِبابُ طعامُ الصَّعاليك ، والماء والمِلحُ طَعامُ الأعراب ، والهرائس والرُّءوسُ طعامُ السّلاطين ، والشِّواءُ طَعامُ الدُّعّار ، والخَلُّ والزَّيتُ طعامُ أمثالنا .

---

(١) ينقعهم ، أى يرويهم ، وفى الأصل « ينفعهم » بالفاء ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا أخذا من التشبيه . (٢) ضبطنا هذا اللفظ بفتح الجيم وبالزاى بعدها لما تقتضيه النكتة الآتية . وهذا اللفظ بالفارسية ينطق بالذال أو الزاى كما فى معجم استاينجاس بمعنى الطعام الذى يتخذ من اللحم والأرز والسكر والبندق .

(٣) أراد بالكاف هنا الكاف الفارسية وهى تنطق جيما مصرية ، ويشير إلى لفظ جوز بالفارسية وهو الفساء ؛ فهو ينفره من هذا الطعام بهذه النكتة .

وحدّثنى ابنُ ضبعونَ الصُّوقىُّ قال : قال لى أبو عمر الشارى[١] صاحبُ الخليفة : انهضْ بنا حتى نتغدّى ، فإنَّ عندى مَصُوصاً[٢] وهُلاماً[٣] وبقيّة مُطجَّنة ، وشيئاً من الباذنجان البُورانىّ البائت الخَدِر . قلتُ : هذه كلها تزايينُ المائدة ، فأينَ الأُدْم ؟

كان عبدُ الله بنُ علىّ بن عبدِ الله بن العبّاس يُكثرُ أكلَ الجُوذاب ولا يُؤْثِرُ عليه شيئاً ، وكان يقول : يَشُدُّ العَضُدَيْن ، ويقوّى الساعِدَين ، ويجْلُو الناظِرَيْن ، ويَزِيدُ فى سَمْع الأذنَين ، ويُحَمِّرُ الوَجْنَتَيْن ، ويزيد فى المَنِىّ ، وهو طعام شهىّ ، فأىُّ شىء بَقِىَ ؟

وبَلَغَ المنصورَ وَصْفُه هذا ، فقال : بحَقّ ما وَصفه ، ولا نَقْبلُ أكْلَه .

وقال وَكِيعُ بنُ الجرّاح : التَّمتِين[٤] على المائدة خيرٌ من زيادة لَوْنين ، وكمالُ المائدة كثرةُ الخبز ، والسَّمِيذُ الأبيضُ أحْلَى من الأصفر .

وكان يحيى بنُ أكثم يحبُّ[٥] الجوذاب ، فبلغه أنّ رجلاً ممّن [يحضر] عنده يَعيبُ الجوذاب ، فقال يحيى : إن ثَبَتَ عندِى هذا توقّفْتُ عن شَهادَتِه ، وحَكَمْتُ عليه بضَعْف الحسّ وقلّة التّمْييز ، فبلغ الرَّجُلَ ذلك ، فاحترَسَ ، فقال له يحيى يوماً : ما قَولُك فى الجُوذَاب ؟ فقال : أشْرَف مَأْكلٍ وأطْيَبُه ، سَهْل المَدْخَل ، لذيذُ المَطعَم ، جَيِّدُ الغِذا ، قليلُ الأذى . قال : أصَبْتَ ، هكذا أريدُك .

أبو صالحٍ عن ابنِ عبّاس قال : ما مِن داخِلٍ إلّا وله حَيْرَةٌ ، فابْدَءوهُ

(١) كذا فى (ب) : والذى فى (١) : « ابن أبى عمرة الشرابى » .
(٢) المصوص : طعام من لحم يطبخ وينقع فى الخل ؛ ويكون من لحم الطير خاصة .
(٣) الهلام كغراب : طعام من لحم عجل بجلده ؛ وقيل مرق السكباج البرد المصفى من الدهن .
(٤) التمتين : تقوية الطعام بالأفاويه .
(٥) فى (١) : « يؤثر » .

بالسّلام ، وما مِن مَدْعُوّ إلا وله حِشْمَة ، فابدءوه باليمين(١) .

قال حَمْدان : قلتُ لجاريةٍ أرَدْتُ شراءَها — وكانت ناعمة البَدنِ رَطْبَةً شَطْبَةً(٢) غَضَّةً بَضَّة — : ما كان غِذاؤكِ عند مولاكِ ؟ قالت : المبطِّن . قلتُ : وما المُبَطِّن ؟ قالت : الأَرُزُ الرَّيّانُ مِنَ اللَّبَن ، بالفالُوذَج الرَّيّانِ من العَسَل ، والخَبيصَةُ الرَّيّانَةُ مِنَ الدُّهن والسكّر والزّعفران . قلتُ : حقٌّ لكِ .

وقال ابن الجَصّاص الصُّوفيّ : دَخَلْتُ على أحمدَ بن رَوْحٍ الأَهْوازيّ فقال : ما تَقُول فى صَحْفَةِ أُرْزٍ مَطْبُوخ ، فيها نَهْرٌ مِنْ سَمْن ، على حافاتِها كُثْبانٌ مِنَ السُّكَّر المَنْخُول ، فدمَعَتْ عَيْنى ، فقال : مالَكَ ؟ قلتُ : أبْكى شَوْقاً إليه ، جعلنا الله و إيّاكَ من الوارِدِين عليه بالغَوّاصة والرَّدّادتَين . فقال لى : ما الغوّاصة [والردّادتان(٣)] ؟ قلتُ : الغَوّاصة الإبهام ، والرَّدّادتانِ : السَّبّابَةُ والوُسْطَى . فقال : أحسنتَ ، باركَ اللهُ عَلَيْك .

شَكا رجلٌ إلى عُمَرَ الجُوعَ فقال : أكذك وأنت تَنِثُّ نَثَّ(٤) الحَمِيت ؟ أى تَرْشَحُ كما يَرْشَحُ الزِّقّ .

وقال ابن سُكَّرة :

أَطْمَعَنى فى خَرُوفِكُمْ خَرَفِى   فجئتُ مُسْتَعْجِلاً ولم أقِف
وجئتُ أرجو أطْرافَهُ فغدَت   فى طَرَفٍ والسِّماكُ(٥) فى طَرَفِ

(١) فى (ا) : « بالتمييز » ؛ وهو تحريف .
(٢) الشطبة : الجارية الحسناء الغضة ؛ وقيل الطويلة .
(٣) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها أخذنا من الجواب .
(٤) فى الأصل : « تمت مت » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن المصادر التى بين أيدينا ، ونصه فيها ؛ وفى حديث عمر أنه جاءه رجل فقال له : هلكت . فقال له : أهلكت وأنت تنث كما ينث الحميت ؟ .
(٥) فى الأصل : « والشمال » ؛ وهو تحريف . والتصويب عن يتيمة الدهر .

وحَذَّرُونى مِنْ ذِكْرِ رُزْتِهِ يا حَرَّ صَدْرِى لها ويا لَهَفِى
عايَنْتُهُ والذى يُفَصِّلُهُ والقلبُ مِنِّى على شَفَا جُرُفِ
ما حَلَّ بى منكَ عِنْدَ مُنْصَرَفى ما كنتُ إلاّ فَرِيسةَ التَّلَفِ

ويقال : القانعُ غنىٌّ وإن جاعَ وعَرِى ، والحريص فقير وإن مَلَكَ الدنيا .

قيل لإبراهيم الخليل — عليه السلام — : بأىِّ شىء اتَّخَذَكَ اللهُ خليلاً ؟ قال : بأنى ما خُيِّرْتُ بين أمْرَيْنِ إلا اخترْتُ الّذى لله ، وما اهْتَمَمْتُ لما تَكَفَّلَ لِى به ، وما تَغَدَّيْتُ وما تَعَشَّيْتُ إلّا مع ضَيْف .

واعْتَرضَ حديثٌ فقال : أنشدنى بَيْتَى ابن غسّانَ البصْرىّ فى حَدِيثِ بَخْتِيار ، يَعْنِى عِزَّ الدَّولة ، فأنشَدْتُه :

أقامَ على الأهْوازِ سِتّين لَيْلَةً يدبِّرُ أمْرَ المُلكِ حتّى تَدَمَّرَا
يدبِّرُ أمرًا كان أوّلُهُ عَمًى وأوْسَطُه ثُكْلاً وآخِرُه خَرَا

فقال : ما أعْجَبَ الأمُورَ الّتى تأتى بها الدُّهُور ! عُدْ إلى قِرَاءتِكَ ، فعُدْتُ وقَرَأْتُ .

رُوِىَ فى الحديث : لا تأكلُوا ذِرْوَةَ الثَّرِيد ، فإنّ البَرَكَةَ فِيها .

وقالَ أعرابىّ : اللّبَنُ أحَدُ اللَّحْمَيْن ، ومَلْكُ العَجِينِ أحَدُ الرَّيْعَيْن ، والمَرَقَةُ أحَدُ اللَّحْمَيْن ، والبلاغةُ أحدُ السَّيْفَيْن(١) والتمنّى أحَدُ السُّكْرَيْن(٢)

أراد مُزَبِّدٌ أُضْحِيّةً فلم يَجِدْهَا ، فأخَذَ دِيكاً لِيُضَحِّىَ به ، فوجَّهَ إليه جيرانُه شاةً شاةً حتى اجتمع عنده سَبْعُ شِياه ، فقال دِيكى أفْضَلُ عند اللهِ مِنْ إسحاق لأنه فُدِىَ بكَبْش ، ودِيكى بسَبْعة .

(١) فى الأصل : الشيئين ؛ وهو تحريف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .
(٢) فى الأصل . « السلوين » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

الكُتَلُ : اللَّحْمُ [١] ، والعَيْمَةُ [٢] : شهوةُ اللبَن ، والقَرَمُ : شهوةُ اللَّحْم .

وقال صلّى اللهُ عليه وسلم : « من أحَبَّ أن يرقّ قلبُه فليُكْثِرْ مِنْ أكْلِ البَلَس » . قيل : هو التين .

وقال أعرابيّ :

يَمُنُّ عليَّ بالتَّزويج شيخِي ... وفى التَّزْويج لى هَمٌّ وشُغْلُ
وكنتُ مِنَ الهُموم رَخِيَّ بالٍ ... فَحَلَّ مِن الهُموم عليَّ ثِقْلُ
فقلتُ له : مَنَنْتَ بِغَيْرِ مَنٍّ ... ومالَكَ بالذى أسْدَيْتَ فَضْلُ
أعُزَّابَ العَشِيرَةِ لو عَلِمْتُمْ ... بحالِي حِينَ لِي بَيْتٌ وأَهْلُ
عَلِمْتُمْ أنكم فى حَالِ عَيْشٍ ... رَخِيٍّ مَالَه يا قَوْمُ عَـدْلُ

قال إسحاق المَوْصِلِيّ : أمْلَى بَعضُ الفقهاء بالكُوفة أنّ عمرَ بن الخطاب رضيَ اللهُ عَنه كرِهَ السَّمَرَ إلا فى الفِقْه ، يريد كثرةَ السَّمَرِ إلاّ فى الفِقْه .

قيل لميسرة الرَّأسِ [٣] : ما أكثرُ ما أكَلْتَ ؟ قال : مائةُ رغيفٍ بكَيْلَجة مِلْح ؛ فقيل هذا أكْلُكَ فى بَيْتِك ؟ قال : آكُلُ فى بيتى رغيفين ، وأحْتَشِى [٤] إلى الليل فِشْلَ الخَيل .

تَناوَلَ الفضلُ بنُ العبّاس تُفّاحَةً فأكَلَها ، فقيل : وَيْحَكَ ، تأكُلُ التَّحيّات ؟ فقال : والصَّلَواتِ والطَّيِّبات .

يقال : الطُّعْمَة : الكَسْب . ويقال : جئتُ بالطُّعْمَةِ . والطُّعْم : الطَّعام :

(١) الكتل : اللحم ، أى القطع منه ، الواحدة كتلة ، وفى الأصل «الكبل» بالباء ؛ وهو تصحيف .
(٢) وردت هذه الكلمة فى الأصل مضطربة الحروف تتعذر قراءتها ، وما أثبتناه من كتب اللغة .
(٣) فى (ب) : « التراس » .
(٤) فى كلتا النسختين : « وأتجشأ » ؛ وهو تحريف .

والطُّعْم : الذَّوْق . وهٰذه الأَرْضُ طُعْمَةٌ لكَ وطَعْمَة .

قال إسحاق : كنت يوما عند أحمد بن يوسف الكاتب ، فدخل أحمدُ بن أبي خالد الكاتبُ ونحن في الغِناء ، فقال : والله ما أَجِدُ شيئاً مما أنتم فيه . قال إسحاق : فهانَ عليَّ وخفَّ في عيْني ، فقلت له كالمستهزئ به ، جُعِلْتُ فِداك ، قَصَدْتَ إلى أرَقِّ شيء خَلَقَهُ اللهُ وأَليَنِه على الأُذُنِ والقَلْبِ ، وأَظْهَرِه للسُّرور والفَرَح ، وأنفاهُ للهَمِّ والحُزْن ، وماليس للجوارح منه مَؤُونَةٌ غليظة ، وإنما يَقْرَعُ السَّمْعَ وهو منه على مسافة ، فَتَطْرَبُ له النفس ، فذَمَمْتَه ! ؟ ولكنه كان يقال : لا يَجْتَمِع في رجل شهوةُ كل لذَّة ، وبعد ، فإنّ شهوةَ كلِّ رجلٍ على قَدْر تَرْكيبه ومِزَاجِه . قال : أَجَلْ ، أمّا أنا فالطعامُ الرقيقُ أَعْجَبُ إليّ من الغِناء . فقلت : إي واللهِ ولحمُ البقر والجواميسِ والتيوسِ الجَبَلِيّة بالباذنجان المبزَّر أيضاً تُقَدِّمُه ؟ فقال : [الغِناء[1]] مُختلَفٌ فيه ، وقد كرِهَه قوم . قلتُ فالمُخْتَلَف[2] فيه أَطْلِقْهُ لنا حتى تُجْمِعُوا على تحريمِه ، أعلمتَ — جُعلتُ فداك — أنّ الأوائل كانت تقول : مَنْ سَمِع الغِناء [على] حقيقته مات . فقال : اللهم لا تُسْمِعْناه على الحقيقة إذاً فنموت . فاستَظْرَفْتُه في هٰذه اللفظة ، وقَدّموا إليه الطعام فشُغِل عن ذمّ الغِناء .

قال سعيدُ بنُ أبي عَرُوبَةَ : نَزَل الحَجّاج في طريق مكّة ، فقال لحاجبه : انْظُرْ أعرابيًّا يَتَغَدّى مَعِي ، وأسألُهُ عن بعض الأمر ، فنظر الحاجب إلى أعرابيّ بَيْنَ شَمْلَيْن ، فقال : أجِب الأميرَ ، فأتاه ، فقال له الحجّاج : إذَنْ فَتَغَدَّ مَعِي . فقال : إنه دَعاني مَنْ هُوَ أَوْلى منكَ فأَجَبْتُه . قال : ومَن هو ؟ قال : اللهُ عزّ

(١) لم ترد هذه الكلمة في كلتا النسختين ؛ والسياق يقتضيها .

(٢) في كلتا النسختين : « فالاختلاف » ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا .

وجلّ دعاني إلى الصَّوْمِ فصُمْت، قال: أفي هذا اليومِ الحارّ؟ قال: نَعَمْ، صُمْتُه ليومٍ هو أشدُّ منه حرًّا. قال: فأفْطِرْ وصُمْ غدًا. قال: إن ضَمِنتَ لِيَ البقاء إلى غَد. قال: ليس ذلك إليّ. قال: فكيف تسألني عاجِلاً بآجل لا تقدرُ عليه؟ قال: إنّه طعام طيّب. قال: إنَّكَ لم تُطَيِّبْه ولا الخَبّاز؛ ولكنّ العافيةَ طَيَّبَتْه، ولم يُفطِر، وخَرَجَ مِنْ عِنْدِه.

قال أعرابيّ: هذا الطَّعَامُ مَطْيَبَةٌ لِلنَّفْس، مَحْسَنَةٌ لِلجِسْم.

قال أبو حاتم: حدّثنا الأصمعيُّ قال: قال أبو طفيلة الحِرْمازيّ(١): قال أعرابيٌّ: ضِفْتُ رَجُلاً فأتانا بخبزٍ مِنْ بُرٍّ كأنّه مَناقيرُ النِّغْرانِ(٢)، وأتانا بتمرٍ كأعناقِ الوِرْلان(٣)، يَوْحَلُ فيه الضِّرْس.

وقال آخَرُ: ونظر إلى رَجُلٍ يأكل بالعَين والفمِ واليدِ والرأس والرجل: لَوْ سألتَه عن اسمه لَمَا ذكره، وَلَوْ طلعَ وَلدُهُ الغائبُ عليه ما عرَفَه:

يَلْعَبُ بالخَمْسَةِ في قَصْعَةٍ لِعْبَ أخي الشِّطْرَنْجِ بالشّاهِ

قال ابن الأعرابيّ: كان المُحَسِّن الضبي(٤) شَرِهًا على الطعام، وكان دميماً، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالُك؟ قال: تسعُ بَنات. قال: فأين هُنَّ منك. فقال: أنا أحْسَنُ مِنهُنّ وهنّ آكَلُ مِنّي؛ فضَحِك. وقال: جازَ(٥) ما سألتَ لهنّ. وأمَرَ له بأربعةِ آلافِ دِرْهم [فقال]:

(١) في الأصل: «الجرماري»؛ وهو تصحيف.
(٢) النغران: جمع نغر بضم ففتح، وهو فرخ العصفور أو طائر يشبهه.
(٣) الورلان: جمع ورل بالتحريك، وهو دابة شبيهة بالضب.
(٤) في (١) المحسي مكان «المحسن»، وفي ب «الألصي» مكان الضبي؛ وهو تحريف.
(٥) جاز ما سألت، أي نفذ أمرنا به. ومنه قولهم: السرور توقيع جائز، أي نافذ ماض؛ وفي كلتا النسختين: «جاء».

إذا كنتَ مُرتادَ الرِّجالِ لنفْعِهِمْ فنادِ[1] زيادًا أو أخًا لزيادِ
يُجبكَ امرُؤٌ يُعْطِى على الحمد مالَه إذا ضَنَّ بالمعروفِ كلُّ جَوادِ

وقال سِنانُ بنُ أبى حارثة :

ثُمَّتَ أُطْعِمُ زادِى غيْرَ مُدَّخِرٍ أهْلَ المَحَلَّةِ مِن جارٍ ومِن جادى[2]
قد يَعْلَمُ القوْمُ إذ طالَ اغترابُهُمُ وأرْمَلوا الزّادَ أنّى مُنْفِدٌ زادِى

وقال السّفّاح بن بكر :

والمــالُ الشِّيزَى[3] لأضْيافِه كأنّها أعْضادُ حوْضٍ بِقاعْ
لا يَخْرُجِ الأضْيافُ مِن بَيْتِه إلاّ وهُمْ مِنـــــه رِواءٌ شِباعْ

أوْرَدَ أعرابىٌّ إبلَهُ ، فأبى أهْلُ الماء أن يُجيزوه ، وقالوا : إبلُكَ كثيرة ، فإن أوْرَدْتَ فَشَرْطٌ أن تقِفَ بعيداً عن الماء وتَسْقِى ما جاءكَ منها ، ولا تُحاجِزْ[4] بها ؛ قال : أفعَلُ ، وأنشأ يقول :

رُبَّ طَبيخٍ مِرْجَلٍ مُلهْوجٍ يَسْلُتُهُ القوْمُ ولمــا يَنْضَجِ
حُشَّ بشىءٍ مِنْ ضِرامِ العَرْفَجِ[5]

فانقضَّتِ الإبلُ كلُّها على الماء فشَرِبَتْ .

قال الشاعر :

شُرْبُ النَّبيذِ على الطعامِ قَليلُه[6] فيه الشِّــــفاءُ وصِحّةُ الأبدانِ

(١) فى (ا) : « فبادر » .   (٢) الجادى : طالب الجدوى .
(٣) الشِّيزى بكسر الشين وفتح الزاى خشب أسود تصنع منه القصاع . ويريد هنا نفس القصاع ؛ وأعضاد الحوض ما شد حوله من البناء . وفى الأصل : « السرى » مكان قوله : « الشيزى » ؛ وهو تصحيف .   (٤) المحاجزة : الممانعة .
(٥) حش النار : أوقدها ، والعرفج ضرب من النبات سهلى سريع الاتقاد وهو من شجر الصيف وهو لين أغبر إلى الخضرة له ثمرة خشناء كالحسك وزهره أصفر ولهبه شديد الحمرة
(٦) فى الأصل : « بلية » ؛ وهو تحريف .

وإذا شَرِبْتَ كثيرَه فكثيرُه مُزِجٍ عليكَ رَكائبَ الشَّيطانِ
فتَكونَ بين الضاحِكِين كبُومَةٍ عَمْياءَ بين جَمَاعَةِ الغِرْبانِ
فاحْذَر بجُهْدِكَ أنْ تُرَى كجَنِيبَةٍ بَعْدَ العِشاءِ تُقادُ بالأرْسَانِ

قال حَمْزَةُ المصنِّف فى بعض كتُبه : قال النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم لسَلمانَ الفارسىّ : أن اتَّخِذْ لنا سُورًا ، أى طَعاماً كطعامِ الوَليمة ، وهى فارسيّة .

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرافىّ : أخطأ هذا المتأوِّل ، وإنما أراد النبىُّ صلى الله عليه وسلم : أنّ سَلْمانَ أتَّخذ لنا خَنْدَقا يومَ الأحزاب ، لأنَّه حَضَّ(١) على ذلك ، وليس ذا مِن ذاك إلّا باللفظ .

وقال جُعَيْفِرانُ المُوَسْوس فى وصف عصيدة :

وماءِ عَصِيدةٍ حمراءَ تَحْكِى إذا أبصرتَها ماءَ الخَلُوق(٢)
تَزِلُّ عن اللَّهاةِ تَمرُّ سَهْلًا وتَجْرِى فى العِظامِ وفى العُروقِ

قال الحسنُ بنُ سَهْل : أشياء تذْهَبُ هَباء ، دِينٌ بلا عَقْل ، ومالٌ بلا بَذْل وعِشْقٌ بلا وَصْل . فقال حُمَيد : بقى عليه مائدةٌ بلا نَقْل(٣) ، ولَحْسَةٌ بلا فَضْل .

قيل لصوفىّ : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : الموتُ .

وقيل لآخر : ما حَدُّ الشِّبَع ؟ قال : آكُل حتى يقع علىّ السُّبات فأنامَ على وَجْهى ، وتتجافَى أطرافى عن الأرض .

وقيل لآخر : ما حدُّ الشِّبَع ؟ قال : أن أُدخِلَ إصبَعى فى حَلْقى فيَصِلَ إلى الطّعام .

---

(١) فى الأصل : « خص » ؛ وهو تصحيف .
(٢) فى الأصول « تجلى » مكان « تحكى » و « الحلوق » مكان « الخلوق » ؛ وهو تحريف . والخلوق : ضرب من الطيب قوامه الزعفران
(٣) النقل : ما يتنقل به على الطعام .

قال يعقوب : أصبحتُ خالفا : لا أشتهى الطعام . وخُلوف البَطْنِ تَغيُّرُه .

ويقال : نَفَسَتِي بَطْنِي ، وهو المَفس ، ورجل مَمْغُوس .

ويقال : غَمَزَني[1] بَطْنِي وَمَاسكَني .

والعامّة تقول : كلُّ ما في القِدْرِ تُخْرِجهُ المِغْرَفة ، ورجل مُقَرْضِبٌ[2] وقُراضِب[2] وقِرْضاب[2] إذا كان أكولًا ، وكذلك السّيف والّلصُّ ، قال الشاعر :

وليسَ يَرُدُّ النّفسَ عن شَهَوَاتِها من القَوْمِ إلّا كلُّ ماضِي العَزائِمِ

ومَرّ ابنُ عامرٍ على عامرِ بنِ عبدِ القَيْس وهو يأكُلُ بَقْلًا بمِلْحٍ ، فقال : لقد رضيتَ باليَسير . فقال : أرْضَى مِنِّي باليَسيرِ مَنْ رَضِيَ بالدُّنيا عِوَضاً عن الآخِرَةِ .

(٤) قال عبد الملك بن مروان : لا تَستاكَنَّ إلا عَرْضاً ، ولا تأكلنّ إلا عَضًّا ولا تَشرَبَنَّ إلّا مَصًّا ، ولا تركَبَنَّ إلا نَصًّا[3] ، ولا تَعْقِدَنَّ إلّا وَصًّا .

ويقال : ماء قَراح ؛ وخُبْزٌ قَفار : لا أُدمَ مَعَه ، وسَوِيقٌ جافٌّ ، ولبنٌ صَرِيح : لَمْ يُخالِطه شيء .

وقال سعيد بن سَلَمَة : شيئان لا تَشْبَعُ منهما ببَغْدادَ : السَّمكُ والرُّطَب .

قال أعرابيّ : أكلتُ « فِرْسِكَةً[5] » ومِلْءَ خَوْخَة ، فجاء غلام حَزَوَّرٌ[6] فنَظر حُزَّني[7] .

---

(١) في الأصل : « عمرنى » بالعين والراء المهملتين ، وهو تصحيف .

(٢) في الأصل : قرضب وقرضب ؛ وما أثبتناه عن كتب اللغة .

(٣) النص : الارتفاع . (٤) في الأصل : « يعمدن » مكان « يعقدن » ؛ وهو تحريف . وما أثبتناه هو اللائم لوصّ ، وهو الإحكام في العمل .

(٥) في الأصل : (الفرشلة) بالشين المعجمة واللام ؛ وهو تحريف لا معنى له ؛ والتصحيح والضبط عن المخصّص . (٦) الحزوّر : الغلام الذى اشتد وقوى وخدم .

(٧) في الأصل : « حديقى » بالدال ؛ وهو تحريف .

الفِرْسِكة : الخَوخة المقدَّدة . والخَوْخَة : القميصُ الأخضرُ بُطِّن بفَرْوٍ . والحُرَّةُ[١] : الأُذُن .

قيل لحاتم الأصمّ : بِمَ رُزِقْتَ الحِكْمةَ ؟ قال : بخَلاوَة البطْن ، وسَخَاوةِ النفْس ، ومكابَدَة اللّيْل .

وقال شَقِيق البَلْخِيّ : العِبادَةُ حِرْفَة ، وحانُوتُها الخَلْوَة ، وآلتُها الجوع .

قال لُقمان : إذا امتلأت المَعِدَةُ نامَت الفِكْرَة ، وخَرِسَت الحِكْمة ، وقَعَدت الأعضاء عن العبادة .

وقال عمر : لولا القِيَامَةُ لشارَكْناكم في لِينِ عَيْشِكُمْ .

وقال بعض العَرَب : أَقْلِلْ طَعامَكَ تَحْمَدْ مَنامَك .

قال يحيى بنُ مُعاذ : الشِّبَعُ يُكْفَى بالكُفْر .

وقال غيرُه : الجُوعُ يُكْفَى بالرَّحْمَة .

وقال أعرابيّ :

تَحَيَّزُ مِنّي خِيفَةً أن أَضِيفَها كما انحازَتِ الأَفْعَى مَخَافَةَ ضارِبِ

وذَكَرَ المهلَّب اللَّحْمَ [فقال] إذا الْتَقَى الواردُ والغابِرُ فتوقَّع الفَساد .

الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزيرُ في بعض الليالي : قد والله ضاق[٢] صَدْرِي بالغَيْظ لما يَبلُغني (١)
عن العامّة من خَوْضِها في حديثنا ، وذِكرِها أُمورَنا ، وتتبُّعِها لأسرارِنا ، وتنقيرِها عن مَكْنُونِ أحوالنا[٣] ، ومكتومِ شأننا ، وما أدري ما أَصْنَعُ بها ، وإنّي لأَهُمُّ في

(١) في الأصل : « الحدية » ؛ وهو تحريف .
(٢) في (ا) : « فاض » . (٣) في (ب) : « أخبارنا » .

الوقت بعدَ الوقت بقطع ألسنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ ، لعلّ ذلك يطرحُ الهيْبَةَ ويحسِمُ المادّةَ ، ويقطَعُ هذه العادة ، لحاهُمُ الله ، ما لهم لا يُقبلون على شؤونهم المهمّة ، ومعايشهم النافعة ، وفرائضهم الواجبة ؟ ولِمَ ينقّبون عمّا ليس لهم ، ويُرْجِفون بما لا يُجْدِي عليهم ، ولو حقّقوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة ؛ وإنى لأعجب من لَهَجِهم[1] وشَغَفِهم بهذا الخُلُق حتّى كأنّه من الفرائض المحتومة ، والوظائفِ الملزومة ؛ وقد تكرّر منّا الزّجر ، وشاعَ الوَعِيد ، وفشا الإنكارُ بين الصِّغار والكِبار ، ولقد تعايَى علىّ هذا الأمرُ وأُغلِق دُونِي بابُه ، وتَكاثَفَ علىّ حِجابه ، والله المستعان .

فقلتُ : أيّها الوزير ، عندى فى هذا[2] جوابان : أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبى سليمان ، وهو مَنْ تفوّقَ فى الفضْلِ والحِكْمَة والتجربة ومحبّةِ هذه الدولة[3] والشَّفَقةِ عليها من كل هَبَّة ودَبَّة ؛ والآخرُ مما سمعتهُ من شيخ صوفيّ ، و الجوابَيْن فائدتان عظيمتان ، ولكن الجُمْلة خَشْناء ، وفيها بعضُ الغِلظة ، والحقّ مُرّ ، ومن توخَّى الحقّ احْتَملَ مَرارته .

قال : فاذْكُر الجوابَيْن وإنْ كانا غَليظَيْن ، فليس يُنْتفَع بالدّواء إلّا بالصّبْر على بَشاعَتِه ، وصُدُود الطّبْع عن كَراهَتِه .

قلتُ : أمّا أبو سليمان ، فإنّه قال فى هذه الأيام : ليس ينبغى لمَن كان الله عزّ وجلّ جَعَلَهُ سائسَ الناسِ : عامّتهم وخاصّتهم ، وعالِمِهِمْ وجاهِلِهم ، وضَعيفِهم وقَوِيِّهِمْ ، وراجِحِهم وشائِلِهم ، أن يَضْجَرَ مما يَبْلُغُهُ عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة ، منها : أنّ عَقْلَه فوق عُقولِهِمْ ، وحِلْمَهُ أفضَلُ من حُلُومِهم ،

(١) فى (ب) : « بحثهم » . (٢) فى (ب) : « لهذا » .

(٣) فى (١) : « هذه المقالة » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

وصَبْرَه أتمُّ من صَبْرِهم ؛ ومنها أنَّهم إنما جُعِلُوا تحت قدرته ، وَنيطوا بتَدبيره ، واختُبِرُوا بتصريفهم على أمْرِه ونَهْيِه ، ليَقومَ بحقِّ الله تعالى فيهم ، وَيَصْبِرَ على جَهْلِ جاهِلِهم ، ويكونَ عمادُ حالِه معهم الرِّفْقَ بهم ، والقيامَ بمصالِحِهم ، ومنها أنّ العَلاقة التي بين السُّلطان وبين الرَّعِيَّة قوية ، لأنّها إلْهيّةٌ ، وهي أوْشَجُ من الرَّحِمِ التي تكون بيْنَ الوَالِدِ وَالوَلَد ، والَملِكُ وَالدٌ كبير ، كما أنّ الوالدَ مَلِكٌ صَغِير ، وما يجب على الوالد في سياسةِ وَلَدِه من الرِّفْق به ، والحُنُوِّ عليه ، والرِّقّةِ له ، واجتلاب المنفعة إليه ، أكثرُ ممّا يَجب على الوَلد في طاعةِ والِدِه ، وذلك أنّ الولد غِرٌّ ، وقريبُ العَهْدِ بالكَوْن ، وجاهلٌ بالحال ، وعارٍ من التَّجربة ، كذلك الرَّعِيَّة الشبيهة بالوَلَدِ ، وكذلك الَملِكُ الشبيهُ بالوالد ؛ ومما يزيد هذا المعْنَى كَشْفاً ، ويُكْسِبُه لُطْفاً ، أنّ المَلِكَ لا يكون مَلِكاً إلا بالرَّعيّة ، كما أنّ الرَّعيّةَ لا تكون رعِيّةً إلا بالمَلِك ، وهٰذَا من الأحوالِ المتضايفة ، والأسماءِ المُتَنَاصِفة ؛ وبسببِ هذه العَلاقة المُحْكَمَة والوُصْلةِ الوَشِيجَة ، ما لَهِجَت العامّة بتعرّف حال سائِسِها ، والناظِرِ في أمرِها ، والمالِكِ لزمامِها ، حتى تكون على بيانٍ من رَفاهَة عيشِها ، وطِيب حَيَاتِها ، ودُرُورِ مَوَارِدِهَا ، بالأمْنِ[1] الفاشي بينها ، والعدلِ القائضِ عليها ، والخيرِ المجلوبِ إليها ، وهٰذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة ، ومندوبٌ إليه أيضاً في أحكام الشريعة .

قال : ولو قالت الرَّعيّة لسُلْطانها : لِمَ لا نَخوضُ في حَدِيثِك ، ولا نَبْحَثُ عن غَيْبِ أمرِك ، ولِمَ لا نَسْأل عن دِينِك ونِحْلَتِكَ وعادَتِكَ وسيرتِك ؟ ولِمَ لا نَقِفُ على حقيقة حالِك في ليْلِك ونَهارِك ، ومَصالِحُنَا متعلِّقَةٌ بك ، وخَيْراتُنا متوقِّعةٌ

(١) في كلتا النسختين : « بالأمر » ؛ وهو تحريف .

من جهتك ، ومَسَرَّتُنا مَلْحُوظةٌ(١) بتَدْبيرك ، ومَساءتُنا مَصْرُوفة باهتمامك ، وتظَلُّمُنا مَرْفُوعٌ بِعِزِّك ، ورفاهِيَتُنا حاصلةٌ بحُسْنِ نَظَرك وجميلِ اعتقادك ، وشَائِع رَحْمَتِك ، وبَليغ اجْتِهادِك ، ما كان جوابُ سلطانِها وسائسِها ؟ أما كان عليه أن يَعْلَمَ أنّ الرَّعيّةَ مُصيبةٌ فى دَعْوَاها الّتِى بها استطالَت ، بلَى والله ، الحقُّ مُعْتَرَفٌ به وإنْ شَغَبَ الشاغب ، وأعْنَتَ المُعْنِت .

قال : ولو قالت الرَّعية أيضاً : ولِمَ لا تَبْحثُ عن أمْرِكَ ؟ ولِمَ لا تَسْمع كلَّ غَثٍّ وَسَمين مِنّا ! وقد مَلَكْتَ نواصِيَنا ، وسَكَنْتَ دِيارَنا ، وصادرْتَنَا على(٢) أمْوالنا ، وحُلْتَ بيننا وبين ضِيَاعِنا ، وقاسَمْتَنَا مَوارِيثَنا ، وأنْسَيْتَنا رَفَاغَةَ(٣) العَيْشِ ، وطِيبَ الحياة ، وطُمَأنينَةَ القلب ، فطُرُقنا مَخُوفَة ، ومَساكِنُنا مَنْزُولة(٤) ، وضِياعُنا مُقْطَعة ، ونِعَمُنا مَسْلُوبة ، وحَرِيمُنا مُسْتَبَاح ، ونَقْدُنا زائف ، وخَراجُنا مُضاعَف ، ومُعامَلتنا سيّئة ، وجُنْدِيُّنا مُتَغَطْرِس ، وشُرَطِيُّنا مُنْحَرِف ، ومَساجِدُنا خَرِبَة ، ورُفوفُها مُنْتَهَبَة ، ومارِسْتاناتُنا خاوِيَة ، وأعْداؤنا مُسْتَكْلِبة ، وعُيونُنا سَخِينَة ، وصُدُورُنا مَغِيظَة ، [وبَلِيَّتُنا مُتَّصِلَة] ، وفَرَحُنا مَعْدُوم ؛ ما كان الجوابُ أيضاً عمّا قالت وعمّا لم تَقُلْ ، هَيْبَةً لك ، وخَوْفاً على أنفُسِها مِن سَطْوَتِك وصَوْلَتِك ؟

وحَكَى لنا فى عَرْض هٰذا الكلام أنّهُ رُفِعَ إلى الخليفةِ المُعْتَضِد أنّ طائفةً من النّاس يَجْتَمِعُون [بباب الطاقِ ويجلسون] فى دُكّانِ شيخٍ تبّان ، ويَخُوضُون فى الفُضُول والأرَاجِيف وفنونٍ من الأحاديث ، وفيهم قَوْمٌ سَراة

(١) فى (ب) : « ملحقة » ؛ وهو تحريف . (٢) فى (ا) : « عن أموالنا » .
(٣) فى (ب) : « رفاعة » بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف ؛ ورفاغة العيش : خفضه ولينه .
(٤) فى (ب) : « ومنازلنا مسكونة » .

وتُنّاء[1] وأهْلُ بُيوتاتٍ سِوَى من يَسْتَرِق السَّمْعَ مِنْهُم مِن خاصّة الناس ، وقد تَفَاقَمَ فَسَادُهُمْ وإفْسَادُهُمْ ، فلمّا عَرَف الخليفةُ ذٰلك ضاق ذرعاً ، وحَرِج صَدْرًا ، وأمتلأ غَيْظًا ، ودَعَا بعُبَيْد اللهِ بن سُلَيْمَانَ ، ورَمَى بالرَّقِيمَةِ[2] إليه ، وقال : أنظُرْ فيها وتَفَهَّمْها . ففعل ، وشاهَدَ مِنْ تَرَبُّدِ[3] وَجْهِ المُعْتَضِدِ ما أزْعَجَ ساكِنَ صَدْرِه ، وشَرَّدَ آلِفَ صَبْرِه ، وقال : قد فَهِمْتُ يا أميرَ المُؤمِنِينَ . قال : فما الدَّواء ؟ قال : تَتَقَدَّمُ بأَخْذِهِمْ وصَلْبِ بَعْضِهِمْ وإحْرَاقِ بَعْضِهِمْ وتَغْرِيق بَعْضِهِمْ ، فإنّ العُقوبة إذا اختَلَفَتْ ، كان الهَوْلُ أشَدَّ ، والهَيْبَةُ أفْشا ، والزَّجْرُ أنْجَع ، والعامّةُ أخْوَف . فقال المُعتضِدُ — وكان أعقل من الوزير — : والله لقد بَرَّدْتَ لهيبَ غَضَبِي[4] بفَوْرَتِك هٰذه ، وَنَقَلْتَني إلى اللّين بَعْدَ الغِلْظَة ، وَحَطَطْتَ عَلَيَّ الرِّفْقَ ، مِنْ حيثُ أشَرْتَ بالخُرْق ، وما عَلِمْتُ أنّك تَسْتَجِيزُ هٰذا في دِينِكَ وَهَدْيِكَ وَمُرُوءَتِكَ ، ولو أمَرْتُكَ ببعض ما رأيتَ بعَقْلِكَ وَحَزْمِكَ لَكَانَ من حُسْنِ المُؤَازَرَةِ وَمَبْذُولِ النَّصيحَةِ والنَّظَرِ للرَّعِيَّةِ الضَّعيفَة الجاهِلَةِ أن تَسْأَلَني[5] الكَفَّ عن الجَهْل ، وَتَبْعَثَنِي على الحِلْم ، وَتُحَبِّبَ إليَّ الصَّفْحَ وتُرَغِّبَنِي في فَضْلِ الإغضاء على هٰذه الأشياء . وقد ساءني جَهْلُكَ بحُدُودِ العقاب وبما تُقَابَلُ به هذه الجرائر ، وبما يكون كُفْأً للذُّنوب ، ولقد عَصَيْتَ اللهَ بهٰذا الرَّأْي ودلَلْتَ على قَسْوَةِ القَلْب وقِلّةِ الرَّحمة ويُبْسِ الطِّينة ورِقّة الدِّيانة ، أما تَعْلَمُ أن الرَّعِيّةَ وَدِيعَةُ الله عند سُلْطانِها ؟ وأنّ اللهَ يُسائِلُه عنها كيفَ سُسْتَها ؟ ولعله

(١) التناء : الدهاقين والرؤساء .

(٢) الرقيمة : الرقعة المرفوعة .

(٣) فى كلتا النسختين : « من يريد » ؛ وهو تصحيف .

(٤) فى (ب) : « لهيب غيظى بقسوتك » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٥) فى (١) : «على» ، ولم يظهر منها فى (ب) إلا نون وياء ، وسائرها مطموس .

لا يَسْأَلها عنه ، وإن سَأَلها فليُؤَكِّد الحُجَّةَ عليه منها ؛ ألا تَدْرى أنَّ أحدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ لا يَقُول ما يَقُول إلاَّ لظُلْمٍ لَحِقَه أو لَحِقَ جارَه(١) ، وداهيةٍ نالَتْه أو نالتْ صاحِبًا له ؟ وكيف نقول لهم : كونوا صالحين أتقياء مُقْبِلين على مَعايشكم ، غيرَ خائضِين فى حديثنا ، ولا سائِلِين عن أمْرِنا ، والعرب تقول فى كلامها : غَلَبَنا السلطانُ فَلَبِسَ فَرْوَتَنا ، وأَكَلَ خُضْرَتَنا ، وحَنَقُ المَمْلُوكِ على المالِكِ مَعْروف ، وإنما يُحْتَمَلُ السَّيِّد على صُرُوف تكاليفه ، ومَكارِهِ تَصارِيفه ، إذا كان العيش فى كَنَفِه رافِقًا ، والأَمَلُ فيه قَوِيًّا ، والصَّدْرُ عليه بارداً ، والقَلْبُ معه سَا كنا ؛ أتظنُّ أن العَمَل بالجَهْلِ يَنفَع ، والعُذْرَ به يَسَع ، لا واللهِ ما الرأىُ ما رَأَيت ، ولا الصوابُ ما ذَكَرْت ، وَجِّهْ صاحِبَكَ وليَكُنْ ذاخِبْرَةٍ ورِفق ، ومَعْروفًا بخَيْرٍ وصِدْق ، حتى يَعْرِفَ حالَ هٰذه الطائفة ، ويَقِفَ على شأنِ كلِّ واحدٍ منها فى مَعاشِه ، وقَدْرِ ماهو مُتَقَلِّبٌ فيه ومُنْقَلِبٌ إليه ، فمَنْ كان مِنْهُمْ يَصْلُحُ لِلعَمَلِ فعَلِّقْه به ، ومن كان سَيِّئَ الحالِ فصِلْهُ من بَيْت المال بما يُعِيدُ نَضْرَةَ حاله ، ويُفِيدُه طُمَأْنِينَةَ باله ؛ ومَن لم يَكُنْ مِنْ هـذا الرَّهطِ ، وهو غَنِيٌّ مكْفِيٌّ ، وإنما يُخرجه إلى دكّان هذا التَّبّان البَطَرُ والزهو ، فادْعُ به ، وانصَحْه ، ولاطِفْه ، وقل له : إنَّ لَفْظَكَ مَسْمُوع ، وكلامَكَ مَرْفُوع ؛ ومَتَى وَقَفَ أميرُ المؤمِنِين على كُنْهِ ذٰلِكَ منكَ لم تَجِدْكَ إلاَّ فى عَرْصَةِ المقابر ، فاستأنِفْ لنفسِك سِيرَةً تَسْلَمُ بها مِنْ(٢) سُلْطَانِكَ ، وتُحْمَدُ عليها عند إخوانِك ، وإيَّاكَ أن تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لِغَيْرِكَ بَعْدَ ما كان غَيْرُكَ عِظَةً لك ؛ ولولا أنَّ الأخْذَ بالجَرِيرَة الأولى مخالِفٌ لِلسِّيرة المُثْلَى ، لـكان هٰذا الّذى تَسْمَعُه ما تراه ، وما تراه نَوَدُّ أنك لو سَمِعْتَه قَبْلَ أنْ

(١) فى كلتا النسختين : « دارة » بالدال ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) : «على» مكان « من» ؛ وهو خطأ من الناسخ .

تراه. فإنَّكَ يا عُبَيْدَ اللهِ إذا تَمَلْتَ ذلك فقد بالَغتَ في المُقُوبة، ومَلَكْتَ طَرَفَي المَصْلَحة، وقُمتَ على سَواء السِّياسة، ونَجَوْتَ مِن الحَوْبِ والمَأْثَمِ في العاقِبة.

قال: وفارَقَ الوزيرُ حَضْرَةَ [الخليفة]، وعمِلَ بما أُمِرَ به على الوَجْهِ اللَّطيف، فعادت الحالُ ترِفّ بالسَّلامة العامَّة، والعافيةِ التامّة؛ فتقدَّمَ إلى الشَّيخ التَّبّانُ برفعِ حال من يَقعُدُ عندَه حَتّى يواسَى إن كان مُحْتاجًا، ويُصرَّفَ إن كان متعطِّلاً، ويُنْصَحَ إن كان متعقِّلا.

فقال الوزير: ما سَمِعتُ مِثلَ هٰذا قطّ، وما ظَنَنْتُ أن الخَطْبَ في مِثلِ هٰذا يَبْلُغُ هذا القَدْر؛ فهاتِ الجوابَ الآخَرَ الّذى حَفِظْتَه عن الصُّوفيّ. فقلتُ: إنْ كان هٰذا كافِيًا فإنّ ذلك فَضْل.

فقال: هكذا هو، وإنّ فيما مَرَّ لَكِفاية، وما يَزيد على الكِفاية، ولكنّ الزِّيادَةَ من العِلم داعِيَةٌ إلى الزيادةِ من العَمَل، والزِّيادَةَ من العَمَلِ جالِبةُ الانتفاعِ بالعِلم، والانتفاعَ بالعِلم دَليلٌ على سَعادَةِ الإنسان، وسعادةَ الإنسان مَقسومةٌ على اقتباس العِلْم والتماسِ العمل، حتّى يكون بأحدِهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجراً، وبالآخَرِ رابحًا.

فوَصَلْتُ الحديثَ وَقلتُ: حَدَّثَنى شيخ من الصُّوفيّة في هٰذه الأيّام قال: كنتُ بِنَيْسابُور سنةَ سبعين وثلثمائة، وقد اشْتَعَلَتْ خُراسانُ بالفتنة، وتَبَلْبَلَتْ دَوْلَةُ آل سامان بالجور وطول المُدّة، فلَجأ محمّدُ بنُ إبراهيمَ صاحِبُ الجيش إلى قايِين[1]، وهي حِصْنُه ومَعْقِلُه، ووَرَدَ أبو العبّاس صاحبُ جَيش [آل] سامانَ نَيْسابور بِعِدّةٍ عَظِيمة، وعُدّةٍ عَميمة، وزينَةٍ فاخِرة، وهيئةٍ باهِرَة، وغَلاَ السِّعْرُ،

(١) قاين: بلد قريب من طبس، بين نيسابور وأصبهان؛ وهي فرضة خراسان.

وأُخِيفَت السُّبُل ، وكَثُرَ الإرْجاف ، وساءتِ الظُّنون ، وضَجَّت العامّة ، والتَبَسَ الرأى ، وأُنْقطِعَ الأمَل ، ونَبَحَ كَلْبٌ كَلِبٌ من كلِّ زاوية ، وزَأَرَ كلُّ أَسَدٍ من كلِّ أَجَمة ، وضَبَحَ كلُّ ثَعْلَبٍ مِنْ كلِّ تَلْعَة .

قال : وكُنَّا جماعةً غُرَباء نأوى إلى دُوَيْرَةِ[1] الصُّوفيّةِ لا نَبْرَحُها ، فتارةً نَقرأ ، وتارةً نُصَلِّى ، وتارةً ننامُ ، وتارةً نَهْذِى ، والجُوعُ يَعْمَلُ عَمَلَه ، ونخوضُ فى حديثِ آل سامان ، والواردِ مِنْ جِهَتِهم إلى هذا المكان ، ولا قُدْرَةَ لنا على السِّيَاحَةِ لانْسِدَادِ الطُّرُق ، وتَخَطُّفِ الناسِ للناس ، وشُمُول الخَوْف ، وغَلَبةِ الرُّعْب ، وكان البلدُ يَتَّقِدُ نارًا بالسُّؤال والتَّعَرُّفِ والإرْجاف بالصِّدْق والكَذِب ، وما يُقَالُ بالهوى والعَصَبيّة ؛ فضاقَتْ صُدُورُنا ، وخَبُثَتْ سَرَائرُنا[2] واسْتَوْلَى عَلَيْنا الوَسْوَاس ، وقلنا ليلةً : ما تَرَوْنَ يا أصحابَنا[3] [ما] دُفِعْنا إليه مِنْ هذه الأحوالِ الكريهة ، كأنَّا واللهِ أصحابُ نَعَمٍ وأرْبابُ ضِيَاعٍ نخافُ عليها الغارَةَ والنَّهْب ، وما علينا من ولايةِ زَيْدٍ ، وعَزْلِ عَمْرو ، وهلاكِ بَكْرٍ ، ونَجاة بِشْر ، نحنُ قوم قد رَضِينا فى هذه الدنيا العَسِيرة ، وهذه الحياة القصيرة ، بِكِسْرَةٍ يابِسَة ، وخِرْقَةٍ باليَة ، وزاويةٍ مِنَ المَسْجِد مع العافيَةِ مِن بَلايَا طُلَّاب الدُّنيا . فما هذا [الذى] يَعْتَرِينا من هذه الأحاديث التى ليس لنا فيها ناقةٌ ولا جَمَل ، ولا حَظٌّ ولا أَمَل ، قُومُوا بنا غدًا حتى نزور أبا زكريّاء الزاهد ، ونَظَلَّ نهارَنا عندَه لاهِين عمَّا نحنُ فيه ، ساكنين معه ، مُقْتَدين به ؛ فاتفق رأيُنا على ذلك ، فغَدَوْنا[4] وصِرْنا إلى أبى زكرياء الزَّاهد ، فلما دَخلنا رَحَّبَ

(١) فى نسخة « وترة » مكان « دويرة » . والوترة : ما وتر بالأعمدة من البيوت .
(٢) فى (ب) : « أنفسنا » . (٣) فى كلتا النسختين : « بأصحابنا دفعنا » ؛ وفى (ب) بين قوله « بأصحابنا » وقوله « دفعنا » فراغ يسع كلة ؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا إذ هو مقتضى السياق . (٤) فى (ب) : « فسرنا » مكان قوله « فغدونا » .

بنا ، وفَرِحَ بزِيارَتنا ، وقال : ما أشْوَقنى إليكم[١] ، وما ألْهَفَنى[٢] عليكم ! الحمد لله الذى جَمَعَنِى وإيا كم فى مَقَامٍ واحد ، حَدِّثونى ما الذى سمِعْتم ، وماذا بلَغَكم من حديث الناسِ ، وأمْر هٰؤلاء السَّلاطين ؟ فرِّجُوا عنّى ؛ وقولوا لى ما عِنْدَ كم ، فلا تكتمونى شيْئاً فمالِى والله مَرْعًى فى هذه الأيّام إلّا ما أتصل بحديثهم ، وأقْتَرَنَ بخَبَرِهم ، فلما ورد عَلَيْنا من هـذا الزّاهِد العابِد ما وَرَدَ ، دُهِشْنا وأسْتوْحَشْنا ، وقلنا فى أنفسنا انظروا من أى شىء هرَبْنا[٣] ، وبأىِّ شىء عَلِقْنا ، وبأىّ دَاهِيَةٍ دُهِينا . قال : فَخَفَّفْنا الحديثَ وأنْسَلَلْنا ، فلمّا خرَجْنا قلنا : أرأيتم ما بُلينا به ، وما وقعنا عليه ؟ (إنّ هٰذا لَهُوَ البَلَاء المُبين) . مِيلوا بنا إلى أبى عَمْرو الزّاهد فله فَضْلٌ وعِبادة وعِلْمٌ وتَفَرُّدٌ فى صَوْمَعَته حتى نُقيم عندَهُ إلى آخر النّهار ، فقد نبا بنا المكانُ الأوّل ، وبَطَلَ قَصْدُنا فيما عزَمْنا عليه من العَمَل ، فمشينا إلى أبى عَمْرو الزّاهِد وأسْتَأذَنّا ، فأذِنَ لنا ، ووَصَلْنا إليه فَسُرَّ بحُضُورنا ، وهَشَ لرُؤْيتِنا ، وأبْتهجَ بقَصْدِنا ، وأعْظَمَ زِيارَتَنا ، ثم قال : يا أصحابَنا ماعِنْدَ كم مِنْ حَدِيث الناس ؟ فقدْ والله طالَ عَطَشِى إلى شىء أسْمَعُه ، ولم يَدْخُلْ علىَّ اليَوْمَ أحَدٌ فأسْتَخْبِرَه ، وإنّ أذُنِي لدَى الباب لِأسْمَعَ قرْعَة أو أعرِفَ حادثة ، فهاتوا ما مَعَكم وما عندَ كم ، وقُصُّوا علىّ القصّة بفَصِّها ونَصِّها ، ودَعُوا التَّوْرِيَة والكِنَاية ، وأذْكُروا الغَثَّ والسَّمين ، فإنّ الحَديثَ هكذا يَطِيب ، ولولا العَظْمُ ما طابَ اللَّحْم ، ولَوْلا النَّوَى ما حَلا التَّمْر ، ولَوْلَا القِشْرُ لمْ يوجَدِ اللُّب ، فعَجِبْنا مِنْ هٰذا الزّاهد الثانى أكْثرَ من عَجَبِنَا من الزّاهِد الأوّل ، وخاطَفْناه الحَديث ،

(١) فى (ب) : « إلى زيارتكم » . (٢) فى (ب) : « والهفى » .

(٣) ورد فى (ا) من هذه الكلمة باء ونون بعدها ألف . وفى (ب) لم يظهر منها إلا هاء ونون وألف ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

ووَدَّعْناه ، وخرَجْنَا ، وأَقْبَلَ بَعْضُنَا عَلَى بعضٍ يَقول : أرَأيتم أظْرَفَ من أمْرِنا وأغْرَبَ من شَأنِنا ؟ انظُروا من أيِّ شيء كانَ تَعْرِيجُنا (إنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَاب) وتلدَّدنا وتبلَّدْنا وقلنا يا أصحابنا : أنطلقوا إلى أبي الحَسَن الضرير ، وإن كان مَضْرِبُه(١) بعيدًا فإنَّا لا نجد سكونَنا إلّا معه ، ولا نَظفَر بضالَّتنا إلّا عنْدَه ، لزُهْدِه وعِبَادَتِه وتوحُّدِه وشُغْلِه بنفْسِه مَع زَمانته في بَصَرِه ، ووَرَعِه ، وقِلّة فِكْرِه في الدنيا وأهْلِهَا ؛ وطوَينا الأرضَ إليه ، ودخَلْنَا عليه ، وجَلَسْنا حوَالَيْه في مَسْجدِه ، ولمّا سمع بنا أقبل على كلّ واحد منّا يَلْمَسُه بيَدِه ويُرَحِّب به ، ويدْعُو له ويقرِّب ، فلمّا انتهى أقبلَ علينا [وقال] : أمن السماء نزلتم عليَّ ؟ والله لَكَأنِّي قد وجدت بكُمْ مَأمُولي ، وأحْرَزْتُ غاية سُولي ، قولوا لي غيرَ مُحْتَشمين : ما عِنْدكم من أحاديثِ النّاس ؟ وما عَزمَ [عليه] هذا الوارد ؟ وما يقال في أمرِ ذلك الهاربِ إلى قايين ، وما الشائع من الأخْبَار ؟ وما الذي يَتهامَسُ به ناس دونَ ناس ؟ وما يَقعُ في هوَاجِسِكُم ويَسْتَبِقُ إلى نفوسِكُم(٢) ؟ فإنّكم بُرُدُ الآفاق ، وجوّالة الأرض ، ولَقَّاطَةُ الكلام ، ويَتساقطُ إليكم من الأقطارِ ما يتعذَّرُ على عظماء الملوك وكُبَراء الناس : فوَرَد علينا من هذا الإنسان ما أنسَى الأوّل والثاني ، ومما زادَ في عَجَبِنا أنّا كنا نَعدُّه في طبقةٍ فوْقَ طَبقات جميع الناس فخفّفْنَا الحديث مَعَه ، ووَدَّعْناه ، وخَنَسْنَا من عِنده ، وطفِقنا نتَلاوَمُ عَلَى زيارتِنا لهؤلاء القَوْم لما رَأينا منهم ، وظهر لنا من حالهم ، وازْدَرَيْناهم ، وانْقَلَبْنا متوجّهين إلى دُوَيْرَتِنا التي غَدَوْنا منها مُسْتَطْرِفين كالّين ، فلقِينا في الطريق شيخًا من الحُكماء يقال له أبو الحسن العامريّ ، وله كتابٌ في التصوّف قد شَحَنَه بعِلْمِنا

(١) يريد بمضربه بيته ، مستعار من مضرب الخيام .
(٢) في (ب) : « إلى قلوبكم » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

وإشارتنا ، وكان من الجوّالين الّذين نقّبُوا فى البلاد وأطّلعوا على أسرار اللهِ فى العِبَاد ؛ فقال لنا : من أينَ درجتم ؟ ومَن قصدتُم . فأجلسناه فى مَسْجِد ، وعصَبْنا حَوْلَه ، وقصصْنا عليه قِصّتنا من أوّلِهَا إلى آخرِها ، ولم نَحْذِف منها حرْفاً . فقال لنا : فى طىِّ هٰذه الحال الطارئة غَيْبٌ لا تقِفُون عليه ، وسِرٌّ لا تَهتدُون إليه ، وإنما غَرَّكُم ظَنُّكم بالزّهّادِ ، وقلتم لا يَنْبَغِى أن يكون الخَبَرُ [عنهم كالخبر] عن العامّةِ ، لأنهم الخاصَّة ، ومن الخاصَّة خاصةُ الخاصة ، لأنّهُم باللهِ يَلُوذُون ، وإيّاه يَعْبُدُون ، وعليه يَتوكّلون ، وإليه يَرْجِعُون ، ومن أجْلِهِ يَتهالَكون ، وبه يَتَماسَكُون .

قلنا له : فإنْ رأيتَ يا مُعَلِّمَ الخيرِ أنْ تَكْشِفَ عنّا هٰذا الغِطاء ، وتَرْفَعَ هٰذا السِّتْر ، وتعرِّفَنا منه ما وَهَبَ اللهُ لكَ مِنْ هٰذا الغَيب ، لنكون شاكِرين ، نكونَ من المَشْكُورين . فقال : نَعَم ، أمّا العامّةُ فإنّها تَلْهَجُ بحديثِ كُبَرائها ساستِها لما تَرْجُو من رَخَاء العَيْشِ وطيبِ الحياةِ وسَعَةِ المال ودُرُورِ المَنافع وأتصالِ جَلَب ونفَاق السُّوق وتَضاعُف الرِّبْح ؛ فأما هٰذه الطائفةُ العارِفَةُ باللهِ ، العامِلةُ للهِ ، فإنها مُولَعةٌ أيضاً بحديث الأُمراء ، والجَبَابِرةِ العظماء ، لِتَقِفَ على تصاريفِ قُدْرَةِ الله فيهم ، وجَرَيانِ أحكامِه عَلَيْهم ، ونفوذِ مَشِيئَته فى مَحَابِّهِم ومَكارِهِهِم فى حالِ النِّقْمَةِ[(١)] عليهم ، والأنتقام منهم ، ألا تَرَوْنَه قال جَلَّ ثناؤه : (حَتّى إذا فَرِحُوا بما أُوتوا أخذْناهُمْ بَغْتَةً فإذا هُمْ مُبْلِسُون) ، وبهٰذا الأعتبارِ يَسْتَنْبِطُون خَوافِىَ حِكْمَتِه ، ويَطّلعُون على تَتابُعِ نِعْمَتِه وغَرائِبِ نِقمته ، وهاهنا يَعلَمُون أنّ كلَّ مُلْكٍ سِوَى مُلْكِ اللهِ زائِل ، وكلَّ نعيمٍ غيرَ نعيمِ الجَنّةِ حائل ،

---

(١) فى كلتا النسختين : « النقمة » ؛ وهو تحريف .

ويصيرُ هذا كلُّه سبباً قوياً لهم فى التضرّع إلى الله ، واللياذ بالله ، والخشوع لله ، والتوكّل على الله ، وينبعثون به من حِران الإباء ، إلى انقياد الإجابة ، ويتنبّهون من رقدة الغفلة ، ويكتحلون باليقظة من سِنة السّهو والبطالة ، ويجدّون فى أخذ العتاد ، واكتساب الزاد إلى المعاد ، ويعملون فى الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره ، المحفوف بالرّزايا ، الّذى لم يُفلِح فيه أحدٌ إلّا بعد أنْ هدّمه وثلّمه ، وهرَبَ منه ، ورَحَلَ عنه إلى محلّ لا داء فيه ولا غائلة ؛ ساكنُه خالد ، ومقيمُه مُطْمَئِنّ ، والفائزُ به منعّم ، والواصِلُ إليه مكرّم ، وبينَ الخاصّة والعامّة فى هذه الحال وفى غيرها فَرْق يَضِحُ لمن رَفَعَ اللهُ طَرْفه إليه ، وفتَحَ بابَ السّرّ فيه عليه ، وقد يَتَشابه الرّجُلان فى فعل ، وأحدُهما مَذْمُوم ، والآخرُ محمود ، وقد رأينا مُصَلّياً إلى القِبْلَة وقلبُه مُعَلّق بإخلاص العِبادة ، وآخرَ إلى جانبه أيضاً يصلّى إلى القبلة وقلبُه فى طَرٍّ[1] ما فى كُمّ الآخر ، فلا تَنْظُروا من كلّ شيء إلى ظاهِرِه إلّا بعدَ أنْ تَصِلُوا بِنَظَرِكم إلى باطنه ، فإنّ الباطن إذا واطأ الظاهر كان توحُّداً ، وإذا خالَفَه إلى الحقّ كانَ وَحْدَةً ، وإذا خالَفَه إلى الباطل كان ضلالةً ، وهذه المقامات مُرَتّبةٌ لأصْحابها ، ومَوْقوفَةٌ على أربابها ؛ ليس لغَيْرِ أهْلِها فيها نَفَسٌ ، ولا لِغيرِ مُسْتَحِقّها منها قَبَس .

قال الشيخ الصوفىّ : فوالله ما زالَ ذلكَ الحكيم يَحْشو آذاننا بهذه وما أشْبَهها ، ويَملأ صدورنا بما عنده حتى سُرِرْنا[2] وانصرفنا إلى مُتَعشّانا وقد استفدنا على يَأسٍ منّا فائدةً عظيمة لو تَمنّيناها بالغُرْم الثّقيل والسّعى الطويل لكان الرّبْحُ مَعنا ، والزيادةُ فى أيْدِينا .

---

(١) الطر : الاستلال .

(٢) فى كلتا النسختين : « سددنا » .

فلما سمع الوزيرُ هذا تَعجبَ وقال : لا أدرى : أكلامُ أبى سُليمانَ فى ذلك الاحتجاجِ أبلغ ، أم الحِكايةُ عن المُقتَضِد أشفَى ، أم رواية الشيخ الصوفىّ أطرَف ، وما علِمتُ أنّ فى البَحْث عن سِرّ الإرْجاف هٰذه اللّطيفةَ الخفيّة ، وهٰذه الحجّةَ الجليّة ، وكُنتُ أرى أنّ الصُّوفيّة لا يَرْجِعُون إلى رُكْنٍ مِنَ العِلمِ ، ونَصِيبٍ من الحِكمة ، وأنهم إنما يَهْذُون بما لا يَعلمون ، وأنّ بناء أمرِهم على اللَّعِبِ واللَّهوِ والمجون .

فقلتُ : لوجُمِعَ كلامُ أئمتهم وأعلامِهم لزادَ على عَشرةِ آلاف وَرقَة عَمّنْ ثقفَ[1] عليه فى هٰذه البقاعِ المتقارِبةِ ، سِوَى ما عند قومٍ آخَرين لا نَسْمَع بهم ، ولا يَبْلُغنا خَبَرُهم . قال : فاذكر لى جماعةً منهم . قلتُ : الجُنَيْد بن محمد الصوفىُّ البغداديُّ العالِم ، والحارثُ بنُ أسَد المُحاسِبىّ ، ورُوَيْم ، وأبو سَعِيد الخَرّاز ، وعمرُو بنُ عُثمانَ المَكّى ، وأبو يَزِيدَ البِسْطامىّ ، والفَتحُ المَوْصِلِىّ ، وهو الّذى سُمِعَ وهو يقول : إلى مَتَى تُرَدِّدُنى فى سِكَك المَوصل ، أما آنَ للحَبيبِ أنْ يَلْقَى حَبيبَه ؟ فماتَ بعد جُمعة .

فقال : هٰذا عَجَب . ولقد مَرّ فى هٰذا الفَنّ ما كان فَوْق حُسْبانى وأكثرُ مما كان[2] فى ظَنّى ، وكم مِنْ شىء حَقيرٍ يُطّلَعُ منه على أمرٍ كبير .

وقال : أنْشِدْنى شَيْئاً ؛ فأنشدْتُه قول الشاعر : (٢)

رَجَمْتُ عَلَى السّفِيهِ بِفَضْلِ حِلْمِى … وكان تَحَلُّمِى عَنْهُ لِجَامَا
وظَنّ بِىَ السّفَاهَ فَلم يَجِدْنى … أسافِهُهُ وقلت له : سَلامَا

(١) عمن ثقف ، أى مروية عمن ثقف ، وفى كلتا النسختين على ما ثقف ، وقوله على هنا لا مقتضى له .

(٢) فى (ب) : « وأكثر مما دار فى خلدى » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

فقامَ يجرُّ رِجلَيه ذَليلاً وقد كَسَبَ المَذَلّةَ والمَلاما
وفَضْلُ الحِلمِ أبْلَغُ فى سَفِيهٍ وأحْرَى أنْ ينَال بِهِ انتقاما

(٣) فقال : ما أعجبَ أمرَ العَرَب ، تأمرُ بالحِلمِ مرّةً ، والصَّبْر والكظمِ مرّةً ، وتَحُثُّ بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر ، وتَذُمُّ السَّفَهَ وقَمْعَ العَدُوّ ! وهكذا شأنُها فى جَميع الأخلاق ؛ أعنى أنّها رُبّما حَضّتْ على القَناعَةِ والصَّبْر والرِّضا بالمَيْسُور ، ورُبّما خالَفَتْ هذا ، فأخَذت تذكُرُ أنّ ذلك فَسالَةٌ ونُقصانُ هِمَّةٍ ولينُ عَريكةٍ ومَهانَةُ نفس ؛ وكذلك أيضاً تحثُّ على البَسالة[1] والإقْدامِ والانتصارِ والحَمِيّةِ والجَسارَة ؛ وربّما عدَلَتْ[2] إلى أضْدادِ هذه الأخْلاق والسّجايا والضَّرائب والأحوال ؛ فى أوْقاتٍ يَحْسُنُ فيها بَعضُها ، ويَقْبُحُ بَعضُها ، ويُعذَرُ صاحبُها فى بَعضِها ، ويُلامُ فى بَعضها ؛ وذلك لأنّ الطبائعَ مُختَلِفَة ، والغرائزَ[3] متعادية ، فهذا يَمْدَحُ البُخلَ فى عُرْضِ الحَزْم ، وهذا يَحْمَدُ[4] الاقتصادَ فى جُملة الاحتياط ، وهذا يَذُمُّ الشَّجاعة فى عُرْض طَلَبِ السَّلامَة ؛ وليسَ فى جميعِ الأخلاق شىءٌ يَحْسُن فى كلّ زَمانٍ وفى كلّ مَكانٍ ، ومَعَ كلّ إنسان ، بل لكلّ ذلك وَقتٌ وحِينٌ وأوان .

قال : ولَعَمْرِى إنّ القِيامَ بحقائِق هذه الأشياء وحُدودِها صَعْبٌ ، لأنّها لا توجد إلاّ مُتَلابِسةً ومُتَداخِلَة ، وتَخليصُ كلّ واحدٍ منها بحدّه وحقيقَته ووَزْنِهِ مِمّا يَفُوت ذَرْعَ الإنسان الضعيفِ المُنّة ، المُنتشِر الطِّينَة .

قال : ومنه أنّ الحكيم قال للإسكندر : « أيها الملكُ أرِدْ حَياتَكَ لِرِجالِك ،

(١) فى (ا) : « الفشالة » ؛ وفى (ب) : الفسالة ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .
(٢) فى (ب) : « عمدت » .
(٣) فى (ا) : « والقرائن » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « يمدح » ؛ وهو تكرار مع ما سبق .

ولا تُرِدْ رِجالَكَ لحَيَاتك» ؛ ولو قَلَبَ عليه قالِبٌ فقال : لا ، «ولكِنْ أُرِدْ رِجالَكَ لِحَيَاتِك ، ولا تُرِدْ حَيَاتَكَ لِرِجالِك» ، لَكان الفَضْلُ واقِعًا ، والدَّعْوَى قائمة .

وكان يُحْكَى عن أعرابيّ حديثٌ مُضْحِكٌ : قيل لأعرابيّ : أتريدُ أنْ تُصْلَب فى مَصْلَحة الأمّة ؟ فقال : لا ، ولكنى أُحِبُّ[1] أن تُصْلَبُ الأمّةُ فى مَصْلَحَتِى .

قال : وليس يَجُوز أن يكون الناسُ مُخْتَلِفِين فى ظاهِرِهِم بالصُّوَرِ والحُلَى حتى يُعْرَف بها زَيْدٌ من عَمْرو ، وبَكْرٌ مِنْ خالد ، ولاَ يَخْتَلِفُون فى باطِنِهم حتى يكونَ هٰذا مَطْبُوعًا على الشحّ وإن مَدَحَ الجُود ، وهٰذا مَجْبُولاً على الجُبْن وإنْ تَشَيَّعَ للشجاعة ؛ وليس يَجُوزُ فى الحِكمَةِ أنْ يَكْثُرُوا ولا يَخْتَلِفُوا[2] ، وليس يَجُوزُ أيضاً أن يُضَمّ الجِنْسُ والنَّوعُ ولا يَأْتَلِفُوا ؛ وكلُّ ما أساغَتْه الحِكْمَةُ أبْرَزَتْه القُدْرَة ، وكلُّ ما جادَتْ به القُدْرَةُ شَهِدَت له الحِكمة ؛ فسبحانَ مَنْ لَهُ هٰذا التَّدْبِيرُ اللَّطيف ، وهٰذا العِزُّ الغالِب ، وهٰذا السِّرُّ الخافِى ، وهٰذه العَلانِيَةُ البادِيَة ، وهٰذا الفِعْلُ المُحْكَم ، وهذا النَّعْتُ المُسْتَعْظَم .

وحَكَيتُ أيضاً فى شىء جَرَى ، قالَ حكماء فارس : قد جَرَّبْنَا المُلوك ، فإذا مَلَكَنا السَّمْحُ الجوَادُ جادَت علَيْنا السماء والأرْض ، وإذا مَلَكَنا البَخِيل بَخِلَتْ علينا السماء والأرْض .

قال أبو سليمان : هٰذا إذا صَحّ فهو شاهِدُ الفَيْض الإلٰهىّ المتّصِل بالمَلِك السَّمْح ، ونُضُوبِهِ عن المَلِك البَخيل ، لأنّ المَلِكَ إلٰهٌ بَشَرِىّ .

وقال مَرّةً : ما التَّمَنِّى ؟ — وقَدْ كانَ جَرى ما اقْتَضَى السُّؤالَ عنه — .

---

(١) فى (ب) : « أريد » .

(٢) رواية (ب) : «ولا يختلفوا فى باطنهم حتى يكون مطبوعا» ؛ وفيها تكرار ظاهر.

فقلتُ : أحفظُ نصًّا لبعضِ الحُكماء : إنَّ التَّمنِّيَ فَضْلُ حَرَكةِ النَّفْس . فقال : جَوابٌ رَشِيقٌ وإن كانَ فقيرًا إلى البَسْط .

فقال : هاتِ مِنْ حَديث يُونانَ شَيْئًا آخَرَ ، فقلتُ : قال أرِسْطوطَاليس : لو كنّا نَطْلُبُ العِلمَ لِنَبْلُغَ غايتَه كُنّا قد بَدَأْنا العِلْمَ بِنَقيضِه ، ولكنّا نَطْلُبه لِنَنْقُصَ كلَّ يَوْمٍ مِنَ الجَهْل ، ونَزْدادَ كلَّ يَوْمٍ مِن العِلْم .

(٦) قال : حدِّثني بشيء فيه جَوابٌ حاضِر ، وللبَديهةِ فيه توقُّدٌ ظاهر .

فَحَدَّثْتُ أنَّ رَجُلاً أَتَى الزُّهْرِيَّ فسأله أن يحدِّثه وَيَرْوِيَ له ؛ فأَبَى عليه ، فقال له الرجل : إنَّ اللهَ لم يَأخُذ الميثاقَ على الجُهّال أن يَتعلَّمُوا حتى أخَذَ المِيثاقَ على العُلَماء أن يُعَلِّمُوا ؛ فقال : صَدَقْتَ ، وحَدَّثه .

وحدَّثنا القاضي أبو حامِد المَرْوَرُّوذِيّ ؛ قال : وقف سائلٌ من هؤلاء الأنكادِ عَلَيْنا في جامِع البَصْرَةِ وفي المجلس ابنُ عَبْدَلٍ المَنْصُوريّ ، وابنُ مَعْروف ، وأبو تمام الزَّيْنَبِيّ ، فسَألَ وألَحَّ ؛ فقلتُ له من بين الجماعة — وقد ضجرتُ من إلحاحه وصَفاقةِ وَجهه — : يا هذا : نزلتَ بوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ . قال : صَدَقْتَ ، ولكن يُجْبَى إلَيْه ثَمَرَاتُ كلِّ شَيْء . فَضَحِكَت الجَماعَة ، ووَهَبْنَا له دَراهِمَ .

ومن الجَواب الحاضِرِ المُسْكِت الّذي حَزَّ الكَبِدَ ونَقَبَ الفؤاد[١] ما جرى لأبي الحسين البَتّي[٢] مع الشريف محمد بن عمر ، فإنَّ ابنَ عُمَر قال للْبَتّي[٢] : أنتَ واللهِ شَمَامَةٌ ولكنّها مسمومة . فقال البَتّي[٢] على النَّفَس : لكنك أيُّها الشريف شَمّامَةٌ مَشْمومَةٌ ، عُطِّرت[٣] الأرضُ بها ، وسارت البُرُدُ بذِكْرِها .

(١) في (ب) : « القلب » . (٢) في (ب) . « البتى » .
(٣) في نسخة « فطنت » ؛ وفي نسخة أخرى « وطئت » ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين ؛ وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا .

وقال نصرُ بنُ سيّارٍ بخُراسانَ لأعرابيّ : هل أُتْخِمْتَ قطُّ . قال : أمّا مِن طَعامِكَ وطَعامِ أبيكَ فلا . فيقال : إنّ نَصْرًا حُمّ مِنْ هٰذا الجوَاب أيّامًا ؛ وقال : ليْتَنِي خَرِسْتُ ولم أَفُهْ بسُؤالِ هٰذا الشّيْطان .

(٧) وجَرَى حَدِيثُ الذُّكُور والإناث ، فقال الوزير ، قد شرّف اللهُ الإناثَ بتَقديم ذِكْرِهِنّ فى قوله عزّ وَجلّ : (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إناثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاء الذُّكُورَ) فقلت : فى هٰذا نَظَر ؛ فقال : ما هو : قلتُ قَدّمَ الإناثَ — كما قلتَ — ولٰكِنْ نَكَّرَ ، وأخّرَ الذُّكُورَ ولٰكِنْ عَرّفَ ، والتّعْرِيفُ بالتأخير أشْرَفُ مِنَ النَّكِرَة بالتّقْدِيم . ثم قال : هذا حَسَن . قلتُ : ولَمَ يَتْرُكْ هٰذا أيضًا حتّى قال : (أوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإناثًا) فجَمَعَ الجِنْسَيْن بالتنكير مع تقديم الذُّكْران ، فقال : هذا مُسْتَوْفًى .

(٨) وقال : ما مَعْنَى كَأسٌ أُنُف ؟ فكان من الجواب أن يعقوب قال : يقال كأسٌ أنُفُ ، أى لم يُشْرَبْ منها قَبْلَ ذٰلك ؛ وكذلك يقال : رَوْضَةٌ أُنُف ، إذَا لم يكن رَعاها أحد .

وقال لَقِيط :

إنّ الشِّوَاء والنّشيلَ والرُّغُفْ … والقَيْنَةَ الحَسْنَاء والكَأسَ الأُنُفْ

لِلطاعِنِين الخَيْلَ والخَيْلُ قُطُفْ

قال : ما النّشِيل ؟ فإنّ الشِّواء والرُّغُفَ مَعْرُوفانِ . قلت : ما ضَمّنْته القِدْرُ من اللّحْم وغيرِه ، لأنه يُنْشَلُ ويغْرَفُ ؛ فقال : هـذا بابٌ إنْ ألْحَحْنَا عليه جَوّع .

(٩) قال : ما تحفظُ في حديث الأَكْلِ ؟ قلتُ : الأَكْل والذَّمّ[١] .

ومِنْ مليحه ما حضرني . قيل لجُمَّيز[٢] : ما تشتهي ؟ قال : بَسِيسٌ مَقْلِيٌّ بين غَلَيانِ قُدُور ، على رائحةِ شِواء ، بجَنْبِ خَبِيص . فضحك — أضحكَ

(١٠) اللهُ سِنَّهُ بالفَرَح والسُّرور . وانتظام الأحوال واتِّساق الأمور — . وقال : هاتِ حديثاً نَخرج بِهِ مِمَّا كُنَّا فيه . فقلتُ : كتب سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ إلى رُسْتَمَ صاحبِ الأعاجمِ : إسلامكم أَحَبُّ إلينا من غَنائِمِكم ؛ وقِتالُكم أحبُّ إلينا مِنْ صُلْحِكم . فبعث إليه رُسْتَم : أنتم كالذُّبابِ إذْ نَظَرَ إلى العَسَل فقال : مَن يُوصِلُني إليه بدِرْهَمَيْن ، فإذْ نَشِبَ فيه قال : مَن يُخْرِجُني منه بأربعة ، وأنت طامِع ، والطمع سيُرْدِيك . فأجابَه سَعْد : أنتم قومٌ تُحادُّونَ اللهَ وتُعانِدُون أنفسكم ، لأنكم قد عَلِمتم أنّ اللهَ يُرِيدُ أن يحوِّل المُلْكَ عنكم إلى غيرِكم ، وقد أخبرَكم بذلك حُكَماؤُكم وعُلَماؤكم ، وتقرّرَ ذلك عِندكم ، وأنتم دائماً تَدْفعُون القضاء بنُحُورِكم ، وتَتَلَقَّون عِقابَهُ بِصُدُورِكم ، هٰذه جُرْأةٌ منكمْ وجهلٌ فيكمْ ، ولو نظَرْتُمْ لأَبصرتُم ، ولو أبصرتم لَسَلِمْتُمْ ، فإنّ اللهَ غالِبٌ على أمرِهِ ، ولمّا كانَ اللهُ معَكمْ كانَتْ علينا رِيحُكُمْ ، والآن لمّا صارَ اللهُ معنا [صارت] رِيحُنا عليكم ، فانْجُوا بأنفسكم ، واغْتَنِمُوا أرْوَاحَكم ، وإلا فاصبِرُوا لحرّ السلاح وألم الجراح ، [وخِزْيِ[٣] الافتضاح] ، والسلام .

كَتَبَ حُذَيْفَةُ إلى عمرَ بنِ الخطّابِ — رضيَ اللهُ عنه — إنّ العَرَبَ

(١) يشير بهذه العبارة إلى قولهم في المثل : «أكلا وذما» في الشيء يؤكل ويذم ؛ ذكره صاحب العقد ، ولم يرد في كتب الأمثال الأخرى .

(٢) في الأصل : «حمير» بالحاء والراء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا نقلا عن عيون الأخبار وغيره .

(٣) في (ا) : «والصافي» مكان هذه الزيادة المنقولة عن (ب) .

قد تغيَّرتْ ألوانُها ولحومُها . فكتبَ عُمَرُ إلى سَعْد : ارْتَدْ للعَرَبِ مَنزِلًا مَرَاحًا . فارْتادَ لهم الكُوفة ، وهى بُقْعَةٌ حَصْباء ، وَرَمْلَةٌ حمْرَاء ، فقال سعد : اللهمّ رَبَّ السماء وما أظَلَّتْ ، وَالأرضِ وما أقلَّتْ ، وَالرِّيحِ وَما ذَرَتْ ، بارِك لنا فى هذه الكُوفة .

وَسَمِعَ عُمَرُ مُنْشِدًا يُنشِد :

ما سَاسَنا مِثْلُكَ يا ابنَ الخطَّابْ   أَبَرَّ بالأقْصَى وَ بالأصْحابْ
بعد النبىِّ صاحب الكِتابْ

فنَخَسَهُ عُمَر وَقال : أينَ أبُو بَكْر وَيلَكَ .

قال عُمَرُ وهو بمكَّة : لقد كنتُ أرْعَى إبِلَ الخطَّابِ بِهذَا الوادِى فى مُدَرَّعَةِ صُوف ، وكان فَظًّا يُتعِبُنى إذا عَمِلْت ، وَيَضْرِبُنى إذا قَصَّرْت ، وَقد أمسَيْتُ لَيْسَ بَيْنى وَبَيْنَ اللهِ أحَدٌ ، ثم تمثَّل :

لا شَىْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ   يَبْقَى الإلهُ وَيُودِى المالُ وَالوَلَدُ
لم تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يوماً خزَائِنُه   وَالخُلْدَ قد حاوَلَتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمانَ إذْ تَسْرِى الرِّياحُ به   وَالإنسُ وَالجِنُّ فيما كُلِّفوا عُبُدُ
أينَ المُلوكُ التى كانت نَوَافِلُها   من كلِّ أوْبٍ إليها راكبٌ يَفِد
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بلا كَذِبٍ   لا بدَّ مِنْ وِرْدِنا يوماً كما وَرَدُوا

وقال عُمَر : خيرُ الدَّوابّ الحديدُ الفؤاد ، الصحيحُ الأوْتاد .

وقال عمر : كانت العَربُ أسْدًا فى جَزِيرتِها يأكُل بَعْضُها بعضًا ، فلمَّا جَمَعَهُم اللهُ بمُحَمَّد لم يَقُمْ لهم شىء .

رأى رُسْتَمُ فى النَّوْم أنّ النبىّ — صلّى الله عليه وسلم — أخَذَ سِلَاحَ فارِسَ وَخَتَمَ عليه وَدَفَعَهُ إلى عُمَرَ ، فارتاع رُسْتَمُ من ذٰلِكَ وأَيْقَنَ أنّه هالك .

وَقال : أنشِدْنى شيئًا ، فأنْشَدْتُه لبعض آل أبى طالب :

وَلستُ بمُذْعِنٍ يومًا مُطيعًا ... إلى من لَسْتُ آمَنُ أن يَجُورا
وَلـكنّى مَتَى ما أخْشَ منــــه ... أخالِفُ صارِمًا عَضْبًا ثَؤُورا
وَأنزِلُ كُلَّ رابيــــةٍ بَرَاحٍ ... أكونُ على الأمير بها أميرا

وأنْشَدَنى لعبدِ اللهِ بن الزُّبير ، ولقد تُمُثِّلَ به :

إنِّى لَمِنْ نَبْعَةٍ صُمٍّ مَـكَاسِرُها ... إذا تقادَحَت القَصْباءُ[1] وَالعُشَرُ
وَلا ألِينُ لغَـيْرِ الحَقِّ أتبعُـــهُ ... حتى يَلِينَ لِضِرْسِ الماضغِ الحَجَرُ

وحَدَّثته أنّ المأمون قال : قليل السَّفَهِ يمْحُو كثيرَ الحِلْم ، وَأدْنى الانتصار يُخْرِجُ من فَضْلِ الاغتفار ، وَعَلَى طالب المعروف المَعْذِرَةُ[2] عند الامتناع ، وَالشُّكْرُ عند الاصطناع ، وَعَلَى المطلوب إليه تعجيلُ المَوْعُود ، وَالإسعافُ بالموجود .

---

(١) ورد هذا البيت فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر دون (ب) هكذا :

إلى لمن نبعه صم به كاسرها ... أو أينا رحب العضينة والقشر

وهو كما ترى مملوء بالتصحيف والتحريف فى جميع كلماته تقريبا ؛ وقد بحثنا عن هذا الشعر فى المصادر التى بين أيدينا فلم نجد غير البيت الثانى ؛ وهو منسوب فى مجموعة المعانى إلى عبد الله ابن الزبير الأسدىّ ولم نجده فى ترجمته ؛ وقد قلبنا جميع كلمات هذا البيت على جميع ما تحتمله من الوجوه حتى استقام وزنه ومعناه على هـذا الوجه الذى أثبتنا . والنبع :شجر تتخذ منه أجود الرماح . وصمّ مكاسرها ، أى صلبة . ويقال : تقادح الشجر إذا كان رخوا ، فمتى حركته الريح حك بعضه بعضا فأورى نارا فإذا أريد الانتفاع به فى إيراء النار بعد لم يور . والقصباء : جماعة القصب . والعشر : شجرة تتخذ منه الزناد .

(٢) فى (ا) : المقدرة ؛ وهو تحريف .

فقال : مَن أفضَلُ هؤلاء ؟ يَعْنى بنى العبّاس . فكان الجوابُ أنّ المنصور أنقَدَهم[١] ، والمأمونَ [أمجَدُهُمْ] ، والمعتصِمَ أنجَدُهم ، والمعتَضِدَ أقْصَدُهمْ . فقال : كذلك هو . وقال : فالباقون ؟ [قلت] ليس[٢] فيهم بعد هؤلاء من يُوحَّدُ بالذكر ، لأنّه فى نقصِه وزيادتِه مُشاكلٌ لغيره . فقال : لِلّهِ دَرُّك .

الليلة الخامسة والثلاثون

(١) وقال ليلةً : ما الفَرْقُ بين الإرادَة والاختيار ؟ فكان مِن الجواب أنّ كلَّ مُرادٍ مُختَار ، وليس كلُّ مختارٍ مُرادًا ، لأنّ الإنسانَ يَختَارُ شُرْبَ الدواء الكَريه وضَرْبَ الوَلَدِ النّجيب وهو لايريد ، ويَختَارُ طَرْحَ مَتاعِه فى البَحْرِ [إذا أُلجِئ][٣] وهو لا يريد ، وهما وإن كانا انفعالَيْن فأحَدُهما — وهو الاختيار — لا يَحْدُث إلاّ عن جَوَلانٍ وتنقيرٍ وتمييز ، والآخَر — وهو الإرادة — يَفْجَأ ويَبْغَت[٤] وربّما حَمَلَ على طلَبِ المرادِ بالكُرْه الشديد ؛ وفى عُرْضِ الاختيار سَعَةٌ للتمكّنِ ، وليس ذلك فى عُرْضِ الإرادة . والعَرَبُ تَستعمل الإرَاغَة فى موضع الإرادة ، والأوّل مِن رَاغَ يَرُوغُ ، والثانى من رَادَ يَرُودُ ، والهمزة مُجتَلَبَةٌ للتعدّى .

(٢) قال : فما الفَرْقُ بين المحبّة والشّهْوَة ؟ فكان الجوابُ أن الشهوةَ أَلصَقُ بالطّبيعة ، والمحبّةَ أصْدَرُ عن النفس[٥] الفاضلة ، وهما انفعالان ، إلا أنّ أحد

(١) فى (ا) : «أ تدرهم » ولم يظهر منها فى (ب) غير الهاء والميم ؛ وسائرها مطموس ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السجع .

(٢) الذى فى (ا) : « أشرفهم » ؛ وهو تحريف . ويلاحظ أن كلمة « فيهم » غير موجودة فى (ب) ، وقد أثبتناها أخذاً من قوله فى (ا) : « أشرفهم » .

(٣) فى الأصول : « أحب » . وهو تحريف .

(٤) فى (ا) : « ويثبت » ، وفى (ب) ويبت ، وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٥) فى (ا) : « الطبيعة » مكان « النفس » .

الأنفعالَين أشَدُّ تأثراً ، وهو أنفعالُ الشَّهْوَة ، وأنّه[١] يقال : شَهِيَ وأشْهَى[٢] ، ويقال فى الآخر : حَبَّ وأحَبَّ ، ويتَدَاخَلان كثيرًا بالأستعمال ، لأنَّ اللغة جارية على التوسّع ، كما هى جاريةٌ على التَّضْيِيق ، ومن ناحية التضْيِيق فُزِعَ إلى التَّحْديد والتَّشْديد ، ومن ناحية التوسُّع جُرِيَ على الأقتدار والأختيار[٣] ، وفى عُرْضِ هٰذين بلاء آخَر ، لأنّه بين الإيجاز والإطناب ، وبين الكِنَاية والتصريح ، وبين الإنجاز[٤] والإبطاء . فقال : هذا باب .

(٣) ثم ناولَنى رقعةً بخطّه فيها مَطالِبُ نفيسةٌ تأتى على عِلْمٍ عظيم ، وقال : باحِثْ عنها أبا سليمان وأبا الخير ومن تَعلَم أن فى مُجارَاته فائدةً من عالِمٍ كبير ، ومُتعلِّمٍ صغير ، فقد يُوجَدُ عند الفَقِير بَعْضُ ما لا يُوجَد عند الغَنِيّ ، ولا تَحْقِرْ أحداً فاهَ بكلِمَةٍ من العِلْمِ ، أو أطافَ بجانِبٍ من الحِكمة ، أو حَكَمَ بحالٍ من الفضل ؛ فالنُّفوس معادِنُ ، وحَصِّلْ ذلك كلَّه وحَرِّرْه فى شيء وجِئْنى به ، وكان فى الرُّقعة :

ما النَّفْس ؟ وما كمالُها ؟ وما الّذى أستفادَتْ فى هذا المكان ؟ وبأىّ شيء بايَنَت الرُّوح ؟ وما الرُّوح ؟ وما صِفَتُه ؟ وما مَنْفَعتُهُ ؟ وما المانع من أن تكون النفسُ جِسْماً أو عَرَضًا أو هُمَا ؟ وهل تَبْقى ؟ وإن كانت تَبْقى فهَل تَعْلَمُ ما كان الإنسانُ فيه ها هُنا ؟ وما الإنسان ؟ وما حَدُّه ؟ وهل الحدُّ هو الحقيقة ، أمْ بَيْنهما بَوْن ؟ وما الطبيعة ؛ وهلاّ أغْنَى الرُّوح عن النَّفْس ، أو هلاّ أغْنَت النفسُ عن

---

(١) فى كلتا النسختين : « لأنه » والتعليل هنا لا مقتضى له ؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا . (٢) لم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا أشهى بمعنى شهى ، أى اشتهى كما يفيده كلامه . والذى وجدناه أشهاه بمعنى أعطاه ما يشتهى ، لا بمعنى اشتهى .

(٣) فى الأصول : « والاستحقار » . وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٤) فى (ا) : الأبحار والإطناب ، وفى (ب) وردت هذه الكلمة مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ، والسياق يقتضى ما أثبتنا أخذا من الرسم الوارد فى النسخ .

الرُّوح ؟ وهلاَّ كَفَتِ الطَّبيعة ؟ وما العقل ؟ وما أنحاؤُه ؟ وما صَنِيعُه ؟ وهل يُنقَل العَقْل ؟ وهل تتنفس النَّفْس ! وما مَرْتَبتُه (أعْنِي العقلَ) عند الإِله ؟ وهل ينفعل ؟ وهَل يَفْعَل[1] ؟ و إن كان ينفعل ويَفعَل[1] فقِسْطُ الفِعْل فيه أكثرُ مِنْ قِسط الأنفعال ؟ وما المَعادُ المشارُ إليه ؟ أهو للإنسان ؟ أم لنَفْسِه ؟ أم لهما ؟ وما الفَرْق بين الأنْفُسِ ، أعْنى نَفْسَ عَمْرو وزَيْدٍ وبَكْرٍ وخالد ؟ ثم ما الفَرْقُ بين أنفُسِ أصنافِ[2] الحيَوَان ؟ وهَل المَلَكُ حَيَوان ؟ فقد علمتَ أنّه يقال له : حَىٌّ ، وهل فيه حياة ؟ وعلى أىِّ وَجْهٍ يُقَالُ : إنّ الله عزّ وجلّ حَىٌّ والمَلَكَ حَىّ والإنسانَ حَىّ والفَرَسَ حىّ ؟ وهل يقال : الطبيعةُ حَيّة ، والنَّفسُ حَيّة ، العَقْلُ حىّ ؟ فإنّ هٰذا وما أشبَهَهُ شاغِلٌ لقَلْبى ، وجاثمٌ فى صَدْرى ، ومُعْترضٌ بين نَفْسى و فِكْرِى ؛ وما أُحِبُّ أن أبوحَ به لـكلِّ أحَد ، وقد بَيَّنْتُه[3] فى هٰذه الرُّقعة ، فإنْ أحْبَبتَ أن تَعرِضها على أبى سُلَيمان فافْعَل ، ولـكنْ لا تَدَع خَطِّى عندَه ، بل انْسَخْهُ له ، وحَصِّلْ ما يُجِيبُك به ، ويَصْدَعُ لك بحقِيقَتِه ، ولَخِّصْه ، وزِنْهُ بلفَظِك السَّهل ، و إفْصَاحِكَ البَيِّن ، و إنْ وَجَب أنْ تُباحِثَ غَيْرَه فافْعَل ؛ فهذا هذا ؛ و إنْ كان الرجوعُ فيه إلى الـكُتُب المَوْضُوعة من أجلِه كافياً ، فليس ذلك مِثْلَ البَحْثِ عنه باللِّسان ، وأخْذِ الجوابِ عنه بالبَيان ، والـكتابُ مَوات ، ونَصِيبُ الناظر فيسه مَنْزُور ، وليس كذلك المُذاكَرة والمُناظَرة والمُوَاتاة[4] ، فإنّ ما يُنالُ من هـٰذه أغَضّ وأطْرَأ ، وأهْنَأ وأمْرَأ ،

---

(١) فى (ا) : « ينفل » مكان « يفعل » فى كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم ، وهو تصحيف .

(٢) فى (ب) : « أصحاب » مكان قوله « أصناف » ، وهو خطأ من الناسخ .

(٣) فى (ب) : « نثرته » ، والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٤) فى نسخة « وللموازاة » .

البَدَن . وعلى هذا ؛ ولعلَّ آخَرين يقولون فى تَحْديدها وَنَعْتِها أقوالاً أخَر ، لأنّ المَلْحُوظَ[(١)] بسيط ، والمَدْرُوكَ بعيد ، والناظرين كثيرون ، والباحثين مختلِفون ، وَالكثرةُ فاتحةُ الاختلاف ، والاختلافُ جالبُ الحَيْرَة ، وَالحيْرةُ خانقةٌ للإنسان ، وَالإنسانُ ضَعيفُ الأَسْرِ[(٢)] ، محدودُ الجُمْلَةِ ، محْصُور التفصيل ، مقصورُ السَّعْى ، مَمْلوكُ الأَوّلِ وَالآخِرِ ، غِشَاوَةُ كثيف ، وباعهُ قَصِير ، وفائِتُه[(٣)] أكثرُ من مُدْرَكِه ، وَدَعْوَاه أحضَرُ من بُرْهانه ، وَخَطَؤُه أكثرُ مِنْ صَوَابِه ، وَسُؤاله أظهَرُ مِن جوَابِه ، فعلَى هٰذا كلّه الاعتراف بها — أعنى بالنفس وبوِجْدَانِها — أسْهلُ من الفَحْصِ عن كُنْهِها وبُرْهَانِها .

قال : وإنما صَعُبَ هذا لأنّ الإنسان يُرِيدُ أنْ يَعْرِفَ النَّفْسَ وهو لا يَعْرِف النَّفْسَ إلّا بالنَّفْس ، وَهو محجوب عن نَفْسِه بِنَفْسِه ؛ وإذا كان الأمر على هذا فالأمْرُ أنّ كلّ من كانت نفسُه أصْفَى ، وَنورُه أشَعّ ، وَنَظَرُه أعلى ، وَفِكْرُه أثقَب ، وَلحْظُه أبْعَد ، كان من الشكّ أنجَى ، وَعن الشُّبْهة أنأى ، وإلى اليقين أقْرَب ؛ وَالإنْسَانُ ذُو أشياء كثيرةٍ ، مِن جُمْلَتِها نَفْسُه ، فلِكثرة ما هُوَ به كثيرٌ يَعْجِزُ عن إدْرَاك ما هُوَ به واحدٌ ، أى إنسان ، وكيف لا يكونُ هٰذا النَّعْتُ حَقًّا ، وهذا المَقُول صِدْقًا ، وهو مُرَكَّبٌ فى مركَّب ، وَالنَّفْسُ مَبْسُوطَةٌ ، وَإنما فيه جُزْءٌ يسير وَنَصِيبٌ قليل من ذلك البسيط ، فكيف يُدرِك بجزء منها كلَّها وبقليل منها جَمِيعَها[(٤)] ؛ هذا متعَذِّرٌ إنْ لم يكن مُحالًا ، وبعيدٌ إن لم يكن معدوما ؛

(١) فى كلا الأصلين : « المخلوط » . . . و « المذكور » ؛ وفى كلتا الكلمتين تصحيف وقلب ، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) الأسر : القوة . وفى (ب) : « الأس » بضم الهمزة وتشديد السين ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً . (٣) فى كلا الأصلين « وفلتته » ؛ وهو تحريف .

(٤) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط مطموس بعض حروفها . والسياق يقتضى ما أثبتنا .

وأجعل هذه الخِدْمة مُقَدَّمةً على كلِّ مُهِمٍّ لك ، فإنّى ناظرُك ، طامِعاً فى الجَوَاب المُقْنع الشّافى .

فعرَضْتُها كما رَسَم على أبى سُلَيمانَ وقرأتُها [عليه] ، وتمهّلْتُ فى إيرادِها بحَضْرَتِه ، فلما فَهِمها ووَقفَ عليها تَعجب وقال : هــذه مَسَائل المتحكِّمِين[١] ، وَطَلَبَاتُ المُدِلِّين ، واقتراحات المُقْتَدِرين ، ومُنْيَةُ الأوّلين والآخِرين .

قلتُ : هو كما قلتَ أيُّها الشيخ ، ولا بدّ من جوابٍ يُعْرَض عليــه يأتى على بعض مآرب النفس ، وإن لم يأت على قاصيَة ما فى المطلوب ، فقال كلاماً كثيراً واسعاً أنا أحْــكِيه على وَجْهه من طريق المَعْنى ، وإن انحرفتُ عن أعيان لَفْظِه ، وأسْبابِ نَظْمِه ، فإنّ ذلك لم يكن إملاءً ولا نَسْخًا ، وأجْتَهِدُ أنْ ألْزَمَ مَتْنَ المُرَاد ، وسَمْتَ المَقْصُود — إنْ شاء الله — [عزّ وجلّ] .

(٤) قال : أمّا قولُه : ما النَّفس ، فإنَّ التحديد يُعْوِز ، والرَّسْمَ لايَشْفى ، والوَصْفَ مقصِّرٌ عن الغاية ، لأنّها ليس لها جِنْسٌ ولا فَصْل فيَنْشأُ الحَدُّ بهما [ومنهما] ؛ والاسم الشائع — أعنى النفس — أخْلَصُ إلى المطْلوب ، وأحْضَرُ للمَقْصُودِ من التَّحديد ، ولهذا ما اختلَفَ الناسُ قَدِيماً وحَديثاً فى حَدِّها ؛ فقال قائل : النَّفْسُ مِزَاجُ الأرْكان . وقال قائل : النّفسُ تَأَلُّفُ الأُسْطُقُسّات ؛ وقال قائل : النفس عَرَضٌ[٢] مُحرِّكٌ[٣] بذاته . وقال قائل : النفس هوائيّة . وقال قائل : النفسُ رُوحٌ حارّة . وقال قائل : النفس طبيعةٌ دائمةُ الحَرَكة . وقال قائل : النفسُ تَمَامٌ لجِسْمٍ طبيعىٍّ ذى حياة . وقال قائل : النفسُ جَوْهَرٌ ليس بجسمٍ محرِّكٌ

(١) فى كلا الأصلين : « المتحلين » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين « عدد » ؛ وهو تحريف لايستقيم به الكلام .
(٣) فى (ب) : « متحرّك » .

وَيَكفى أن تعلم أن النفس قوةٌ إلٰهية وَاسطة بين الطبيعة المُصرِّفة للأُسْطُقُسّات والعناصرِ المُتَهَيِّئة ، وبين العقل المنير لها ، الطالِع عليها ، ، الشائعِ فيها ، المحيطِ بها ؛ وكما أن الإنسان ذُو طبيعة لآثارها الظاهرة فى بدنه [كذلك هو ذو نفس ، لآثارها الظاهرة فى آرائه] وَأَبحاثِهِ ، وَمَطالبه وَمآربِهِ ؛ وكذلك هو ذو عَقْلٍ لتمييزه وَتصفّحه ، وَأُختِبارِه وَفَحْصِهِ وَأُستِنْباطِه ، وَيَقِينِه وَشَكِّه ، وَعِلْمِه وَظنّه[1] ، وَفَهْمِهِ وَرَوِيّتِه وَ بَدِيهَتِهِ وَذِكْرِه ، وَذِهْنِه وَحِفْظِهِ وَفِكْرِه ، وَحِكْمَتِهِ وَثِقَتِه وَطُمَأْنِينَتِه ؛ وكذلك هو ذو أعتراف بالأَحَد[2] الّذى لا سَبِيلَ إلى جَحْدِهِ ، وَالبَرَاء مِن هُوِيَّته ، وَكيفَ يَجِدُ أَثَرَ الجحْد ، أو يُحِسُّ بِلَمْسَةٍ من الشكّ ؟ وَسِنْخُهُ يَنبُو عن ذٰلك ، وَفِطْرَتُه تأباه ، ولهٰذا النُّبوّ وَالإِباء[3] يَفزَع إليه ، وَيتوكّلُ عليه ، وَيَطْلُبُ الفَرَجَ مِنْ عندِه ، وَيَلْتَمِسُ الخيرَ مِنْ لَدُنْه ، فأنظر إلى هذه السِّلْسِلَةِ الوثيقة التى لا يَفْصِمُها شىء لا فى زَمانٍ ولا فى مكانٍ ، ولا فى يَقظَةٍ وَلا فى منَامٍ ؛ فهٰذا هٰذا ؟ وَفيه مَقْنَع .

وَأَمّا فِعْلُ النفْسِ ، فقد وَضح أنّه إثارةُ العِلم من مَظانّه ؛ وَأستخلاصُه من العقل بشهادَتِه ، مع إفاضاتٍ لها أُخَر ، وَإنالاتٍ منها جليلة عند الإنسان ، بها يَنَالُ ما يَكْمُل به ، وبكَمالِه يَجِدُ السعادة ، وبسَعادَتِه يَنْجُو مِنْ شِقْوَتِه .

(٥) وأمّا قولُه : ما الّذى استفادت فى هذا المكان ، فإنّها أفادت وما أستفادت ، إلاّ أن تُجْعَلَ إفادتُها للقابِلِ منها أستفادةً لها ؛ وفى هٰذا تجوُّزٌ ظاهر ، ولا يقال للشمس إذا طَلَعَت على بَسِيطِ الأرض والعالَم : ما الّذى أستفادت . ولكن

(١) فى (ب) : « وفطنته » .

(٢) فى كلا الأصلين « بالحد » ؛ وهو تحريف ؛ وسياق الكلام الآتى يقتضى ما أثبتنا . ويريد بالأحد : الله تعالى .

(٣) فى (ا) : « البنون والآباء » ؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين .

يقال : ما الّذى أفادَتْ : فيُعلَم حينَئِذٍ بالعِيان أنّها أفادَت أشياء كثيرة ، صُوَرًا مختلفة ، ومَنافعَ جَمّةً بالقَصْدِ الأوّل ؛ وأمّا القَصْدُ الثانى فأضدادُ هٰذه ، وهـذا القَصْدُ مفروضٌ باللفظ ليكون مُعيناً على تبليغ الحِكْمَة إلى أهْلِها .

(٦) وأمّا قولُه : بأىّ شىء باينت النفسُ الرُّوحَ فهو ظاهر ، وذلك أنّ الرُّوح جِسْمٌ يَضْعُفُ ويَقْوَى ، ويَصْلُح ويَفسُد ، وهو واسطةٌ بين البَدَنِ والنَّفْس ، وبه تُفيضُ النفسُ قُوَاها على البَدَن ، وقد يُحِسُّ ويتحرَّك ، ويَلَذُّ ويتألم ؛ والنفسُ شىءٌ بسيطٌ عالِى الرُّتْبَة ، بعيدٌ عن الفساد ، منزَّه عن الأستحالة .

وأمّا المانعُ أنْ تكون النفسُ جسماً [فللبساطة التى وُجدتْ للنفس ولم تُوجَد للجسم ، وبيانُ هـذا أن كلّ نعت أُطْلِق على الجسم نُزِّهتْ عنه النفس ، وكلّ نعت أطلق على النفس نبا عنه الجسم ؛ فذاك كان المانع من ذلك ، وقد أتت مذاكَرةٌ فى النفس منذ ليالٍ بشرحٍ مُغْنٍ ، وبيانٍ تامّ ، إلا أن هـذا المكان أحوَجُ إلى الإلمام ، ولم يأت على ما فى النفس . وإذا بطل أن تكون النفسُ جسما] فهى بألاّ تكون عَرَضاً أَغْمَنُ وَأَخْلَق ، لأنّه لا قِوَامَ للعَرَض بِنَفْسِه .

(٧) وأما قوله : وهل تَبقَى ؟ فكيف لا تَبقَى وهى مَبْسُوطَةٌ لا يَدْخُلُ عليها ضِدٌ ، ولا يدبّ إليها فساد ، ولا يَصِلُ إلى شىء منها بِلًى ، والإنسان إنما يَبْلَى وَيفسُد ويَخلَق ويَبْطُل ويَموت ويَفقِد ، لأنّه يفارق النَّفس ، والنفسُ تفَارِق ما ذا حتّى تكُونَ فى حُكْمِ الإنسان بِشَكْلِهِ ؟ ولو كانت كذٰلك كانتْ لَعَمْرِى تموتُ وتَبلى ، فأمّا والإنسان بها كان حيًّا وَجَبَ ألا يَكون حُكْمُها حُكمَ الإنسان .

وأمّا قولُه : أو هُما ، فقد بان أنّ النفسَ مَتى لم تكن جسْماً ، ولا عَرَضاً على حِدَةٍ أنها لا تكون أيضاً بهما نَفساً ، لأنّ البَيْنُونَةَ التى مَنَعت فى الأوّل هى

الّتى تَمنَعُ فى الثانى ، وليست النفسُ والعرَض كالخَلّ والسُّكّر حتى إذا جُمِع بينهما كان منهما شىء آخر ، لأنّ الجِسْمَ وَالجِسم إذا اختلطا كان منهما شىءٌ ما ، لهُ قَوَامٌ ما ، وإنَّ ذٰلك القوامَ مُستَقِلٌّ منهما ، وليس كذلك البَسيط وغيرُ البسيط ، فهذا هذا .

وأمّا قوله : وهل تَفْنَى[1] ، فقد بان أنّهما تَبقىٰ ولا تَفنى ، وليس يطرأ عليها ما يُفنِيها ، لبساطَتِها وبُعْدِها من التّركيب العجيب [المُعَرَّضِ] للتحلُّل .

وأما قوله : وهل تعلم ما كان فيه الإنسان ها هُنا ، فإنّ هذا بعيد من الحقّ لأنّها قد وَصَلَت إلى مَعْدِنِ الكَرامة وجَنّةِ الخُلْد ، فلا حاجةَ بها إلى عِلْمِ العالَمِ السُّفْلِيّ الّذى لا ثَبَاتَ له ولا صُورَةَ ، لغَلَبَةِ الحَيْلولة عليه ، وتذَكُّر الحَيْلولة حَيْلُولة ، وذلك دليلُ النّقص ، واعتراضُ الألَمَ ، ولو أن إنسانًا نُقِلَ[2] من كَرْبِ حَبْسٍ ضَيّقٍ إلى رَوْضِ بُسْتان ناضر بهيج مُونِق ، ثم تذكَّرَ ما كان فيه فى حال ما هُوَ عليه لكان ذلك مُؤْذِيًا لنَفْسه ، وكاربًا لقَلْبه ، وقادِحًا فى رَوحِهِ ، وآخِذًا من حُبُورِهِ وَغِبْطَتِهِ ، ومُدْخِلاً للتنغيص عَلَيْهِ فى نَشْوَتِه .

(٨) وأمّا قوله : وما الإنسان ، فالإنسانُ هو الشىءُ المَنْظُومُ بتَدْبيرِ الطّبيعة للمادّة المخصوصة بالصُّوَر البَشَرِيّة ، المؤيَّدُ بنُورِ العَقْل من قِبَل الإِله ؛ وهذا وصفٌ يأتى على القَوْل الشائع عن الأوّلين إنّه حَىٌّ ناطِقٌ مائتٌ [أى حىٌّ] من قِبَل الحِسّ والحركة ، ناطقٌ مِنْ قِبَل الفِكْرِ والتمييز ، مائتٌ مِنْ قِبَل السَّيَلان والاستحالة ، فمن حيثُ هو حىٌّ شريكُ الحيوان الّذى هو جنسُه ، ومن حيث هو مائتٌ هو شَريكُ ما يَتَبَدَّل ويتحلَّل ، ومن حيث هو ناطقٌ هو

(١) فى الأصول : « وهل تبق » ، وهو تصحيف إذ قد سبق هذا السؤال .
(٢) فى (ب) : « نجا » .

إنسانٌ عاقلٌ حَصيف ، ومن حيث يَبلغ إلى مُشاكهة المَلَكِ بقوّة الأُختيار البَشَرِيّ ، والنور الإلهي ، — أعنى يُنعَتُ(١) فى حياته هذه التى وُهبَتْ له بَدْءا ، بصحّة العقيدة وصلاحِ العمَل وصِدْق القَوْل — هو مَلَك ، فإن لم يكن مَلَـكاً فهو جامع لصفاتِه ، ومالكٌ لِحِلْيَتِه ، ولمّا كان جنسُه مشتمِلا على التفاوُت الطَّويل العَريض ، كان نوعُه مشتمِلا على التفاوت الطويل العريض ؛ ومن كان نوعُه كذلك كانت آحادُه كذلك ، وكما أنّ الجِنْسَ يَرْتَقِى إلى نوعٍ كامل ، كذلك النوعُ يَرتقِي إلى شَخْص كامل .

(٩) وأمّا قولُه : هل الحدّ هو الحقيقة ، أو بينهما بَوْن ، فإنّ الحدّ راجعٌ إلى واضِعِه ومُتَقَصِّيه(٢) بدَلَالةِ أنّه يَضَمُه ويُفَصِّله(٣) ، ويُخَلِّصُه ويُسَوِّيه ويُصْلِحُه . فأما الحقيقة فهى الشىء وبها هُوَ ما هُوَ ، حَدَّه صاحِبُه أم لَمْ يَحُدَّه ، رَسَمَه قاصِدُه أمْ لم يَرْسُمْه ، فملحوظ الحقيقة عَيْنُ الشىء [وموضوع الحدّ ليس هو عينَ الشىء] .

(١٠) وأمّا قوله : وما الطبيعة فهى أيضاً قوة نفسيّة ، فإن قلتَ عَقلية لم تَبْعد ، وإن قلتَ إلهيّةٌ لم تَبْعد ، وهى الّتى تَسرِى فى أثناء هذا العالَم مُحَرِّكةً وَمُسَكِّنَة ، ومُجَدِّدةً ومُبْلِيَة ، ومُنْشِئةً وَمُبيدة ، ومُحْيِيَـةً ومُمِيتة ، وتصاريفها ظاهِرةُ الحسَائس ، وهى آخِرُ الخُلفاء فى هذا العالَم ، وهى بالموادّ أعْلَق ، والموادُّ لها أعْشَق ؛ وليس لها تَرَقى النَّفْسِ فى الثّانى(٤) إلى عالَمِ الرُّوح ، لأنّهُ لا كَوْنَ هُنالكَ ولا فَساد ، فلو رَقِيَتْ إلى هُنَالِكَ لبَقِيَتْ عاطِلة ، وليس كذلك النفس ،

(١) فى (ا) : « يقيني » : وفى (ب) : « يقتني » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين ولعل الصواب ما أثبتنا . (٢) فى كلتا النسختين : « ومقتضيه » ؛ وهو تحريف لا معنى له فى هذا الموضع . (٣) فى كلتا النسختين : « ويبطله » . وهو تحريف .
(٤) فى الثانى ، أى فى العالم الثانى .

فإنّ لها فى عالَمِها البَهْجَةَ والغِبطة ، والحبُورَ والسُّرُور ، والدَّوامَ والخُلود والخِلافة الإلٰهية ، وهذا هُناك فى مُقَابلة ما كان لها هاهُنا من الفضائل التى لا يأتى عليها إحْصاء ، ولا يحصّلها استقصاء .

(١١) وأمّا قولُه : وهلاّ أغْنَى الرُّوح عن النّفْس ، فهو يُغْنِى عنها ، ولكن فى جِنْس الحيَوَان الذى لم يكْمُل فيكونَ إنساناً . فأمّا فى الإنسان فلا ، لأنّ الإنسان بالنّفْس هو إنسانٌ لا بالرُّوح ، وإنما هو بالرُّوح حَىٌّ فحسْب .

وأمّا قولُه : وهَلّا أغنَت النفسُ عن الرُّوح ، فإنّ الرُّوح كالآلة للنفس حتى يَنْفُذَ تدبيرُها بوَساطته فى صاحِب الرُّوح ، وليس ذلك لعَجْز النفس ، ولكن لعَجْزِ ما يَنْفُذُ فيه التدبير ، وإذا حُقِّقَ هذا الرَّمْزُ لم يَكُنْ هُنَاك عَجْز لأنّه نظامٌ موجودٌ على هٰذه الصورة ، وصورةٌ قائمةٌ على هـذا النظام ، فليس لأحد أن يُعَلِّلَ ذلك بلِمَ ولا بكَيْفَ إلّا من طريق الإقناع .

(١٢) وأمّا قولُه : هَلاَّ كَفَت الطّبيعة . فقد كَفَت فى مواضِعها التى لها الولايَةَ عليها مِنْ قِبَلِ النّفْس ، كما كَفَت النفسُ فى الأشياء التى لها عليها الولايَةُ مِن قِبَل العَقْل ، كما كَفَى العقلُ فى الأمور التى له الولاَية عليها من قبل الإلٰه ؛ وإن كان مجموعُ هذا راجعاً إلى الإلٰه ، فإنّه فى التفصيل محفوظُ الحدود على أربابها ؛ وهٰذا كالملِكِ الّذى لَهُ فى بِلادِه جَماعةٌ فيَصْدُرون عن رَأْيه ، ويَنْتَهُون إلى أمرِه ، ويتوخَّوْن فى كلّ ما يَعْقِدُونه ويَحُلُّونَه ، ويَنْقُضُونه ويُبْرِمونه ، ما يَرْجِـعُ إلى وِفاقِه ، وكلُّ ذلك منه وله وبأمْرِه ، وقد كفاه أولئك القومُ ذلكَ كُلَّه .

فإن قال قائلٌ : فكيف مَثّلْتَ سِياسةَ إلٰهِيّةً بسياسةٍ بَشَرِيّة ، وأين هذه مِنْ تِلْكَ ؟

فالجوَاب أنّ البَشَر المسكين لَمْ يَجِدْ هذه السياسة من تِلقاء نَفْسِه ، ولا بِما هُوَ به مَهِينٌ ضَعيف عاجزٌ مِسْكين ؛ بل بما فاض عليه من تِلكَ القُوَى وَتِلْكَ الصُّوَر ، فهو إذا أبرَزَ شيئًا أبْرَزَ على مِثالِ تِلْك ، لأنّه قد أُعْطِيَ القالَب ، فقد سَهُلَ عليه أن يُفرِغَ فيه ، وَوُهِبَ له الطابَع ، فهو يَخْتِمُ به ؛ وَهُيِّئ على ذلك فهو يَجْرِى عليه ، وهذا سَوْقٌ إلْهِيٌّ وإن كان الأنسياقُ[1] بَشَرِيًّا ، وَنَظْمٌ رُبُوبِيٌّ وَإن كان الأنتظامُ إِنْسِيًّا ؛ وفى الجُمْلة إحْدَى السِّياستين ، أعنى البَشَرِيَّة هِىَ ظِلٌّ للأخرى ، أعنى الإلٰهِيَّة ، وَالسُّفْلِيّات مُنْقادَةٌ مُنْفَعِلَةٌ للعُلْوِيّات ، وَالعُلْوِيّات مُسْتَوْلِيَاتٌ على السُّفْلِيّات ، بحقّ العَدْل وما هو مقتضاها ، ولأنّ هذه فَوَاعِل ، أعنى العُلوِيّات ، وَتِلكَ قَوَابِل ، أعنى المُنفَعِلات ، وَوَجَب ذلك لأن الصورة فى الفاعِل أغْلَب ، والهَيُولَى فى القابِل أغْلَب ، وَالعالَمَان مُتَواصِلان ، والسِّياستان مُتَماثِلَتان ، والسِّيرتان مُتَعادِلَتان ، والتَّدْبِيران مُتَقابِلان ، ولٰكنّ التدبيرَ إذا نَفَذَ فى السُّفْلِيّ يُسَمَّى بَشَرِيًّا ، وَإذا نَفَذَ فى العُلْوِيّ يُسَمَّى إلٰهِيًّا ، وَإن كانا فى التَّحْقيق إلٰهِيَّين ، وَإنّما اخْتَلَفا بحَسَب الصُّدُور وَالوُرُود ، والفُصول وَالوُصول ، وَالشُّخُوص[2] وَالبُلوغ ؛ وَالعادة جارية بأنْ يُشَبِّهَ الإنسانُ شيئًا من الأشياء بالشَّمْس وَالقَمَر ، وَلا يُشَبِّهَ الشمسَ وَالقمرَ بشىء آخَر ، لأنّ للأعلى النَّعْتَ الأوّل ، وَللأسفل النَّعْتَ الأرْذَل ؛ فهٰذا كما تَرَى .

(١٣) وَأما قوله : وَما العَقْلُ ، وَما أنْحَاؤه ، وَما صَنِيعُه ؟ فإن الجواب عن هٰذا لو وَقَع[3] فى خَلَد كَثير ، لكان محمولًا على التقصير ، وكذلك فيما تَقَدَّم ؛ ولٰكن

(١) فى كلتا النسختين : « الاشتياق » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .
(٢) يريد بالشخوص هنا الارتحال ، وهو فى مقابلة البلوغ .
(٣) فى كلتا النسختين « أنه لو وقع » . والظاهر أن قوله «أنه» زيادة من الناسخ .

هذا مكان قد اُقتُرِح فيه الإيجازُ والتَّقريب ، وهٰذان لا يكونان إلّا بحذف الزوائد المُفيدة ، وَإلّا بتفريق العَلائِقِ المُوَضِّحة . وَ بعد ، فالعقل أيضاً قوّةٌ إلٰهيّة [أَبْسَط من الطبيعة ، كما أن الطبيعة قوّة إلٰهيّة] أَبْسَطُ من الأُسْطُقُسّات ، وكما أنّ الأُسْطُقُسّات أَبْسَطُ من المركَّبات ؛ وعلى هذا حتّى تَنتهى المركّبات إلى مُرَكَّب فى الغاية ، كما بلغت المبسوطات إلى مَبْسُوطٍ فى النهاية ؛ فالْتَقَى الطَّرَفان على ما يقال له : كُلّ ، فلم يكن بعد ذلك مَطلَبٌ لا فى هٰذا الطَّرَف ولا فى هٰذا الطَّرَف ؛ وَالعَقْلُ هو خليفة الله ، وهو القابل للفَيْض الخالِص الّذى لا شَوْبَ فيه ولا قَذًى ؛ وَإنْ قيل : هو نُورٌ فى الغايةِ لم يكن ببَعِيد ، وَإن قيلَ بأنَّ اُسمَه مُغْنٍ عن نَعْتِه لم يكن بِمُنْكَر ؛ وَإنما عَجَزْنا عن تَحْديدِ هٰذه البَسائط لأنا حاوَلْنا عند عِلْمِها[1] أن تكون فى صورة المركّبات أو قريبةً منها ، وأن تَصِيرَ لنا أصنامًا نتمثّلها ونُوَكِّلُ بها[2] ؛ وهٰذا مِنّا تَعَجْرُفٌ مَرْدُودٌ علينا ، وَخَطأٌ يَلْزَمُنا الاُعتِذارُ منه إلى كلّ مَنْ أَحَسَّ به مِنّا ؛ وينبغى أن نَتوب إلى الله فى كلّ وَقْتٍ مِن وَصْفِه بما لا يَليقُ به ، وَمِنْ طَرْحِ الوَهْمِ على شَىء قد حَجَبَه عن مَعارِفنا ، وَرَفَعَه عن عُقولنا ، وَقَصَرَنا على حُدودنا اللازمةِ لنا ، وَأشكالِنا المشتملةِ علينا ؛ هذا حَديثُ العَقْلِ إذا لُحِظَ فى ذِرْوَتِه .

فأما إذا فُحِص عن آثارِه فى حَضِيضه فإنّه تَمييزٌ وَتَحْصِيلٌ وَتَصَفُّحٌ وَحُكم وتَصْويبٌ وَتَخْطِئة ، وَ إجازةٌ وَ إيجابٌ وإباحة ؛ وَإيّاكَ أيُّها السامعُ أنْ يَكُون مَفْهُومُك من هٰذِه الأسْماء وَالأفْعال وَالحُروف أشياء مُتَمايِزة فتَجْعلَ شيئًا وَاحدًا أشياء ، وَمَن كَثَّرَ الوَاحدَ فهو أَشَدُّ خَطَأً مِمَّن وَحَّدَ الكَثِيرَ ، لأنّ تَكْثيرَ

(١) فى كلتا النسختين: « علمائها » ؛ وهو تحريف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى كلتا النسختين: « وتؤكل » ؛ وهو تحريف.

الواحدِ انحطاطٌ إلى المَرْكز ؛ وتَوْحيدَ الكثيرِ استِعْلاءٌ إلى المُحيط ، بل يجب أن يكون مَحْصُولُكَ منها شيئاً واحداً لم تَصِلْ إليه إلاّ بترادُفِ هٰذه الكلماتِ ، وتَصاحُبِ هٰذه الصِّفات .

وأما أنحاؤه ، فعلى قَدْر ما يقال : فلان عاقل وفلانٌ أعْقَلُ من فُلان ، وفلانٌ فى عَقْلِهِ لُوثَة[١] ، وفلانٌ ليس بعاقل ؛ وأصْحابُ العقل أنصِباؤهم منه مُخْتَلفة بالقِلّة والكَثْرة ، ، والصَّفاء والكَدَر ، والإنارة والظُّلْمة ، واللَّطافة والكَثافة ، والخِفّة والحَصافة ، كما تَجِدُهم مُخْتَلِفين فى الصُّور والألوانِ والخَلْق بالطُّولِ والقِصَر ، والحُسْنِ والقُبْح ، والاعتدالِ والانحراف ، والرّدّ والقبُول ، إلا أنّ هذا القَبيلَ يُدْرَكُ بالحسّ ، ويُشْهدُ بالعِيَان ، ويُعايَنُ بالحضُور ، وذلك القَبيلَ مَحْجُوبٌ عن هٰذا كلِّه ، فلم يجز أن تكون الإحاطة بتَفاوُتِ ما غاب [عنّا] فى وَزْنِ [الإحاطة[٢]] بتفاوُتِ ما حَضَر ، فإنّهما ما تَبايَنا لِيأْتَلِفا ، بل ليَخْتَلِفا ، وهذا التفاوتُ مُعْتَرَفٌ به إذا اعتُبِر من خارج ، وذلك أنك تجدُ أصحاب المال أيضاً يتبايَنون فى مقادير ما يَمْلكون من المال ، ولا يتّفقون على مِقْدارٍ واحدٍ منه عند جَماعتهم ، ولا يَتّفِقُون على نوعٍ واحدٍ أيضاً من أعْيانِ المال ، لأنّ هٰذا يَمْلِكُ الصامت ، وذاك يَمْلِكُ الناطق ، وهذا يُمارِسُ القزّ ، وهذا يُمارِسُ الصُّوف ، وهذا يَنْظُرُ فى الصَّرْف ، وهذا يَبيعُ الحيَوان ، وكلٌّ منهم صاحبُ مالٍ ومُباشِرٌ له ؛ وعلى هذا المثالِ احْتَذَى أهْلُ العقل فى مَطالبهم ، فصار هذا يَمْلِكُ بِعَقْلِهِ غيرَ ما يَمْلِكُ الآخَرُ ، أعْنِي أنّ هٰذا يَنظر فى الهَنْدَسَة ، وهذا فى الطِّبّ ،

(١) فى (ا) : « لومه » ووردت هذه الكلمة فى (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها ، والصواب ما أثبتنا .

(٢) لم ترد هذه التكملة فى كلتا النسختين ، والسياق يقتضيها .

وهٰذا فى النّحو ، وهذا فى الفقه ؛ والعبارةُ تمنعُ من إشباع هٰذا المعنى ، وحَصْرِ هٰذا الفنّ ، فعلى هذا أنحاؤه ، وإنها لكثيرة إن لم تكن بلا نهاية .

وأمّا صَنِيعُه ، فهو الحُكم بقَبُول الشىء وردّه ، وتحسِينه وتقْبيحِه ، إذا كان المعرُوضُ عليه على جهته غيرَ مموَّه ولا مَنْشُوش ، ولا مُشْتَبه فيه ولا ملبُوس ، فإنْ كان مموّهاً اختلفَ حُكْمُه ، لأنّ العَقْل يَرَى الباطِلَ حقًّا فى وَقْت ، ويَرَى الحقّ باطِلًا فى وقت ، مَعَاذ الله مِنْ هــذا ، ذلك لِحِسّ المَنْقُوص ، والذِّهْنِ المَلْبُوس ، لأنّ[1] العارِضَ مَوَّهَ مَعْرُوضَه على العَقل ، فحَكَمَ له بما يَسْتَحِقُّه ، إلّا أن يكون العارضُ لم يَشْعُرْ بذٰلك التَّمْوِيه ، ولم يفْطَن لذٰلك الغشّ ، فحينئذ يهديه العَقل ويُرْشِدُه ، ويَفتَحُ عليه ، ويَنْصَحُ له .

وأما قوله : وهل يُعقَلُ العقلُ ، فإن الأَولى أن يقال : العاقِلُ يَعقِل بالعَقل مَعقُولَه ، ألا تَرَى أنَّهُ يقال : السِّرَاجُ أضاء البَيْتَ ، ويبْعُد أن يقال : أضاء نَفْسَه ، لأنَّهُ مُضِىءٌ بنَفسِه ، فلَيسَ به فَقْرٌ إلى أن يُضِىءَ نَفْسَه ، وإنما أضاء غَيْرَه . . . . . .[2] . ولو عُقِلَ العَقْلُ لعُقِلَ بالعَقْلِ ، وهذا إذا استمرّ كان مَرْدُوداً ، ونحن إذا قلنا : عَقَلَ العاقلُ مَعقُولَه ، فإنما نَصِفُهُ بأنّه انفَعلَ انفعالَ كالٍ ، والعقلُ يَرَى مِن هٰذا الانفعال ألّا يَتَوَخَّى أنَّه يَعقِل الإلٰه الّذى هُوَ به ما هُوَ ، فإنّه يجوز أن يَضِرَّ[3] به انفعالٌ لائقٌ به يكون عبارةً عن شَوْقه[4] إليه ، وكالِه به ، واقتِباسِه منه ، وهذا صِراطٌ حَديد ، والواطئُ عليه على خَطَر شديد ، والوُقُوفُ

---

(١) وردت هنا كلمة : « لكن » . فى الأصول وهى زيادة من الناسخ .

(٢) ورد موضع هذه النقط فى كلتا النسختين : « إلى لأنه أضاءه » ، ولا مقتضى لهذه العبارة هنا كما يظهر لنا . (٣) فى كلتا النسختين : « يضن به » بالنون مكان الراء ؛ ولم نتبين له معنى فى هذا الموضع ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعله « يضل به » باللام .

(٤) فى كلتا النسختين : « سوقه » بالسين وهو تصحيف .

دونه أصْدَعُ بالحُجَّة ، وأوْضَحُ للعُذْر ، لأن الإنسان خَوّارٌ بالطَّبع ، وإن كان جَسُوراً بالنّفس .

وأمّا قوله : وهل تتَنَفّس النّفس ، فإنْ أُرِيدَ بذلك النّفْسُ الناميــةُ والحيوانيّة فهو قريب ، وأمّا الناطقةُ فإنّ ذلك يَبْعُدُ منها [لأن ذلك التنفس أستمدادُ شيء به يكون الشيء حيًّا] أو كالحيّ ؛ والناطقةُ غَنيّةٌ عن ذلك . (١٤)

فإن قيل : فهل تَقْتَبِسُ من العَقْلِ وتَسْتَمِدّ ؟ قيل : هذا لا يُسَمّى تَنَفُّساً ، وليس اللفظ يُبْعِدُه عن الحقيقة تأويلٌ في الوَضْع ؛ ولا وَجْهٌ في الأعمال[١] وإدخالُ العَوِيصِ في المَكان الذى يُحْتاج فيه إلى رَفْع اللَّبْس وزوالِ الإشكال ، مُدَاجاةً في العِلْم [وخِيَانةً للحِكْمَة] وجِنَايةً على المُسْتَنْصِح .

وأمّا مرتبَتُه[٢] عند الإله فقــد وضح بأنه كالشمس تَطلُع فتُحْيِي ، وتضيء فتَنفَع .

فإن قيل : فالعَقْل أيضاً هكذا ، قيل : العقلُ أيضاً شمسٌ أُخرى ، ولـكنها تطلع على النفس التى ليست حاوِيةً لِجدارٍ وَسَطح ، وبَرّ و بحر ، وجَبَل وسَهل ، لأنه لمـا كان العقلُ أشرَقَ من النَّفس — لأنه مُسْتَخْلِفٌ للنفس ، والنفسُ خَليفَتُه — كان إشراقُه ألطَف ، ومنافِعُهُ في إشْرَاقِهِ أشْرَف ، وأيضاً فإنّ الشمس نَجِدُها بالحِسّ لها غُرُوبٌ وطُلُوع ، وتَجَلٍّ وكُسُوفٌ ، وليس كذلك العقل ، لأن إشْرَاقَه دائم ، ونُورَهُ مُنْتَشِر ، وطلوعَه سَرْمَد ، وكُسوفَه مَعْدُوم ، وتجلّيَه غيرُ متوقِّف[٣] .

---

(١) فى (ب) : « الاحتمال » .

(٢) مرتبته ، يعنى العقل .

(٣) فى كلتا النسختين : « متوقع » بالعين ؛ وهو تحريف .

فإن قيل : نرى العقلَ يَعْزُبُ عن الإنسان فى وقتٍ [ويَئُوبُ إليه فى وَقت] . فالجواب أن الوَصْف الذى كنا نَنْعَت[(١)] به ونَصْدَع بِبَيانِه لم يَكُنْ لِعقْلِ زيد وعَمْرو، وبَكْرٍ وخالد ، لأن ذلك يُنْعَتُ بالطُّلوع والغُرُوب ، وبالحضور والغُيُوب ، لأنه هاهُنا مضافٌ ومُنْحازٌ[(٢)] ، أو كالمُنْحَاز ، وليس كذلك هو ، فإنّه هُناكَ على بَهْجَتِه التامّة ، وسُلطانِهِ القاهر ، وملكوته الأفْيَح ، و بسيطه الفائق[(٣)] ، وفَضَائه العريض .

وأمّا قوله : وهل يَنْفَعِل ، فقد مَرَّ الكلامُ عليه فى طَىِّ ما مَرّ ، وليس للتّكرار وَجْه ، ولا فى التّطويل عُذْر .

وأما قولُه : فقِسْطُ الفِعْلِ أكْثَرُ ، أم قِسْطُ الانفعال ، فإنّ هذا يُلْحَظُ من وجْهَيْن ، إذا لُحِظَ قَبُولُه من فَيْضِ الإله فقِسْطُ الانفعالِ أظْهَر ، وإذا لُحِظَ فَيْضُه على النّفس فقِسْط الفِعْل فيه أكْثَر ، لأنّه بجُوده على غَيْرِهِ يُشَارِكُهُ مَن جادَ عليه بجُودِه ، وهذا لطيفٌ جِدًّا .

(١٥) وأمّا قوله . وما المَعاد ، فما أسْهَلَ مُطالَبَةَ السّائلِ بهذا الأمرِ الصّعْبِ الهائل الذى كلُّ أمرٍ متعلِّقٌ به ، وكلُّ رجاء حائمٌ حوْلَه ، وكلُّ طَمَعٍ مُتوَجِّهٌ إليه ، وكلُّ شىء مَقصورٌ عليه ، وكلُّ إنسانٍ به يَهِيم ، وكلُّ مُصَرِّحٍ عنه يُصَرِّح ، وكلُّ كانٍ عنه يَكْنِى ، وكلُّ مترنِّم به يَحْدُو ، وكلُّ لَحْنٍ إليه يُشِير ، وكلُّ سامعٍ إليه يَطْرَب ، ونَرْجِع فنقول — على العِىِّ والبَيان ، وعلى الزَّحْفِ والعَدَوان : — إنّ عَوْد النَّفْس إنما هو تَخْلِيَتُها للبدن إذا حانَ وَقْتُ التّخْلية ، إما لأن البَدَنَ

(١) فى (ا) : « تقنع » ؛ وفى (ب) : « نتسم » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين.
(٢) فى كلتا النسختين : « ومختار أو كالمختار » ؛ وهو تحريف فى كلا الموضوعين .
(٣) فى (ا) : الغائب بالغين والباء ؛ وفى (ب) : « الفائت » بالفاء والتاء ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

غيرُ مُحتَمِلٍ لمادّةِ الحياة ، وإمّا لأنّ النفسَ قد أزْمَعَتْ أمرًا آخَرَ ، ولا يَتِمّ لها ذلك إلاّ بتخْلِيةِ هذا ؛ وإمّا لهما.

فإنْ قال قائل : فما نَصيبُ الإنسان مِنْ عَوْدِ النَّفْس الذى هُوَ تخْلِيَتُها للبَدَن وخُروجها عنه ، وتَرْكُ استعمالِها له. فالجوابُ مِنْ طَريقِ التَّمثِيل ، والرِّضَا بالرَّأْى الأصْوَب ، والحُكْمِ الأجْلَى أنْ يقال : لو قيل لرَجُلٍ مِنْ عُرْضِ النَّاس وافرٍ أو ناقِص : إنَّك إذا فارقتَ هذا العالَمَ بَقِيَتْ عَيْنُك الباصرة ، وأُذُنُك السامعة ، هل تَرَى ذلك نِعْمَةً عليك ، وإحسَانًا إليك ، فإنّ عَيْنَك إذا بَقِيَتْ أبصَرَت العالَمَ بَعْدَكَ كما كنتَ تُبصِرُه وهى مَعَك ، بل تُبْصِرُ أحْسَنَ مِن ذاكَ الإبصارِ ، لأنّها كانتْ مَعَكَ تَرمَدُ بِسَببك ، وتَعشَى من أجْلِك ، وربّما عَرَضَ لها سُوءٌ بسُوء تدْبيرِك ، أوْ باتفاق ردىء عليك ، مِن عَشًى أوْ عمًى وخَفَش وعَمَش وعَوَرٍ وآفاتٍ[1] كثيرة ، وهىَ آمِنةٌ بَعْدَكَ مِنْ هذه الأعْراضِ المَكرُوهة ، والأحْوال الداهِيَة[2] ، فإنا نَعلَمَ حقًّا وعِيانًا أنه يقول : قَدْ رَضِيتُ بل أتَمَنَّى هذا ، ومَنْ لِى بِه ، أىْ إنْ أُعطِيتُ هذا فمَنْ مِنِّى[3] أسْمَعُ وأبْصَرُ ، وإذا كنتُ أكره الدنيا فى حياتى إذا فقَدْتُهما فكيف لا أُحِبُّ الدُّنيا إذا وَجَدْتُهُمَا ، فإنْ كانَ هذا التمْثيلُ واقِعًا ، وهذا التقريب نافِعًا ، والحقّ فى تضاعِيفه واضِحًا ، فليَكُنْ ذلك مُطَّرِدًا فى بقاء نَفْسِ الإنسانِ التى بها كان إنسانًا ، وبها كان يَنْعَمُ فى هذا العالَمِ ، وبها كان يَعْلَمَ ويَعرِف ويَحْكُمُ ويُصِيب ، ويَجِدُ لَذَّةَ اللَّذِيذِ من ناحِيةِ العَقْل والحِسّ ، وبها كان يَتَمَنَّى البقاء والدَّوامَ والخُلود ،

(١) كذا فى (ب) والذى فى (١) : «وذنوب» ؛ وهو تبديل من الناسخ . ولم يرد قوله : «كثيرة» فى (ب) . (٢) فى كلتا النسختين : «الناهبة» ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى كلتا النسختين : «مثلى» بالثاء واللام ، وهو تحريف صوابه ما أثبتناه كما يقتضيه السياق ، وأسمع وأبصر : وصفان للتفضيل .

وإنّما استحال ذلك التّمنّي من أجلِ كَوْنِهِ بِفَسادِهِ الّذَيْنِ لم يَكُنْ بُدٌّ مِن انتهائهما إلى الفَناء الّذي هُوَ مُفارَقَةُ النَّفْسِ الجَسَدَ وتَخْلِيَتُها البَدَنَ ، ونِسْبَةُ نَفْسِ الإنسانِ إلى الإنسانِ أوْكَد وألصَقُ مِنْ نِسْبَةِ العَيْنِ إليه ، ألا تَرَى أنّه بالنّفس إنسانٌ ، وبالبَدَن حافِظٌ لشَكْلِ [الإنسان] ؛ فإذا كانَ للإنسانِ في هذا التمثيل فائدةٌ متمنّاة ، وحالةٌ مَحْبوبَةٌ هنيئة ، أعني في بقاء العَيْن والأُذُنِ حتى يُبْصِرَ بإحْداهما هذا العالمَ المَحْشُوّ بالآفات ، ويَسْمَعَ بالأُخْرَى ما يَجْرِي فيه مِنْ ضُرُوبِ الاستحالات ، فبالحَرِيّ أن يكون رِضاهُ ببَقاء النَّفْس في مَحلّ الرَّوْح والأَمْنِ ، ومَقامِ الكَرامَةِ والسَّكِينة عَلَى حالِ الخُلودِ والطُّمأْنِينَة . إنّ هذا لَعَجِيب ؛ وأَعْجَبُ مِنْ هذا العَجِيب عَقْلٌ لا يَعْلَقُ به ، ورُوحٌ لا يَهَشُّ لِسَماعِه ، ونفسٌ لا تَجِدُ حَلاوَتَه ، وصَدْرٌ لا يتصدّع طَرَباً عليه ، والتياحاً[1] إليه ، فإنّ مَنْ لم يشعُرْ بهذِه الفائدة ، ولم يَحمَدِ اللهَ على هذه النِّعْمة ، لعازِبُ الرَّأي ، ضعيفُ العَقْل ، خَفيفُ المِثْقال ، رَدِيءُ الاختيار ، قليلُ الحَصافة ، سَيِّئُ النَّظَر ؛ حَيَوانٌ خَسِيس ، في مَسْكِ إنْسان رئيس ؛ فقد بانَ — على مَذْهَبِ التقريب — ما المَعادُ المُشارُ إليه ، وما الإنسان منه ، وما لنَفْسِه به .

(١٦) وأمّا قولُه : وما الفَرْقُ بَيْنَ الأَنفُس ، أي نفسِ زيدٍ وعَمْروٍ وبكرٍ وخالد ، وما الفَرْقُ أيضاً بين أَنْفُسِ أصْناف الحَيَوان ، فإنّما الفَرْقُ بَيْنَ هذه الأَنْفُسِ بقَدْرِ قِسْطِ كلٍّ واحدٍ منهم منها ، وهذه الأَقْساطُ إذا اجتمَعَتْ تفاوَتَتْ ، وإذا تَفاوتَتْ كانت منها نفسٌ باقيةٌ حَيّةٌ ، ونَفْسٌ فانِيَةٌ مَيّتةٌ ، ألا ترى الشمسَ كيف تَطْلُعُ على هذه المواضع المختلِفَة بالعُلْو والسُّفْل ، وبالتّعْريج والاستقامة ، والأشكالِ الكثيرة ، فيقولُ كلُّ إنسان : مَشْرِقَتي أطْيَبُ مِن مَشْرِقَةِ فُلان ،

(١) الالتياح : الشوق . وفي الأصول : « وارتياحا » . وهو تحريف .

وما أشبهَ هذا الكلام ، وطلوعُ الشمس على جميعِها طُلوعٌ واحد ، ولكنّ حُظوظَ البِقاعِ منها مُختلِفَة ؛ فليس بِمُنكَر [أن تكون] نفسُ زيدٍ أنجَى منَ الكَدَرِ ، وأخلَصَ من الآفة ، وأوصَلَ إلى السعادة ؛ ونفسُ بكرٍ على خِلاف ذلك ، ومَرَاتِبُ هذِهِ الأنفُس موقوفةَ على الإضافاتِ الحاصِلةِ لها بأصحابها ، والأنصِباء المَذخُورة لها باكتِسابِها .

فأمّا أنفُسُ أصناف الحيوانِ كالفَرَسِ والحِمار فإنّها أنفسٌ ناقِصةٌ غيرُ كامِلة ، وهي ضعيفة ، لأنّها لم تجِدْ إلّا الإحساسَ والحركات ، لم يَشِعّ فيها نُورُ النّفس الشريفة ، ولم ينبَثّ فيها شُعاعُ العَقْل الكَريم ؛ فوَجَبَ من هذا الوَجْهِ أن تكون تابِعةً لأبدانها ، جارِيةً على فَسادِها وبُطْلانِها ، لأنّ الحِكمَةَ انتهَتْ إلى ذلك الحدِّ في كَونِها حَشْوًا لهذا العالمَ وَزِينَةً وَمَنافِعَ وَمبالِغَ إلى غاياتٍ وأغراض .

(١٧) وأمّا قولُه : وهل المَلَكُ حيَوان ، فقد عَلِمْتَ أنّه يقال له حَيّ ، وهذا وَقفٌ على الأسماء الجارِية ، والعادَات القائمة ، وكأنّ الحيَوانَ إنما شاعَ في غيرِ المَلَك لما فيه من الحِسِّ وَالحرَكةِ وَالاغتِذاءِ وَالتّصرّف على ما لاقَ بجِنْسِهِ وَنوْعِه وشَخْصِه ؛ [فأما ما يَعْلُو وَيُنزّهُ عن الصفات فلم يُطْلَق عليه حيوانٌ ، ولكن يقال]: حيٌّ لأنّه أقرَبُ الأسماء إلى المَدْنَى المُشار إليه ، وبهذا التّقريب قِيل أيضًا لله: إنّه حيٌّ ، وأنتَ إذا حَدّدْتَ الحيَّ أو الحياةَ لَمْ تَقْدِرْ على أن تَصِفَ اللهَ [جلّ وَعلا] بِشَيء مِنْ ذلك.. وفي الجملة كلُّ ما كان أدخَلَ في البَساطَةِ كان أخرَجَ من التّركيب ، وكلُّ ما كان أخرَجَ مِنَ البَساطَة كان أدخَلَ في التّركيب .

فأمّا المركَّبُ الّذي ليس له من البسيط إلا النّصيبُ النّزْر ، وإلّا طَيْفُ الخيال ، فاسمه واضح والإشارة إليه سَهْلة ، والبيانُ له مُدْرِك ، لأنه مُحاطٌ

بحُدُودِه فى طُولِه وعَرْضِه وعُمْقِه .

وأما المُرَكَّبُ البَسيطُ الّذى ليس له من التركيب إلّا النَّصيبُ اليَسير ، فَاسْمُهُ غامض ، والإشارة إليه عَسِرة ، والبيانُ عنه مَكفُوف ؛ وهذا بابٌ إذا حُفِظَ فُهِمَ منه شَىْءٌ كثيرٌ مما يَقَع فيه الغَلَطُ مِنَ الإنسان بفِكْرِه الرَّدِىء ؛ ويَنفَع أيضاً نَفعًا بَيِّنًا فى التَّغالُطِ العارِض بين المُتَناظِرين على جِهَةِ التَّنافُسِ والتَّناصُفِ

قال أبو سليمان : مَن حَرَسَ هذا الثَّغْرَ أمِنَ مِنْ جميعِ الأعْداء ، ومَنْ أهْمَلَه كانت جِنايَتُه على نَفسِه بِيَدِه أعْظَمَ مِنْ جِنايةِ عَدُوِّه الثائِرِ من ثَغْرِه .

وَأمَّا قولُه : على أىِّ وَجْهٍ يقال لِلّهِ حىٌّ وَلِلمَلَكِ حىٌّ والفَرَسِ حىٌّ ، فقد دخل الجوابُ عنه فى ضِمنِ ما تَشَقَّقَ القَوْلُ به ، وتَحَقَّقَ المَعْنَى عليه فى حديثِ المركَّبِ والبَسيط ؛ ونَزِيدُ ها هُنا حرْفًا يكونُ رَدِيفًا لما تقَدَّمَ ، فنقول : أمَّا الإنسان فإنَّه يقال له : حىٌّ بسبَبِ الحِسِّ والحركة وما يتبَعُهُما ممَّا هو كمالُ الحىِّ ، وكذلك الفرَسُ وما أشْبَهَه . وأمَّا المَلَكُ فلمّا كان ما يَستَحِقّه بِبَساطته مَعْدُومًا عندنا ، لم نَقدِرْ على شىء نَصِفُه به إلّا ما نَصِفُ به أنفُسَنا بَيْنَنا ، ولو كُنَّا فى عالَمِ المَلَكِ مِثلنا كُنَّا نَدرى بأىِّ شىء يَنبَغى أن يُنعَتَ وَيُسَمَّى وَيُذْكَرَ وَيُحْكَى ، فإنَّ مَن كانَ مِنَّا فى بِلادِ الصِّين فإنّه يُسمِّى الإنسانَ وَالفَرَسَ وَالحِمارَ والبَقَرَ بما يتَعالَمُ أهْلُها بينهم ، وإذا كان هذا مُعْوِزًا على ما تَرَى فى المَلَكِ ، أعْنى تَسْمِيَتَه الحىّ ، وَنَعْتَه بالحياة ، فاللهُ الذى لا سبيلَ للعقلِ أنْ يُدْرِكَهُ أو يُحيطَ بِه أو يَجِدَه وِجْدَانًا أوْلَى وَأحْرَى أن يُمْسَكَ عنه عَجْزًا وَاستِخْذَاء ، وَتَضاؤُلًا وَاستِعْفَاء ، إلا بما وَقَعَ الإذْنُ به مِن جِهَةِ صاحِبِ الدِّين الّذى هو مالِكُ أزِمَّة العقول وَمُرْشِدُها إلى السَّعادات ، وواقِفُها عِنْدَ الحُدُود ، وَزَاجِرُها

عَنِ التَّخَطِّى إلى ما لا يَجُوزُ . فعلى هـذا قَدْ وَضَحَ أَنَّ الصَّمْتَ فى هـذا المكانِ أَعْوَدُ على صاحِبِه من النُّطْقِ ، لأنَّ الصَّمْتَ عن المَجْهُولِ أَنفعُ من الجَهْلِ بالمَعْلوم ، والتظاهُرَ بالعَجْزِ فى مَوْضِعِه كالاستطالة بالقُدْرَة فى مَوْضِعِها ، وليس لِلْخَلْقِ من هذا الوَاحِدِ الأحَدِ إلا الإنِّيَة والهُوِيَّةُ ، فأما كَيْفَ ولِمَ وما هُو فإنها طائرةٌ فى الرِّياح كما تَسْمَعُ وتَرَى .

ولما حَرَّرْتُ هذه الجُمْلَةَ وحَمَلْتُهَا إلى الوَزِير وقرأتُها عليه قال لى : هذا واللهِ جُهْدُ المُقِلّ ، وفى غَلِيلِي بَقِيَّةٌ من اللَّهَب .

قلتُ : أيُّها الوَزِير ، قال أبو سليمان : سنقول لك كلاماً لا يكون فيه كلُّ الرِّضا ، فقُلْ له عِنْد ذلك : إنَّكَ سَأَلْتَ عن العالَمِ بأسْرِه ، فلا طاقَةَ لِأحَدٍ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيْكَ العالَمَ بأسْرِهِ ، ولولا عَجَلَةُ رَسُولِكَ فى المُطالَبَة ، وإدْلالُه بالإلحاح ، وقوله : المُرادُ التَّقريبُ والإيجاز ، لا التَّطْويلُ والإسْهاب ، لكان النَّسْجُ على غَيْرِ هذا المِنْوال ، والعمَلُ على غير هذا الوَشْى . قال : ومن المَعالِم التى ليس لها ناظر ، ولا بها خابِر ، أنّ السائل يحضُّ على التَّلخيص المَفْهُوم ، ولعلّ ذلك يَزِيد الشىء إغْلاقاً ، فإذا امْتُثِل ما يَرْسُمُ قال : ما شَفَانِى القَوْلُ ؛ وإنْ زِيدَ على ذلك قال : غَرِقَ المُرادُ فى حَوَاشِى التَّكْثير ؛ فليس للعالِم تَخَلُّصٌ من استزادة المتعلِّم ، ولا عند المتعلِّم شُكرٌ على مَبْذولِ جُهْدِ العالِم ، وهذا أمْرٌ قد تَقَدَّمَتْ الاستغاثة منه على مَرِّ الدُّهُور ، والأَوْلَى فيما لا حيلة فيه الرِّضا بالمَيْسُور منه .

ثم قال : وإن أطال اللهُ أيامَ هذه الدَّوْلة ، وحَرَسَ على هذه الجماعَةِ القَلِيلَةِ النِّعْمة ، استأنفنا نَظَرًا أَبْلَغَ مِنْ هـذا النَّظَر ، ببيَانٍ أَشْفَى مِن هـذا البَيَان ، وطريق أوْضَحَ من هذا الطريق — إن شاء الله .

قال الوزير : والله ما قلتُ قَوْلِي ذاك ، لأنَّ هذا الكلامَ سَهلٌ ، وهذا المُتَنَاوَلَ قريب ، وهذا المرمى كَثَب ، كلاّ ، وإنِّي لأظُنُّ بل أَحُقُّ أنه ليس في بضائع أصحابِنا الذين حَوْلِي مَنْ يُدْرِكُ هٰذِهِ المعانِيَ على هذِهِ الصِّفَة إذا قُرِئَتْ عليه ، فكيف مَنْ[1] يُفزِعُ[2] في شَرْحِها وتَهْذِيبِها إليه .

ثم تَمَطَّى وقال : وأُنْعَاسَاه ، واضَعْفَ مُنَّتَاه ؛ ثم فارَقتُ المجلس .

الليلة السادسة والثلاثون

(١) وقال — دامت أيّامه — كيف تَقُولُ عِنْد مُهَلِّ الشَّهْرِ شَيئاً آخَرَ مِن لَفظِهِ ؟ فكان من الجواب : حَكَى العالِم : عند هُلولِ[3] الشَّهر ومُسْتَهَلِّه [وَهِلِّهِ] وإهْلَالِهِ واسْتِهلَالِهِ .

(٢) قال : ورأيتُ الحاتميَّ يقول : عَشْرُ كلماتٍ جاءتْ وعَيْنُها عيْنٌ ولَامُها وَاوٌ ، ولم أُوثِرْ شَرْحَه لما لِثِقَل رُوحِه ، ومُغَالاتِه بنَفسه ، وكأنّه لا عِلْمَ إلّا عِندَه ، ولا فائدةَ إلّا هيَ مَعه ، فهَلْ في حِفظِكَ هٰذه الكلمات ؟

قلت : لا إلٰه إلّا الله ، اليومَ ذكَرَ الأندلسيّ هذه الكلماتِ وعَدَّها ، وقد حَفِظْتُهَا ، فقال : هاتِ يا مُبارَك ؛ فكان الجواب : منها البَعْو ، وهو الجِناية ، والجَعْو ، وهو الطِّين ، والدَّعْوُ ، مَصْدَرُ دَعَا دَعْوًا ، والسَّعْوُ : الشَّمَع ، والشَّعْوُ : هو انتفاش الشَّعر ، والصَّعْو : الرَّجل الضعيف ، وهو أيضاً طائرٌ أصغرُ مِنَ العُصْفُور ، والقَعْوُ : مِنَ البَكْرَة ، واللَّعْو : الحَرِيص . والذِّئْبُ في بَعْضِ

(١) الظاهر أن « من » زائدة . (٢) وردت هذه الكلمة في (١) مهملة الحروف من النقط ، ووردت في (ب) هكذا « تقرع » .

(٣) لم نجد الهلول فيما راجعناه من كتب اللغة ، ولعل صوابه « هلال » أو لعله من الألفاظ التي انفرد المؤلف بروايتها عن مشايخه .

الُّلثاتِ ، والَمْو(١) : الجَنِيُّ من الرُّطَب ، والنَّغْو : الشَّقّ فى مِشْفَرِ البَعِير .

قال : هذا حَسَن ، لو أتَى به الحاتِمىُّ لَآوَى شِدْقَه ، وقال : تَنَحَّ فقد جاء الأسَد وغَلَبَ الطُّوفانُ وخَرَجَ الدَّجّال وطَلَعَت الشمسُ مِن المَغْرِب ، ما بالُ أصحابِنا تعتَريهِمْ هٰذِه الخُيَلَاء ، ويَغْلِبُ عليهم النّقْص ، ويَسْتَمْكِنُ منهم الشَّيْطَان .

قلت : قال أبو سُلَيْمان : كلّ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ حِفْظُ اللَّفْظِ وَتَصْرِيفُه وأمْثِلَتُه وأشْكالُهُ بَعُدَ من مَعَانى اللّفظ ؛ والمعانى صَوْغُ العَقْل ، واللّفظُ صَوْغ اللِّسَان ، ومن بَعُدَ من المَعانِى قَلَّ نَصِيبُه من العَقْل ، ومَن قَلَّ نَصيبُهُ من العَقْل كَثُرَ نصِيبُهُ من الحُمْق ، ومن كَثُرَ نصيبُهُ من الحُمْق خَفِىَ عليه قُبْحُ الذِّكْر .

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلةً : ما أحوجَ الجَبَانَ إلى أنْ يَسْمَع أحاديثَ الشُّجْعان ! (١)
وما أشَدَّ انتِفاعَ الضَّيِّق النَّفْسِ باستماعِ أخبَار الكِرام ، لأنَّ الأخلاق فى الخَلْقِ أعْرَاض ، والأعراضُ منها لازِمٌ ومِنها لا صِق .

قال : وكان(٢) عيسى بن زُرْعَةَ سرَدَ عَلَيَّ سنَةَ سَبْعين ، ليالِيَ كانَت الأشغال خفيفة ، والسِّياسة بالماضِى — نَوَّرَ اللهُ قبرَه وضَرِيحَه — عامّة ، والنَّظَرُ بالحُسْنَى شاملًا — أشْيَاء فى الخُلُق أتَى بها على عَمُودِ ما كان فى نَفْسى ، وذلك

(١) فى كلتا النسختين « واللمو » باللام ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتب اللغة .

(٢) فى (ا) « ولو كان » ؛ وقوله « لو » زيادة من الناسخ .

أنه ذَكَرَ العقلَ والحُمْقَ ، والعِلْمَ والجهلَ ، والحِلْمَ والسُّخْفَ ، والقناعةَ والشَّرَه ، والحياء والقِحَة ، والرَّحْمَةَ والقَسْوَة ، والأمانةَ والخيانة ، والتَّيَقّظَ والغفلة ، والتُّقَى والفُجُور ، والجُرْأَةَ والجُبْن ، والتواضُعَ والكِبْرَ ، والوَفاء والغَدْر ، والنصيحةَ والغِشّ ، والصِّدْقَ والكَذِب ، والسَّخاء والبُخْل ، والأَناةَ والبَطْش ، والعَدْلَ والجَوْر ، والنَّشاطَ والكَسل ، والنُّسكَ والفَتْك ، والحِقْدَ والصَّفح ، ويَنبغى أن تَزُورَ عيسى وتَذْكُرَ له هذه الجُمْلَة ، وتَبعثَه على إعادةِ حُدُودِها ، وإشباعِ القَوْل فيها ، مع إيجازٍ لا يكون به مَدْخَلٌ لِلخَلَلِ ، ولا تقصيرٌ عن إيصالِ الآخِرِ بالأَوَّلِ .

فلقيتُ عيسَى وعرَّفتهُ الحديث ، وأمْلَى ما رَسَمْتُه فى هذا الجُزْء ، وعرَضْتُه على أبى سُلَيمانَ ، فرَضِيَه بَعْضَ الرِّضا ، ولم يَسْخَطْ كلَّ السُّخْط ، وقال : تحديدُ الأخلاق لا يَصِحُّ إلاّ بضَرْبٍ من التجوُّز والتسمُّح ، وذلك أنَّها مُتَلابِسَةٌ تَلابُساً ، ومُتَداخِلَةٌ تَداخُلا ، والشىء لا يَتَمَيَّزُ عن غَيْرِهِ إلّا بِبَيْنُونَةٍ واقِعَةٍ تَظْهَرُ للحِسّ اللَّطيف ، أو تَتَّضِحُ لِلعَقْلِ الشَّريف .

ثم قال : [ألا ترى] أنَّ الفِكْرَ مَشُوبٌ بالرَّوِيَّة ، والظَّنَّ مَخْلُوطٌ بالوَهْمِ ، والذِّكْرَ مَعْنِيٌّ بالتَّخَيُّل ، والبديهةَ جانِحةٌ إلى الحِسّ ، والاستنباطَ مَوْصوفٌ بالغَوْصِ ، وما[١] هٰذا المعنَى الذى مَيَّزَ التَّواضُعَ من شَوْبِ الضَّعَة ، أو خَلَّصَ عُلُوَّ الهِمَّة من شَوْبِ الكِبْر ، أو فَرَزَ[٢] عِزَّةَ النَّفْسِ من نَقْصِ العُجْب ، أو أبانَ الحِلْمَ عن بَعْضِ الضَّعْفِ ؟ ! هٰذا بالقَوْل ربّما سَهُلَ وانقادَ ، ولكِنْ بالعقلِ رُبَّما عزَّ واعتاصَ ، والأخلاق والخِلَقُ مُختلِطَة ، فمنها ما اختلاطُه قَوِيٌّ

(١) فى كلتا النسختين : « ومن هذا » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين : « أو قرن » ؛ وهو تحريف .

شديد ، ومنها ما اختلاطه ضعيفٌ مَهِلٌ ، ومنها ما [اختلاطه] نَصَفٌ بين اللِّين والشِّدَّة ، وهذه يَنفَعُ العلاجُ فى بَعضِها ، ويَنبُو العِلاجُ عن بعضِها ؛ والحزمُ يَقضِى بألاّ يُتَهاوَنَ بما يَقبَلُ العِلاجَ لِأجلِ ما لا يقبلُ العِلاجَ .

قال : وهذا أيضاً يختلفُ بحسَبِ المِزاجِ والمِزاجِ ، والإنسانِ والإنسان ، ألا تَرَى أنَّكَ لو رُمْتَ تَحويل البخيلِ مِنَ العَربِ إلى الجُودِ كانَ أسهَلَ عليكَ من تحويل البخيل من الرُّوم إلى الجودِ ، والطَّمَع فى جَبانِ التُّركِ أنْ يَتحوَّلَ شُجاعاً أقوَى من الطَّمع فى جَبانِ الكُرْدِ أنْ يَصِيرَ بَطَلاً .

قال : ومع هذا فوَصْفُ الأخلاقِ بالحدُودِ — وإنْ كان على ما قدَّمْناه — نافِعٌ جدًّا ، وإضْمَارُها فى النَّفْسِ مُثْمِرٌ أبداً ، فهذا هذا .

وأما ما قالَ أبو عَلِيّ فإنَّهُ هٰذا . (٢)

قيل : ما الحلم ؟ قال ضَبْطُ الفِكْرِ بِكَفِّ الغَضَب .

وقال شيخُنا أبو سَعِيد السِّيرافِيّ : اعتباره من ناحية الاسم تفطِيلٌ لِطَبْعِه[١] وذلك أنَّ الحِلْمَ شَرِيكُ التَّحَلّمِ ، « فكان الحليم [الّذى] يُعَدُّ فيمن يَحْلُمُ[٢] » فى عُرْضِ الحليم الّذى لا يُعاجُ عليه ولا يُكْتَرَثُ له . قال : والتَّحَلُّمُ نافِعٌ أيضاً ، وهو أحْمَدُ من التَّحالُم ، لأنَّ الثانى أقرَبُ إلى التَّأَنِّى ، كما أنَّ الأوّل أقرَبُ إلى الحقيقة .

وقيل لعيسى : ما العَدْلُ ؟ فقال : القِسْطُ القائمُ على التَّساوى . (٣)

وحَكَى جالينُوس قال : إن الناسَ لشِدَّةِ حُبِّهِمْ لأنفسهم يظنُّون أنَّ لهم ما يُحِبّون ، فمن أجل ذلك وقعوا فى العُجْب ؛ فيَنْبَغِى أن تكونَ مَحَبَّتُكَ لنفسك

---

(١) فى الأصل « لطيفة » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين مضطربة اللفظ لا يفهم المراد منها ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ، كما ورد فى (ب) « هو » قبل كلمة « الذى » .

حَقِيقِيّة ، ويتمُّ ذلك لك إذا أنتَ صيَّرْتَ نَفْسَكَ على الحالِ التي يَرَى من يَرَى أنّكَ عليها .

[وقال : المُعْجَبُ] يُحِبُّ نفسَه أكثَرَ ممَّا يَحِقُّ لها ؛ وما أحْسَنَ بالإنسان أن يُحِبَّ نَفْسَه ، ولكن بالعَدْل ، فإن أرادَ أن يحبَّها جِدًّا فيَجِبُ أن يَجْعَلَها مِن أهْلِ المَحَبّة ، ثم يُحِبُّها مِنْ بَعْد .

(٤) قيل : فما الحَسَد ؟ قال : شِدّةُ الأَسَى على شيء يكونُ لغَيْرِه .

(٥) قيل : فما الكآبة ؟ قال : إفراطُ الحُزْنِ .

قال أبوسليمان : الحُزْنُ والغَمُّ وَالهَمُّ وَالأَسَى وَالجزعُ وَالخوَر مِنْ شجرَةٍ واحدة وَمَن تَعاطَى وَصْفَ أغْصانِ شَجَرةٍ طالَ عليه ، وَلم يَحْظَ بطائل ، وَيكفِي أن نَعرِف شجرَةَ التُّفّاحِ من شجرةِ المُشْمُش ، وشجرةَ الكُمَّثْرَى مِنْ شجرَةِ السَّفَرْجَل ؛ فإنّ عَواقِبَ المعارِفِ نَكِرات ، كما أنّ فواتِحَ المعارِفِ جَهالات .

(٦) قيل : فما الشَّجاعة ؟ قال : الإقْدامُ فى مَوْضع الفُرْصَةِ مِنْ جميع الأُمُور .

قال أبو سليمان : الشجاعة إذا كانت نُطْقِيّةً[1] كانت فُرْصتُها تعاطِيَ الحِكْمَة وَالدءوبَ فى بُلوغِ الغايَة ، وبَذْلَ القُوَّة فى نَيْلِ البغيَة ؛ وَإذا كانت غَضَبِيّةً كانتْ فُرْصَتُها اشفاء الغَيْظِ إمّا من مُسْتَحِقٍّ ، و إما من غير مُسْتَحِقٍّ ، و إذا كانت شَهَوِيّةً كانت فُرْصَتُها التَّحَلِّيَ بالعِفّة التامّة ، أعنى فى الخَلْوَة والحَفْل .

قال لنا أبو الحسن عليُّ بنُ عِيسَى الرُّمّانيُّ الشيخُ الصالحُ : العِفّةُ واسِطَةٌ بين المُقارَفَة والعِصْمَة ، والعِصْمَة واسطةٌ بين البَشَرِيّة والمَلَكِيّة .

وحَكَى عيسى بنُ زُرْعةَ فى هٰذا الموضع — عند تَدافع الحديث — أن مُورِيسَ قال : إنّى لأَعْجَبُ مِن ناسٍ يقولون : كان يَنْبَغِى أن يكونَ الناسُ

(١) نطقية ، ى فكر .

على رَأْيٍ واحد ، ومنهاج واحد ، وهذا ما لا يَسْتَقيم ولا يَقَعُ به نظام .

قال : وهَبْ أن يكون الناسُ وكلٌّ واحدٍ منهم مَلِكاً يأمُرُ ويَنْهَى ويُسْتَمَع له ويُطاع ، فمَن كان المَأمورَ المؤتمر ، والمَنهِيَّ المُنتهِي؛ والعاقلُ الحَصيفُ يَعْلَمُ أنه لا بدَّ من التفاوت الّذى به يكون التَّصالحُ ، كالعالِمِ والمُتعلِّم ، والآمِرِ والمأمور والصانِعِ والمصنوعِ له .

ثم قال عيسى : مِن توابِعِ الأخلاقِ المَذْمُومَة الغَضَبُ والكَذِبُ والجَهْلُ والجَوْرُ والدَّناءةُ .

قال أبو سليمان : أمَّا الغَضَب فلا يكون مَذْمُومًا إلاَّ إذا أُعْمِل فى غير أوانه ، وعلى غيرِ ما يَأذَنُ النامُوسُ الحَقُّ به ؛ وأمَّا الكَذِبُ ففيه أيضاً مَصالحُ ، كما أنَّ الصِّدْقَ ربَّما أفضَى إلى كثير من المَفاسِد — وإن كانَ الصِّدْقُ قد فازَ بالوَصْفِ الأحْسَن ، والكَذِبُ قد وُصِف بالنعت الأقبَح — فكَمْ كَذِبٍ نجَّى مِنْ شرٍّ ، وكَمْ صِدْقٍ أوْقَعَ فى هُوَّة ، وبقِيَ الآنَ أنْ نَعرفَ الصِّدْقَ مع أوانِه ومَكانِه ، فيُؤْتَى به أو يُنْهَى عنه ، وكذلك الكَذِبُ على حَذْوِهِ ومِثالِه .

قال : وأمَّا الجَهْلُ والجَوْرُ والدَّناءةُ فإنَّها أثافِيُّ الرَّذائل ، فينبغى أن يُنْتَفَى منها جُمْلةً وتَفْصِيلاً ، ولا يَسْلُكُ أحَدٌ إلى شىء منها [سبيلا] فإنها أعْدام ؛ — هكذا قال — ؛ والعَدَم كَرِيهٌ ومَهْرُوبٌ منه ، والوجودُ على أنقَص النُّعوتِ أتَمُّ وأشْرَفُ مِنَ العَدَم على أزْيَد الصِّفات ، وإن كان لا زِيادة فى العَدَمِ إلاَّ من طَريقِ الوَهْم العارِضِ ما يَصِحُّ وما لا يَصِحُّ .

قيل : فما العُجْب ؟ قال وَزْن النفسِ بأكثر من مِثْقالها . (٧)

وقال أيضاً : العُجْبُ هو النَّظَر فى النَّفْس بعَيْن تَرَى القَبيحَ جَميلاً .

ويقال: المُعجَبُ يدَّعي أنَّ ما يَنْبَغي أنْ يُعجَبَ منه قد حَصل لَه مِنْ غَير أنْ يَكُونَ كَذلك؛ فأمّا إذا كان ذلك حاصِلاً فالعُجْبُ ليس بعُجْبٍ إلاَّ مِنْ طريق الأسم، وإلاَّ فهو في الحقيقة إحْساسٌ بالفَضْل المَعْشُوق، وشُعورٌ بالكمالِ المَوْمُوق، واستِدْعاء للزِّيادَة مِمّا صارَ به هكذا، واستعدادٌ لقبولِ الفَيْضِ من مَعْدِنه بالاختيار الثاني والاعتياد الأوّل.

(٨) قيل: فما الوَفاء؟ قال قَضاء حَقٍّ واجب، وإيجابُ حَقٍّ غيرِ واجب، مع رِقَّةٍ أُنسيَّة، وحفيظةٍ مَرْعيّة.

(٩) قيل: فما الرَّغْبَة؟ قال: حركةٌ تكونُ مِنْ شَهْوَةٍ يُرْجَى بها مَنْفَعة.

قال أبو سليمان: الرَّغْبَةُ إذا كانت نُطْقيَّةً كانت مَبْعَثَةً على التَّحلِّي بالفَضائل، وإذا كانت سَبُعِيَّةً أو بَهيميَّةً كانت مُلْهِجَةً بمُوَاقَعَةِ أضْدادِها[1] مِن الرَّذائل.

(١٠) وقيل: ما المِهْنَة؟ فقال: حركةٌ يَتَعاطَاها الإنسانُ بلا حَفْزٍ ولا استِكْراه.

قال عليُّ بنُ عيسى: المِهْنَةُ صِناعة، ولكنها [إلى الذلّ أقرب، وفي الضَّعَة أدخل، والصناعة مِهْنة، ولكنَّها] تَرْتَفِعُ عن تَوَابِعِ المِهْنَة، وفي الصِّناعات ما يَتَّصِلُ به الذُّلُّ أيضًا، ولكن ذُلٌّ لَيس من جهةِ حَقيقةِ الصِّناعة؛ ولكن مِنْ جِهَةِ العَرَضِ الذي بين الصِّناعة والصناعة، والمرتبة والمَرْتَبة.

(١١) قيل: فما العادة؟ قال: حالٌ يأخذ بها المرء نفسَه من غَيْر أنْ تكون مَسْنُونَةً يَجْرِي عليها مَجْرَى ما هو مَألوفٌ طَبيعيٌّ.

قال أبو سليمان: كأنَّ هذا الأسمَ ليس يَخْلُصُ إلاَّ لمن أتَى شيئًا مِرارًا، فأمّا في أوّل ذلكَ فليسَ له هذا النعت، وإنَّما يَصيرُ مَألوفًا بالتَّكرار، ولهذا

(١) أضدادها، أي أضداد الفضائل.

ما صيغت الكلمةُ مِنْ عادَ يَعُودُ وأعتادَ يَعْتاد .

وأمّا قولُه : طَبِيعِيّ ، فعَلَى وَجْهِ التّشبيه ، لأن الطبيعيّ أشَدُّ رُسُوخًا وَأثبَتُ عِرْقًا ، وَأبْعَدُ مِن الأنتِقاض ؛ فأمّا العادةُ فكُلُّ ذلك جائزٌ عليها ، وَغيرُ مأمُون من الوُقوعِ فيه .

(١٢) قيل : كم الحركات ؟ قال : ستّةُ أصناف ، أوّلها حركةُ الأنتقال ، وهى ضَرْبان : إمّا حَرَكةُ الجسْمِ بكُلّه مِنْ مَكان إلى مكان ، وَإمّا حَرَكتُه بأجْزائِه كالفَلَك وَالرّحَى ، والثانى حَرَكةُ الكَون ، والثالث حَرَكةُ الفَساد ، والرابع حَرَكةُ الرُّبُوّ[1] ، والخامسُ حَرَكةُ النَّقْصِ وَالبِلَى ، والسادِسُ حَرَكةُ الأستِحالة ، وهى ضَرْبان : أمّا فى الجِسْمِ فمِثْلُ اللّوْن ، وأمّا فى النّفسِ فمِثْلُ الغَضَب والرِّضا ، والعِلْمِ [والجَهْل[2]] .

وَالنُّقْلَةُ مَكانيّة ، وَالكَونُ وَالفَساد جَوْهَرِيّان ، وَالأستحالة هَيْئِيّة ، والنموُّ وَالأضمِحْلالُ[3] مَكانيّان .

قال الكِنْدِيّ : وَهاهنا حَرَكةٌ أُخْرَى ، وَهى حَرَكةُ الإبداع ، إلّا أنّ بَيْنَها وَبينَ حَرَكةِ الكَوْنِ فَرْقًا ، لأنّ هٰذه لامِنْ موضوع ، وَحركة الكَونِ من فسادِ جَوْهرٍ قَبْلَه بحُدُوثه ، وَلذلِك قيل : إن الكون خُروجٌ من حالٍ خَسِيسَةٍ إلى حال نفيسة .

قال أبو سليمان : حَرَكةُ الإبْدَاعِ عِبارةٌ بَسِيطةٌ لا يَجِبُ أنْ يُفهَم[4] منها

(١) فى كلتا النسختين : « الدنو » ، وهو تصحيف . والربو : الزيادة ، وقد أثبتنا هذه الكلمة أخذاً مما يأتى بعد فى توضيح هذه الحركات ، من قوله : « والنمو » وإنما أثبتنا هنا الربو بالراء والباء لقربه من حروف الأصل . (٢) هذه الكلمة أو مايفيد معناها لم ترد فى كلتا النسختين ، والسياق يقتضى إثباتها إذ لا تتحقق الاستحالة إلا بين الشىء وما يخالفه .

(٣) يشير بالاضمحلال هنا إلى ما سبق من حركة النقص والبلى ، وهى الخامسة .

(٤) فى (ب) : « يظهر » مكان « يفهم » .

مَعْنًى مُرَكَّب . قال : وَإِنَّمَا قلتُ [هذا] لأَنَّ اللَّفظَ نَظِيرُ اللَّفظِ فى أَغْلَبِ الأَمر وَليس المَعْنَى نَظِيرَ المَعْنَى فى أَغْلَبِ الأَمْر ، وَاللفظ كُلّه من وَادٍ وَاحد فى التركيب بلُغَة كلّ أُمّة ، وَالمَعانى تَخْتَلف فى البَساطَةِ على قَدْرِ العَقْل⁽¹⁾ وَالعَقْل ، وَالعاقِل والعاقل ، وَإِنَّمَا حَرَكَةُ الإِبْدَاعِ مُشارٌ بها إلى مقوِّم الأَشياء بلا كُلْفَة فاعِل ، وَلا مُعاناةِ صانِع ، وَإِنَّها بَدَتْ بالمُبْدِعِ مِن المُبْدِع للمُبْدِع لا عَلَى أَنَّ الباء أَلصَقَتْ به شيئاً ، وَلا على أَنَّ [مِنْ] فَصَلَتْ مِنْهُ شَيْئاً ، وَلا على أَنَّ اللاَّم أَضَافَتْ إليه شيئاً ، فإِنَّ هٰذِه العلامات وَالأَمارات كلّها مَوْجُودَةٌ فى الأَشياء الّتى تعلّقت بالإِبداع ، فلَمْ يَجُزْ أَنْ يُنْعَتَ بها المُبْدِع ، وَلو جاز هٰذا لكانَ داخِلاً فيها ، وَموجوداً بها ، وَهذا بعيدٌ جداً . فلمّا جَلَّ عن هذه الصِّفات بالتَّحقيق فى الاختيار وُصِفَ بها بالاستِعارَة على الاضطرار ، لأَنّه لا بدَّ لنا من أَنْ نَذْكُرَه وَنَصِفَه وَنَدْعُوَه وَنَعْبُدَه وَنَقصدَه وَنَرْجُوَه وَنَخافَه وَنَعرِفَه وَنَنْحُوَه وَنَطْلُبَ ما عِنْدَه وَنُوَاجِهَه وَنكافِحَه⁽²⁾ ؛ وَهذه نعمةٌ منه عَلَيْنا ، وَلُطفٌ منه بنا ، وَحكمةٌ بينَه وَ بَيْننا وَإِلا كانت العِصْمَةُ تَنْبَتِر ، وَالطمعُ يَنْقَطِع ، وَالأَمَل يَضْعُف ، وَالرَّجاء يَخِيب ، وَالأَركان تَتَخَلْخَل ، وَالذَّرائعُ ترتفع ، وَالوَسائلُ تَمْتَنِع ، والقَواعِدُ تَسِيخ ، وَالرَّغَبات تَسْقُط ، وَالجود وَالكَرَمُ وَالحِكْمَةُ والقُدْرَة وَالجَبَرُوتُ وَالمَلَكُوتُ تَأْبَى ذلك ؛ فصارَتْ هذه الأَسْماء وَالصِّفاتُ سَلالِمَ لنا إليه ، لا حقائقَ يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ به شىء منها ، على سبيل⁽³⁾ السِّياجِ المَمْدُود ، وَالمِنهاجِ المَخْدُود .

سُقْتُ كلامَ عِيسَى فى تَصْنِيفِ الحَرَكاتِ من أَجْلِ هذِه الفِقْرَة الّتى كانت مَحْفُوظَةً فى حَرَكَةِ الإِبداع ، فإِنى قد وَجدتُ للقَوم فى هذا الباب حَيرةً عارِضَة

(١) فى (ب) على قدر اللفظ ، وفيه تبديل من الناسخ . (٢) المكافحة : المواجهة واللاقاة . (٣) فى كلتا النسختين « لا على سبيل » الخ. وقوله « لا » زيادة من الناسخ كما يلوح لنا.

أو راكدةً ، لا يَسْتَطيعون التَّفَصِّيَ عنها ، ولا يَقْدِرون على البراءة منها ، فالضّلال الذى قد لَزِمَهُم ، والأصنام الّتى قد تربَّعَتْ فى نُفوسِهِم ، والأمْثِلَةِ الّتى قد خَالَطَتْ عُقُولَهم ، والأفْياءِ الّتى استَصْحَبوها مِنْ إحْساسِهِمْ ؛ والقائل هـذا ينبغى أن يتحرّى ويَتَلَبَّث حتى يَعْرَى مِنْ هـذه الأشياء ويَتَرَيَّث ؛ فحينئذ أضْمَنُ له أنْ يَصِحَّ توحيدُه ، ويَتِمَّ تجْريدُه ، وإلى التوحيد تنتهى الفَلْسَفَةُ بأجزائها الكثيرة ، وأبوابِها المختلفة ، وطُرُقها المتشَعِّبة .

وأنا أعوذُ بالله من صِناعةٍ لا تُحقِّق التَّوحيد ولا تدلّ على الواحد ولا تَدْعُو إلى عِبادته ، والاعترافِ بوَحْدانيّته ، والقِيامِ بحُقوقِه ، والمَصير إلى كَنَفِه ، والصبرِ على قضائِه ، والتسليمِ لأمره ؛ ووَجَدْتُ أربابَ هـذه الصنَاعَات ، أعْنِي الهنْدَسَة والطبَّ والحسابَ والمُوسيقَى والمَنْطِقَ والتَّنجيمَ مُعْرِضِين عن تجشّم هذه الغَايَاتِ ، بل وجَدْتُهم تاركين الإلمامَ بهذه الحالات ، وهذه آفَةٌ نَسْألُ اللهَ السَّلامَةَ منها ، والعَافِيَة من عَواقِبِها ؛ والسلام .

(١٣) قيل : ما التَّمام ؟ قال : بلوغُ الشىء الحدَّ الّذى ما فوقه[1] إفراط ، وما دُونَه تقْصِير .

قال أبو سليمان : التمام أليَقُ بالمَحْسُوسَات ، والكمالُ أليَقُ بالأشياء المَعْقُولة .

قال : وليست هذه الفُتْيا مِنِّى جازمة ، ولا عن العَرب العَارِبَةِ مَرْوِيَّة ، ولكن إذا لَحَظْنا المعانِيَ مُخْتَلِفَة ، طلبْنا لها أسماء مُخْتَلِفَة ، ليَكُون ذلك مَعونَةً لنا فى تَحْدِيد الأشْياء أوْ فِى وَصْفِ الأشْياء من[2] طَرِيقِ الإقْناع الكاف[3]

---

(١) ما فوقه ، أى الذى فوقه . وكذلك أيضاً « وما دونه » .
(٢) ورد فى كلتا النسختين « إلا من طريق » . وقوله « إلا » زيادة من الناسخ كما يلوح لنا .
(٣) فى كلتا النسختين « الكافى » والياء زيادة من الناسخ .

الجَدَل والتهمة ، أو من طريق البُرْهان القاطِع بالحجّة ، الرافِع للشبْهة ، أو مِنْ طَرِيقِ التّقليد الجارى على السَّنَنِ والعادة .

قال : ولهذا [إذا] قيل : ما أتمّ قامَته ! كان أحسَن ، وإذا قيل : ما أكْمَلَ نَفْسَه ! كان أجْمَل .

(١٤) قيل له : هل يَتَساوَى الكَوْنُ والفَساد فيَبْقَى الشىء على ماهُوَ به ؟ فقال : أمّا على الحقيقة فلا ؛ ولكنْ[١] على السَّعَة ، لأنَّ الكَوْن متصل بالفساد ، إلا أنهما يخفيان فى مَبادِئِهما حتى إذا أُمِدّ الآنان[٢] فصارَ آناً[٢] واحداً فحينَئذٍ بانَ الكَوْنُ مِن الفساد ، وبان الفَسادُ من الكَوْنِ ، وهذا بالاعتبار الحِسّىّ ؛ فأمّا العقل فيَرْتَفِعُ عن هذا ، لأنّه يَعلم حقيقة الشّىء على ما هُو عليه ، ولا يَقبل من الحسّ حُكْمًا ، ولا يَحْتَكِمُ إليه أبداً .

وإنّما الحسّ عامِلٌ من عُمّالِ العَقْل . والعامِلُ يَجُورُ مَرّةً ويَعْدِلُ مَرّة ، فأمّا الذى هذا هُوَ عامِلُه فهو الذى يتعَقّبُه ، فإنْ وَجَدَه جائرًا أبْطَلَ قضاءه ، وإنْ وَجَدَه عادِلاً أمْضَى حُكْمَه ، ومتى اُستُشِير الحسّ فى قضايا العقل فقد وُضِعَ الشىء فى غَيْرِ مَوْضِعِه ، ومتى اُستُشِيرَ العَقْلُ فى أحْكامِ الحسّ فقد وُضِعَ الشىء فى مَوْضِعِه .

(١٥) قيل : فما الصُّورة ؟ قال : الّتى بها[٣] يَخْرُجُ الجَوْهَرُ إلى الظّهُورِ عِند اعتِقاب الصُّوَرِ إيّاه .

---

(١) فى (ب) : «أما» مكان « ولكن » ، وهو خطأ من الناسخ لا يستقيم به الكلام إذ لا جواب لأمّا بعد ذلك .

(٢) فى (ب) : الأبان ... أبا واحداً ، وفى (١) : الاناءان ... « أناء واحدا » ، وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٣) فى (ب) : « لما » ، وهو تحريف .

قال أبو سليمان : هذه الفُتْيَا جُزافِيَّة ، الصُّوَر أصْناف : إلهيّةٌ وعَقليّة ، وفَلكيّةٌ وطَبيعيّةٌ ، وأُسْطُقُسّيّة وصناعيّة ، ونَفسيّةٌ ولَفظيّة ، وبَسيطةٌ ومُرَكّبةٌ ، ومَمْزوجةٌ وصافيةٌ ، ويَقَظيّةٌ ونَوْميّةٌ ، وغائبيّةٌ وشاهِديّة .

(١٦) ثم اندفع فقال : أما الصُّورَة الإلٰهيّةُ — وهى أعلاها فى الرُّتبَة والحقيقة . وهى أبْعَدُ مِنّا فى التّحصيل إلاّ بمَعُونَةِ الله تعالى — فلا طَرِيقَ إلى وَصْفِها وتَحْديدِها إلاّ على التّقْريب ، وذلك أنّ البَساطَةَ تَغْلِبُ عليها ، إلا أنّها مع ذلك تُرسَمُ بأنْ يُقالَ : هى التى تَجَلَّت بالوَحْدَة ، وتَثبتَتْ بالدّوام ، ودَامَتْ بالوُجود .

(١٧) وأما الصُّورَةُ العَقْليّة فهى شَقِيقةُ تلك ، إلا أنها دونها لا[1] بالانحطاط الحِسّىّ ، ولكن بالمَرْتبَةِ اللفظيّة ، وليس بَيْنَ الصُّورَتَين فَصْلٌ إلاَّ مِنْ ناحيَة النّعْت ، وإلاّ فالوَحْدَةُ شائعةٌ وغالبَةٌ وشاملة ، لكن الصُّورَة الإلٰهيّة تُلْحَظُ لحظًا ، ولا يُلفَظُ بوَصْفِها لفظًا ، لمُشاكَهتِها الصُّورَةَ النّفسيّة ، فإذا كان كذلك أمْكَنَ أنْ تُرْسَمَ فيقال : هى الّتى تَهْدِى إلى العاقِلِ ثَلَجًا فى الحُكم ، وثِقةً بالقَضاء ، وطُمَأنِينة للعاقِبة ، وجزماً بالأمر ، ودُحُوضاً للباطل ، وبَهْجَةَ الحقّ ونُورًا للصّدق .

والفَرْقُ بين الصُّورة الإلٰهيّة والصُّورَة العَقْليّة أنَّ الصورةَ الإلٰهيّة تَرِدُ عليك وتأخذ مِنك ، والصورةَ العَقْليّة تَصِلُ إليك فتُعْطِيك ، فالأُولَى بقَهْرٍ وقُدْرَة ، والثانيَةُ برِفْقٍ ولَطافة ؛ وتلك تَحْجُبُك عن لِمَ وكَيْفَ ، وهذه تَفْتَحُ عليكَ لِمَ وكَيْفَ ، وتلك لا تُنْحَى ولا تُطْلَب ، وهذه يُسْعَى إليها ، ويُسْأَلُ عنها وتُوجَد ، وأنوارُ الصُّورَة الإلٰهيّة بُرُوقٌ تَمُرّ ، وأنوارُ الصُّورَة العَقْليّة شُمُوسٌ تَسْتَنير ؛ وتلك إذا حَصَلَتْ لك بالخُصُوصيّة لا نَصيبَ لأَحَدٍ منها ، وهذه إذا حَصَلَتْ لك فأنتَ

(١) فى كلتا النسختين : « دونها بالانحطاط » بسقوط « لا » النافية ، والسياق يقتضى إثباتها.

وغَيْرُكَ شَرَعٌ فيها ؛ وتلك للصَّوْنِ والحِفظ ، وهٰذه للبَذْل والإفاضة

(١٨) وأمّا الصُّورَةُ الفَلَكيّة فداخلةٌ تَحْتَ الرَّسْمِ بالعَرَض ، وللوَهْمِ فيها أَثرٌ كثير ، ولأَنَّها مأخوذةٌ من الجِسمِ الأَعْظَمِ صارت مشاكهتها مقسُومَةً بين البَسيطِ الّذى لا تَرْكِيبَ فيه ألبَتّة ، و بين المركّب الّذى لا يَخْلو من التَّرْكيب ألبَتّة ؛ ولهٰذا صارَ تأثيرُ الفَلَكِ فى المتحرِّكات عنه أَشَدَّ مِنْ تأثُّر الفَلَك عن المُحَرِّك له ، وكأنّه أوّلُ [مُحَرِّكٍ] مُتَحَرِّك ؛ وليس هكذا[1] ماعَلَا عنه .

والفَلَكُ بما هو جِسْمٌ مَنْقُوصُ الصُّورَة ، و بما هُو دائمُ الحَرَكة شريفُ الجَوْهَر .

(١٩) وأمّا الصُّورة الطبيعيّة فتَعَلُّقُها بالمادّة القابلة لآثارِها بحسب استعدادِها لها ، فلذٰلك ما هى مُزَحْزَحَة عن الدَّرَجة العُلْيا ، وعِشْقُها للقابِلِ منها أَشدُّ من عِشقِها للمُفِيضِ عليها ، ولهٰذا أيضاً كانَت مَنافِعُها ممزوجة ، ومَضارُّها بَحْتَة[2] ، وهى تَجْمَع بين الحِكْمَة والبَلَه ، و بين الجَيِّد والرَّدىء ، ولو سألْتَها لِمَ أنتِ ضارّةٌ نافِعةٌ ؟ لقالت : بَعُدْتُ ، فلما بَعُدْتُ صَوَّبْتُ وصَعَّدْتُ .

وَسَمِعْتُ أبا النَّفِيس يقول فى وَصْفِ الطَّبيعة كلامًا له رَوْنَقٌ فى النَّفْسِ[3] وأنا أَصِلُ هٰذه الجُمْلَة به .

قال : أَيَّتُها الطبيعة ، ما الّذى أقولُ لَكِ ، و بأىِّ شىء أُؤاخِذُكِ ، وكيف أُوَجِّه العَتْب عَلَيْكِ ؟ ! فإنّكِ قد جَمَعْتِ أُمورًا مُنْكَرَة ، وأَحْوالاً عَسِرَة ،

---

(١) كذا فى (ب) والذى فى (١) « وليس هذا قاعلا عنه » . ولا يخفى ما فى هذه العبارة من التحريف .

(٢) فى كلتا النسختين : « نحية » ، وهو تصحيف ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (ب) « فى السمع » .

لا يَفِي نِظَامُكِ فيها بانْتِثَارِكِ عليها، ولكِ بوادِرُ ضارَّة، وَغَوَائِلُ خَفِيَّةٌ تَبدُو مِنكِ، وَتَغُورُ فِيكِ، وتَرْجِع إليكِ، حتى إذا قُلْنا في بَعْضِها: إنَّكِ حَكِيمة، قلنا في بَعْضِها: إنّكِ سَفِيهة، فالبَلَه مِنْكِ مَخلوطٌ باليَقظَة، والاستقامَةُ فيكِ عائدةٌ بالأعْوِجاج، وفيكِ فَظَائِعُ ونَزائع، وقَوَارِعُ وبَدَائع، لأنَّ حَرَكاتِكِ تَسْتَنّ مَرَّةً اسْتِنانًا تُعَشِّقِينَ عليه، وتُحَبِّبِينَ من أَجْلِه، وتَزِيغُ أُخْرَى زَيْغًا تُمَقِّتِينَ عليه، وتُبَغِّضِينَ بِسَبَبِه، وربَّما كانَت حَرَكَتُكِ نَقْضًا للبِناءِ المحكَمِ والصُّورة الرَّائعة، والنظام البَهِيِّ، وربما كانَت بناءً للمُنتَقِض، وتَجْدِيدًا للبَالى وإصْلاحًا للفاسد، حتى كأنّكِ عابِثَةٌ بلا قَصْد، عائثَةٌ على عَمْد، وعلى جميع صفاتِكِ من الواصفين لكِ لم يَعْلم[1] مَن ظَنّ، ولا رأَى مَنْ تَخَيَّل، ولا بَعُدَ لَفْظٌ مِن تأويل، ولا حالَ مَعْنًى عن تَوَهُّم، ولا أَسْفَرَ حَقٌّ عن باطِل، ولا تَمَيَّزَ بَيَانٌ عن تَمْوِيه، ولا وضَحَ نُصْحٌ من غِشّ، ولا سَلِمَ ظَاهِرٌ من تَنَاقُض، ولا خَلَتْ دَعْوَى من مُعارِض، فلهذا وأشْباهِهِ واجَهْتُكِ بخِطَابي، وعَرَضْتُ عَلَيْكِ ما في نَفْسي، فبالّذي أنتِ به قائمة، وبالّذي أنتِ به مَوْجُودَة، وبالذي أنتِ له مُنْقَلِبة، وإليه مُنْسَاقة، إلّا خَبَّرْتِني عَنْكِ، وشَفَيْتِ غَلِيلي منكِ، ونَمَتِّ لي غَيْبَ شَأنِكِ، وجَعَلْتِ الخَبَرَ عنكِ كعِيَانِكِ، وإنما ضَرَعْتُ إليكِ هذا الضَّرَع، وعرَضْتُ عَلَيْكِ هذا الوَجَع، لأنّكِ جارَتي وصَاحِبَتي، وليس بَيْني وبَيْنَكِ حِجاب إلّا ما هو عَدُوٌّ منكِ أو مِنّي، أَعْني بما هو مِنْكِ لُطْفَ سِحْرِكِ، وخَفَاءَ سِرِّكِ، وأَعْني بما هُوَ مِنِّي ما أعْجَزُ عن اسْتِبانَتِه واستيضاحِه إلّا بقوّة الإله الذي هو سَبَبٌ لِحَرَكَتِكِ في أفانِينِ تَصَرُّفِكِ، وأعاجيب عَذْلِكِ وتَحَيُّفِكِ.

(١) عبارة (ا) «لم نر أعلم من ظن»، وهو تحريف.

وكان إذا بَلَغَ هذا الحدَّ وما شاكَلَه أخَذَ في كلامٍ كالجواب عَلَى طريق التأنيس والتَّسْلِيَةِ والاستِرَاحة ، وهذا بالواجب ، لأن الإنسان بسبب أغراضه المجهولَة ، وعوارضه الفاجئَة البَاغِتَة مِنَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ يَفْتَقِرُ افتقارًا شديدًا إلى هذه النُّعُوت التي تقدَّمَ ذِكْرُها ؛ وهذا كالدَّاء والدَّواء ! وليس لأحد أن يتهكَّمَ فيقول : هلّا ارتَفَعَ الدَّاء أصْلًا فيُسْتَغْنَى عن الدَّواء جُمْلة ، وهَلّا وقَعَ الدَّوَاء أبداً عَلَى الدَّاء ونَفَاهُ وصَرَفه . فإنَّ هٰذا كلامٌ مَدْخُول ، من عَقْل كليل ، ولَعَمْرِي إنَّ مَن جَهِلَ القِسْمَةَ الإلٰهيّة في الأزَل[1] بحسب شهادة العَقْلِ لَعِبَ به الوَسْواسُ في هٰذه المواضِع ، وظَنَّ أنَّ الأمرَ لو كانَ بخِلَاف ما هوَ عليه كان أوْلَى وأتَمّ وأوْثَقَ وأحْكَم . يا وَيْحَه ! من أيْنَ يُوجِبُ هٰذا الحُكْم ؟ و بأيّ شيء يُثْبِتُ هٰذا القضَاء ؟ وكيف يَثِقُ بهٰذا الوَهم ؟

وكان يقول أيضاً إنَّ الطَّبيعةَ تقول : أنا قُوَّةٌ من قوَى الباري ، مُوكَّلةٌ بهٰذِه الأجسام المُسَخَّرة حتَّى أتصَرَّف فيها بغاية ما عِندِي من النَّقشِ والتَّصْوير والإصْلَاحِ والإفْسَاد اللَّذَيْن لَوْلاهُما لم يَكُنْ لِي أثَرٌ في شيء ، ولا لشيء أثَرٌ مِنّي ، وكانَ وجُودِي وعَدَمي سَواء ، وحُضورِي وغيَابِي واحدا ، ولو بَطَلْتُ بَطَلَ ببُطْلَاني ما أنا به ؛ وهٰذا زائفٌ من القَوْل ، وخَطَلٌ من الرَّأي ، وتحَكُّمٌ من الظّانّ ؛ ولو احْتُمِلَ إيرادُ كلّ ما كان يَتَنَفَّسُ به هٰذا الشيخ في حال نَشَاطِه وانْقِبَاضِه ، لكان ذلك مَرَادًا فسيحاً ، ومَشْرَعًا واسعًا ، ولكِنَّ ذلك متعذِّرٌ لِعَجْزِي عن الوَفاء به ، ولأنَّ هذه الرِّسَالة تتقَلَّصُ عنه ، وإنما أجُولُ في هٰذه الأكْنافِ لِكَلَفِي بالحِكْمةِ كيف دارَتِ العبارَةُ بها ، وأمْكَنَت الإشارةُ إليها ، لا عَلَى التَّقَصِّي لها وبُلوغِ الغايَةِ منها ، ومَنْ يَقْدِرُ على ذلك ؟ ومن يُحدِّث

(١) في (ا) « الأول » وفي (ب) « الأولى » ، وهو تحريف .

نفسَه بذلك ؟ العالمَ أبعدُ غَوْرا وأعلى قُلّةً وأثقلُ وَزْنا وأحدُّ غَرْبًا وألطفُ أعْرَاضًا وأكثفُ أجْرَامًا وأعجبُ تَرْكِيبًا وأغْربُ بَساطةً من أن يأتىَ عليه إنسانٌ واحد ، وكلُّ منْ[1] كان فى مَسْكِهِ ، وإنْ بَلغ الغايةَ فى دِقّة الذِّهْن وحُسْن البَيان وبلاغة اللّفظ ، واستِنْبَاط الغَامِض فى حاضِرِهِ[2] وغائبه ؛ هذا ما لا يَتَوَهَّمُهُ العقل[3] .

وأنا أعُوذ بالله من هذه الدَّعْوى ، وأسْألُهُ أنْ يُلْهِمَنى الشُّكْرَ عَلَى ما فَتَحَ وَشَرَحَ ، وَهَدَى إليه وَمَنَحَ ، وأطْلَعَ عليه وَنَدَحَ[4] ، فإنّ الشُّكْرَ قَرْعٌ لباب المَزِيد ، وَالمَزِيدَ باعثٌ على الشُّكْر الجديد ، وَالشُّكْرُ — وَإنْ خَلَصَ بالعِرْفان ، وَجَرَى بضُرُوب البيَان عَلَى اللِّسَان — فإنّه يَقْصُرُ عن تَواتُرِ النِّعْمَةِ بعد النِّعْمَة ، وتظاهُر الفائِدَةِ بعدَ الفائدة .

(٢٠) وأما الصُّورَةُ الأُسْطُقُسّيّة ، فهى لائحةٌ لكلّ ذى حِسٍّ[5] بالتَّناظُر الموجود فيها ، وَالتّبايُنِ الآخذ بنَصِيبِهِ منها ، وَلها انْقسامٌ إلى آحادِها ، أعْنى أنّ صورةَ الماء مُبَايِنةٌ لصُورَة الهواء ، وكذلك صورةُ الأرْض مُخَالِفةٌ لصُورَةِ النّار ، فتَحْدِيدُها بما يُقرِّرُها مع غَوْصِها فى كلّ أُسْطُقُسٍّ شديد ، واللّفظُ لا يَصْفُو ، والمُراد لا يَنْمَاز .

(١) فى (ب) «ما» مكان «من» وفى (١) «مسئلة» مكان «مسكه» ؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين . والمسك : الجلد . ويريد به هنا الشكل ، أى كل من أشبهه وشاكله . أو يريد به من كان محبوسا فى جسمه مقيدا بعادته .

(٢) فى كلتا النسختين : « فى آخره » مكان قوله : « فى حاضره » ؛ وهو تحريف . وفى (١) و «غايته» مكان «وغائبه» الوارد فى (ب) وهو ما اخترناه ليتقابل الوصفان .

(٣) فى كلتا النسختين « إلا عقل » وفى قوله « إلاّ » تحريف ظاهر .

(٤) ندح الشىء : وسّعه ، وفى كلتا النسختين : و «قدح» بالقاف ، وهو تحريف .

(٥) فى كلتا النسختين : « حسن » ، وهو تحريف .

(٢١) وَأَمَّا الصُّورَةُ الصِّناعيّة فهى أَبْيَنُ من ذٰلِكَ ، لأنّها مع غَوْصِها فى مادّتها بارزةٌ للبَصَر وَالسَّمْع وَلجميع الإحساس ، كصورة السَّرِير وَالكُرْسِيّ وَالبابِ وَالخاتَم وَما أشبه ذٰلك .

(٢٢) وَأَمّا الصُّورَة النَّفْسِيَّة فهى رَاجعةٌ إلى العِلْم وَالمَعْرِفَة وَتوَابِعِهما فيما يُحَقِّقُهُما أو يَخْدُمُهُما[١] وَهى شقيقةٌ للصُّورَة العقليّة بالحقّ .

(٢٣) وَأَمّا الصُّورَةُ البَسِيطةُ فلاخْتِلَاف مرَاتِب البَسِيط ما يَعِزُّ رسمُها إلا بالإيماء إليها ، فإنْ لحقَ هٰذا الإيماء سامِعُه فذاك ، وَإلّا فلا طَمَع فى عبارَةٍ شافيةٍ عنها .

(٢٤) وَأما الصُّورَة المركَّبة فهى بادِيةٌ للحِسّ بآثارِ الطَّبِيعةِ فى مادّتِها ، وَبادِيةٌ أيضاً للنَّفْس بآثارِ العقل فى سَيْحِه عليها ، وكما أنّ بين البَسِيط والبسيطِ فَرْقاً يَكادُ البَسيطُ يكونُ به مُرَكَّباً ، كذلك بين المركَّب وَالمركَّب فَرْقٌ يَكادُ المركّبُ يَكونُ به بَسِيطاً ؛ وهذه جُمْلةٌ تفسيرُها مُعْوِز .

(٢٥) وَأما الصُّورَةُ المَمْزُوجةُ فهى أختُ الصُّورةِ المركّبة ، وكذلك الصُّورَةُ الصافِيَة أختُ الصُّورة البَسِيطة ، وليس هـذا تمايُزاً فى اللّفظ واللّفظ ، إذ كانتا مُتصاحِبتَين[٢] وَلم تكونا مُتعانِدَتين .

(٢٦) وَأَمّا الصُّورَةُ اليَقَظيّة فهى مَجْمُوعَةٌ من الإحساس ، لجرَيانها[٣] على وِجدانِ المَشاعِر كلِّها ، وَما لها وبها .

(٢٧) وَأمّا الصُّورَةُ النَّوْميّة فهى أيضاً متميِّزةٌ عن أُخْتِها ، أعنى اليَقَظيّة ، لأنها إغْضاء عَيْنٍ وَفَتْحُ عَيْنٍ ، أعنى أنّ النائم قد حِيلَ بينه و بين مِثالاتِ الإحساسِ

(١) فى (ا) « لوعد منهما » ، وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين : « إذا كانا متصاحبين » الخ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين « وجريانها » بالواو ، وهو تحريف .

وعَوارِضِ الكَوْنِ والفَساد ، وفُتِحَ عليه بابٌ إلى وِجْدانِ شيءٍ آخرَ يَجْرِى كَظِلٍّ الشَّخْص من الشَّخْص ، فإن كان ذلك مِن وادِى الطبيعة أومأ إلى آثار الأخلاط ، وإن كان من وادِى النَّفْس أوْمأَ إلى نَصْب التماثيل ، وإن كان من وادى العَقْلِ صَرَّح بحقائق الغَيْب فى عالَم الشَّهادة إمّا بالتَّقْرِيبِ وإمّا بالتَّهْذِيب أعنى إمّا بوقوعِه عَقِيبَ ذلك ، وإمّا بَعْدَ مُهْلَة .

(٢٨) وأمّا الصُورَةُ الغائبيّة والشاهِدِيّة فقد اتّصل الكلامُ فى شَرْحها بما تَقَدَّم من حَدِيث الصُّورة اليَقَظِيّة والنَّوْمِيّة ، والعِبارةُ عن الشاهِدِ مَقصورةٌ على وجدانِ المَشاعِر ، والعبارة عن الغائب مقصورةٌ على ما تَعَلَّقَ(١) على المَشاعِر ، وفى الغائب شاهدٌ هو الملحوظُ(٢) من الغائب ، وفى الشاهِدِ غائبٌ هو المبحوثُ عنه فى الشّاهد ، فالشاهد غائبٌ بِوَجْه ، والغائب شاهدٌ بوَجْه ، حتى إذا استَجْمَعا لك كنتَ بهما فى شِعارِها . والإلٰهيون من الفلاسفة هم الذين جَمَعُوا بين هٰذَيْن النَّعْتَيْن ، وعَلَوْا هاتَيْن الذِّرْوَتين ، فتوَحّدوا عِنْدَ ذلك بخَصائِصِهم ، وانْسَلَخُوا عن نقائِصِهم ، فلو قلت : ما هؤلاء(٣) بَشَرٌ كنتَ صادقا .

ولقد أحْسَنَ الّذى قال فى وَصْفِ العِصابة حيث وَصَفَ فقال :

فِينا وفيكَ طبيعةٌ أرْضِيّةٌ ... تَهْوِى بنا أبَدًا لِشَرٍّ(٤) قَرار
لكنّها مَقْسورَةٌ مَأسُورَةٌ ... مَغْلوبَةُ السُّلطانِ فى الأحْرارِ
فجُسُومُهمْ مِن أجْلِها تَهْوِى بِهِم ... ونُفُوسهمْ تَسْمُو سُمُوَّ النارِ

(١) فى (ب) الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون (ا) «تعلق من» ، وهو تحريف
(٢) فى (ب) الموجودة فيها هذه العبارة وحدها دون (ا) «المخلوط» ، وهو تحريف.
(٣) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) «هؤلاء ما ببشر»، وفيها تقديم وتأخير وقعا من الناسخ كما لا يخفى .
(٤) فى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها دون (ب) «لنشر» ، وهو تحريف .

لولا مُنازَعةُ الجسومِ نفوسَهمْ   نفذَتْ بسَوْرَتِها مِن الأقطارِ
عَرَفُوا لِرُوحِ اللهِ فيه فَضْلَ ما   قد آثَرُوا مِن صالحِ الآثارِ
فتنزَّهوا وتَكرَّموا وتعظَّمُوا   عن لُؤمِ طَبْعِ الطِّينِ والأحجارِ
نزَعوا إلى البَحرِ الذى منه أتتْ   أرواحُهمْ وسَمَوْا عن الأغوارِ

وهذا وَصْفٌ بليغٌ بالإضافة إلى القَوْم[1] .

فأمّا ما وَراءَ هذا فهنالكَ خَبَرُ ثقةٍ[2] بما قرَّرَ وقال :

(٢٩) وأمّا الصُّورةُ اللفظيّة فهى مَسموعَةٌ بالآلة التى هى الأُذُن ، فإنْ كانت عَجْماءَ فلهاحُكْم ، وإن كانت ناطقةً فلها حُكْم ، وعلى الحالَين فهى بَيْن مَراتبَ ثلاث : إمّا أن يكون المُرادُ بها تحسِينَ الإفهام ، وإمّا أن يكون المُرادُ بها تحقيقَ الإفهام ، وعلى الجميع فهى مَوْقُوفةٌ على خاصٍّ مالَها فى بُروزها من نَفْس القائل ، ووُصولِها إلى نَفْس السامع ؛ ولهذه الصُّورة بَعْدَ هذا كلِّه مَرْتَبةٌ أخرى إذا مازَجَها اللَّحْن والإيقاعُ بصِناعة المُوسِيقار ، فإنّها حينئذ تُعْطِى أمُوراً ظَرِيفة ، أعنى أنّها تَلذُّ الإحساس ، وتُلْهِبُ الأنفاس ، وتَسْتَدْعى الكاسَ والطاس ، وتُرَوِّحُ الطَّبْع ، وتُنْعِم البال ، وتُذَكِّر بالعالَم[3] المَشُوقِ إليه ، المُتَلَهَّفِ عليه .

هذا مُنْتَهى كلامه على ما عَلِقه الحِفْظ ، ولقِنَه الذِّهن ؛ ولو كان مأخوذاً عنه بالإملاء لكان أقومَ وأحكم ، ولكنّ السَّرْدَ باللِّسان ، لا يأتى على جميع الإمكان فى كلّ مكان ، فهذا هذا .

قال الوزير : هذا بابٌ فى غاية الإيفاء والاستيفاء ، ومن يتحكّك بالاعتراض

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) « القول » مكان « القوم » ، وهو تحريف فيما يظهر لنا .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « حرسه » ، مكان قوله : « خبر ثقة » وهو تحريف لا يفهم له معنى .   (٣) لعلّه يريد بالعالم : عالم الروح .

عليه فقد صَغَى[١] ، وأبْدَى صَفْحَتَه بالبُهْت ، ودَلّ مِنْ عَقلِه على الدَّخَل[٢] ، ومن أخلاقه على الخَلَل[٣] ؛ لقد وَهبَ اللهُ لهذا الرجل مقامًا عاليًا ، ولا عجب فإنه مُعَوّض بهذا عمّا فاته .

(٣٠) وقال : أنشدْني فى الخمر شيئًا غريبًا ، فأنشدْتُه :

وَمُوَرَّدِ الوَجَنــــاتِ يَخْـ ـطِرُ حينَ يَخْطِرُ فى مُوَرَّدْ
يَسْقِيكَ من جَفْنِ اللُّجَيْـ ـنِ إذا سَقاكَ دُموعَ عَسْجَدْ
حتّى تَظُنَّ الشمسَ تَنْـ ـزِلُ أو تَظُنَّ الأرْضَ تَصْعَد
فإذا سَــــقاكَ بِعَيْنِهِ وبِفِيه ثمّ سَقاكَ باليَــدْ
حَيّــاكَ بالياقوت تَحْـ ـتَ الدُّرِّ مِنْ فَوْقِ[٤] الزَّبَرْجَدْ

قال : أحْسَنْتَ والله ؛ هاتِ زِيادَةً : فقُلْتُ :

وعَذْراءَ[٥] تَرْغُو حينَ يَضْرِبُها الفَحْلُ كذا البِكْرُ تَنْزُو حينَ يَفْتَضُّها البَعْلُ
تُدِيرُ عيونًا فى جُفُـــــونٍ كأنّما حَماليقُها بِيضٌ وأحْداقُها نُجْلُ
كأنّ حَبابَ المَاء حَوْلَ إنائهـــــا شذورٌ[٦] ودُرٌّ ليس بَيْنَهُما فَصلُ

(١) صغى : مال .

(٢) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « الرجل » ؛ وهو تصحيف والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « الحال » ؛ وهو تصحيف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها دون (ب) هذا الشعر ما نصه :

حياك بالياقوت فو * ق الدر من تحت الزبرجد

وهو تبديل من الناسخ صوابه ما أثبتنا . إذ الخمر المشبّهة بالياقوت إنما تكون تحت الحبب المشبّه بالدرّ ؛ وكلاهما فوق الكأس المشبّهة بالزبرجد .

(٥) يريد بالعذراء : البكر من الخمر . ويريد بالفحل : الماء الذى تمزج به .

(٦) فى (١) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها « أناسا شدود » وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

تَوَهَّمْتُها فى كأسِها فكأنّما ... تَوَهَّمْتُ شيئاً ليس يُدْرِكه العَقْلُ
إذا اشتبكتْ رِجْلاى منْ سَوْرة الكَرَى ... دَرَجْت إليها مِثلَ ما يَدْرُجُ الطِّفْلُ

وأنشَدْتُ لآخر :

وكم عائبٍ للخمرِ لو أنّ أمّه ... تَبُولُ مُدامًا لم يَزَلْ يَسْتَبِيلُها

ولآخر :

خَليلىّ لُومَانى[1] عَلَى الخَمْرِ أوْ دَعَا ... فلَنْ تَجِدا عندى على اللّوْمِ مَطْمَعا
وشبّا[2] سَنَا نارٍ لعلّ نَديمَنا ... بنَجْرانَ أنْ يَلقى سَناهَا فَيتْبَعا
فما رَاعَنا إذْ أُوقِدَتْ فوقَ رَبْوَةٍ ... مِن الأرْض إلّا رَاكبانِ قد أوْضَعَا
فَهشّا إلَيْنا ثم قالَا : ألا أنعِما ... مَساء فقُلْنَا : دامَ ذَاكَ لنَا مَعَا

وأنشَدْتُ لآخَر :

سَقَوْنى وقالُوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا ... جبالَ شَمامٍ[3] ما سَقَوْنى لَغنَّتِ

وأنشَدْتُ أيضاً :

الكأْسُ لا تَدْرِى ولا الخَمْرُ ... مِنْ أىِّ شىء عُجِّلَ السُّكْرُ
أسْكَرَنِى مِنْ قَبْلِ شُرْبِى لها ... مَنْ دَأبُهُ الإعْراضُ والهَجْرُ
قلتُ له والخمرُ فى كأسِه[4] ... كأنّها فى كَفِّه بَدْرُ

---

(١) فى (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها « أومانى » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « وسنا » بالسين والنون ؛ وهو تصحيف .
(٣) شمام : جبل لباهلة له رأسان يسمّيان ابنى شمام ؛ ويضرب بهما المثل فى الاجتماع وعدم الفرقة .
(٤) عبارة (ا) التى ورد فيها هذا الشعر وحدها « فى كفه * كأنها فى كأسه » ؛ وهو خطأ من الناسخ ؛ وسياق المعنى يقتضى ما أثبتنا . إذ المعروف تشبيه الكأس بالبدر ، لا تشبيه الخمر به .

أنتَ لَعمرِى الخمرُ ياسَيِّدى ليس الّذى سَقَّيْتَنِى الخَمْرُ

آخَر :

تَركت النبيذ لأهل النبيـــذ فخـــارَ لِىَ اللهُ فى تركِه

وقد كنتُ قِدْماً به مُعْجَبًا أرُوحُ وأغْـدُو إلى سَفْكِه[1]

فقال : قد جرَى هذا أيضاً على التّام . اختِمْ مجلسَنا بدُعاء الصُّوفيّة .

(٣١) فقلتُ : سَمِعْتُ ابنَ سَمعونَ يَدْعُو فى الجامع فى آخِر مجلسِهِ ويقول : اللهمَّ اجعلْ قوْلَنا مَوْصُولًا بالعَمَل ، وَعَمَلَنا مُحَقِّقاً للأَمَل ، ولا تُضايِقنا فيما نَتَحوَّل به ، وَنَتَقَلَّبُ لك فيه ، وَكَنِّفْ علينا بسِترك ، وَسَوِّغْنا بِرَّك ، وَأَلْهِمْنا شُكْرَك ، وَخَفِّفْ عَلَى أفْواهِنا ذِكرَك ، وَأخصُصْنا بعد ذٰلك بما هُوَ أَلْيَقُ بذلك ؛ اللهمَّ اسمَعْ وَاستَجِبْ وَقَرِّبْ . وَانصرفتُ .

الليلة الثامنة والثلاثون

وَجَرَى ليلةً بحضْرَة الوزير — أعْلَى اللهُ كلمتَه ، وَأدامَ غِبطَتَه ، وَوَالَى نِعمَتَه — أحقُّ مَنْ دُعِىَ له ، وَأشْرَفُ مَنْ بُوهِىَ به ، وَأكْمَلُ من شُوهِدَ فى عَصْرِه — حديثُ ابنِ يوسفَ وَما هو عليه مِنْ غَثاثَتِه وَرَثاثَته ، وَعِيارَته[2] وَخَساسَته .

فقلتُ له : عندى حديثٌ ، ولا شَكَّ أنّ الوزيرَ مُطّلِعٌ عليه ، عارفٌ به .

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الشعر « بتكه » بالباء والتاء مكان قوله « سفكه » ولم نجد له معنى يناسب السياق ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ المعروف تشبيه الخمر بالدم المسفوك ؛ وقد جاء هذا كثيرا فى الشعر .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها دون (ب) « وعبارته » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

قال : ما ذاك ؟ قلت : حَدَّثنى أبو علىّ الحسَن بن علىّ القاضى التَّنُوخِىّ قال : كنت فى الصُّحْبَةِ إلى هَمَذَان سَنَةَ تِسْعٍ وستِّين ، وكُنّا جماعةً وَفينا ابن حرنبار(١) أبو محمد ، وكان فى جَنْبه أبنُ يُوسُف ، فاتفقَ أنَّ عَضُدَ الدَّوْلة — برَّدَ الله مَضْجَعه — قال لأبن شَاهَوَيْه : سِرْ إلى ابن حرنبار(١) وقل له : يَنبَغِى أن تسير إلى البَصْرة وَإنّا نجعلُ لك فيها مَعُونة ، فقد طالَ مُقامُكَ عندَنا ، وَتوَالَى تبَرُّمُنا بك ، وَتبَرُّمُكَ بنا ، وليس لك بحَضْرتنا ما تُحِبُّه وَتقترِحُه ، وَالسلامَةُ لكَ فى بُعْدِكَ عنّا قبل أن يُفضِىَ ذلك إلى تغيُّرنا . وكلامًا فى هذا النَّوع .

قال : وَنفَذَ أبو بكر ومَعَه آخَرُ منَ المَجْلِس يَشْهَدُ التَّبْليغَ وَالأداء(٢) ، وَيَسْمَعُ الجوابَ وَالأبتداء — على رَسْمٍ كان مَعْهوداً فى مِثلِ هذا الباب — فلَقِىَ أبن حرنبار(١) وَشافَهَه بالرِّسالَةِ على التّمام ؛ فقال أبو محمد لما سَمِع : الأمْرُ للمَلِك ، وَلا خِلافَ عليه ؛ وَلعَمْرِى إنَّ الناسَ بجُدُودِهم ينالون حُظُوظَهمْ ، وبحُظوظِهم يَسْتَدِيمون جُدُودَهم ؛ ولو وُفِّقتُ ما كانَ عجيباً ، فقد نالَ مَن هُوَ أنقصُ مِنِّى ، وَبلَغَ المُنَى مَن أنا أشرف(٣) منه ، ولكنَّ المقاديرَ غالبة ، وليس للإنْسَان عنها مُرْتَحَل ؛ وقد قيل : من سَاوَرَ الدهرَ غُلب ، ولكن أيُّها الشيخ لى حاجة : أحِبّ أنْ تُبَلِّغَ المَلِكَ كلمَةً عَنِّى . قال : هاتِها ؛ قال : تقول له : أنا صائرٌ إلى ما رَسَمْتَ ، وَمُمْتَثِلٌ ما أمَرْت ، بعد أنْ تَقضِىَ لى وَطَراً فى نَفْسِى ، قد تَقطَّعَ عليه نَفَسى ، وذاك أنْ تتقَدَّم فيُقامُ عبدُ العزيز بنُ يوسُفَ بين اثنين فيَصفَعانِه مائتين ، ويقولان له : إذا لم تَبذُلْ جاهَكَ لمتلهِّف، ولا عِنْدَك فَرَجٌ لمكْرُوب ،

(١) كذا ورد هذا الاسم فى الأصول ولم نقف على تصحيحه ؛ ولعل الصواب فيه ابن « حذقيار » فإن هذا من أسمائهم .

(٢) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام وحدها « والآراء » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين « أشف » ؛ وهو تحريف .

ولا بِرٌّ لضَعِيف ، ولا عَطاء لسائل ، ولا جائزةٌ لشاعِر ، ولا مَرْعَى لمُنتَجِع ، ولا مَأْوَى لضَيْف ، فلِمَ تُخاطَبُ بسَيِّدنا ، وتُقبَّلُ لكَ اليدُ ، ويقامُ لك إذا طَلَعْتَ ؟!

قال ابن شاهَوَيه : فقُبَيْلَ أن لقيتُ الملِكَ أفصَحَ[1] له الَّذي كان معي مُشْرِفًا عليّ . فلمّا دَخَلْتُ الدارَ عُرِّفَ ، فقال : عليَّ به ، فحضرْتُه وابنُ يوسفَ قاعدٌ بين يدَيْه على رَسْمه . فقال لى : هاتِ الجوَابَ عما نَفَذْتَ فيه ؛ فقلت : الجوابُ عِندَك ، فقال : ما أعْجَبَ هذا ! أنتَ حُمِّلْتَ الرسالةَ وأطالبُ غيرَك بالجواب ؟ قال : فتلوَّيْتُ حَياء من ابن يوسُفَ ، فقال : هات يا هذا الحديثَ بفَصِّه ، فواللهِ لا أقْنَعُ إلّا به ، ما هذا التّوانِي والتكاسُل ، فكرِهتُ اللَّجاج ، فسردْتُه على وَجْهِه ، ولم أغادِرْ منه حرْفًا ، وابن يوسف يتقَدَّدُ في إهابه[2] ، ويتغيّرُ[3] وَجْهُه عند كلِّ لفظةٍ تمرُّ به ، فأقْبَلَ عليه الملِكُ وقال : كَيْفَ ترى يا أبا القاسم الكَيِّسَ ؟ فقال : يا مولانا ، إنما أنا أقضِي الحاجَةَ بك ، فإذا لمْ تقْضِها كيف أكون ؟ فإن الحوائج كلَّها إليك .

قال : صَدَقْتَ ، أنا لا أقضى حاجةً لك ، لأنك لا تَقْصِدُ بها وَجْهَ الله ، ولا تَبْغِي بها مكرُمَة ، ولا تحْفَظُ بها مُرُوءة ، وإنّما ترتَشِي عليها ، وتُصانِعُ بها ، وتَجْعَلُني بابًا من أبْوابِ تجارَتِك وأرباحِك ، ولو كنتُ أعْلَمُ أنّكَ تقضى حاجةً لِله أو لمكرُمةٍ أو لرَحمة ورِقّةٍ لكانَ ذلك سَهْلاً عليّ ، وخفيفًا عِندي ، لكنّكَ معرُوفُ المَذْهبِ في الطَّمَع والحيلة ، وجَرِّ النارِ إلى قُرْصِك ، وشَرَهِكَ في جَميع أحوالِك ؛ وليس الذَّنْبُ لك ، ولكنْ لمن رآكَ إنسانًا وأنتَ كَلْبٌ .

(١) في كلا الأصلين : « ما أفصح » . و « ما » زيادة من الناسخ .
(٢) في (ب) « في ثيابه » ؛ وهو تحريف .
(٣) في (١) « يتميز » .

وصَدَقَ — صَدَّقَ اللهُ قَوْلَه — فإنه كان أخَسَّ خَلْقِ الله ، وأنْتَنَ الناس ، وأقذَرَ الناس ، لا مَنْظَرَ ولا مَخْبَر .

وكانت أُمُّهُ مُغَنِّيَةً مِنْ أهْلِ البَيْضاء ، وأبُوه مِنْ أسْقاطِ الناس ، ونَشَأ مع أشْكالِه ، وكان فى مَكْتَبِ(١) الرَّبَضِيِّ على أحْوالٍ فاحشة ، ووَرَّقَ زَماناً ، ثم إنَّ الزمانَ نَوَّهَ به ، ونَبَّهَ عليه ، ومِثْلُ هذا يكون ، والأيامُ ظُهورٌ و بُطونٌ ؛ وكما يَسْقُطُ الفاضِلُ إذا عانَدَه الجَدّ ، كذلك يَرْتفِعُ السَّاقِطُ إذا ساعَدَه الجَدّ فهذا هذا ؛

فقال : ما كان هذا الحديثُ عندى ، وإنّه لَمِنَ الغَريب .

ثم قال : كيف خَبَرُك فِى الفِتنة التى عَرَضَتْ وانتَشَرَت ، وتَفاقَمَتْ وتَعاظَمَتْ ؟

فكان مِن الجواب : خَبَرُ مَن شَهِدَ أوّلَها ، وغَرِقَ فى وَسَطِها ، ونَجا فى آخِرِها .

قال ؛ حَدِّثْنى فإنّ فى روايتِه وسَماعِه تَبْصِرَةً وتَعَجُّبًا ، وزيادةً فى التَّجرِبة . وقد قيل : تجارِبُ المتقدِّمين ، مَرَايا(٢) المتأخِّرين ، كما يُبْصَرُ فيها ما كان ، يُتَبَصَّرُ بها فيما سيكون ، والشاعرُ قد قال :

والدَّهْرُ آخِرُه شِبْهٌ بأوَّلِه ناسٌ كناسٍ وأيَّامٌ كأيّامِ

وليس مِن حادِثةٍ ماضيةٍ إلّا وهى تُعَرِّفُكَ الخطأَ والصَّوابَ منها لِتَكُونَ على أُهْبَةٍ فى أخْذِكَ وتَرْكِك ، وإقْدامِكَ ونُكُولِك ، وقَبْضِكَ وبَسْطِك ، وهذا وإنْ كانَ لا يَقِى كلَّ الوِقاية ، فإنه لا يُبْقِى فى التَّهْلُكَة كلَّ الإلْقاء .

---

(١) فى (ب) «مكبت» ؛ وهو تحريف . وفى (ا) «الرمضى» بالميم ؛ وهو تحريف أيضا .
(٢) فى (ا) «مرأى» ، وفى (ب) «مرای» ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

كان أوّلَ هذه الحادثة الفظيعة البَشِعَة الّتى حَيَّرت العقولَ ولَّهت الألباب، وسافرَ عنها التوفيق، واستولَى عليها الخِذْلان، وعُدِمَت فيه البَصائر، شىءٌ كلا شىء، وإذا أراد اللهُ [تَعالَى ذكره] أن يُعَظِّمَ صغيراً فَعَل، وإذا شاء أنْ يُصَغِّرَ عظيماً قَدَر، لَهُ الخَلْقُ والأمر، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ولا رادَّ لقَضائه، ولا صارِفَ لَقدَرِه؛ وقُدْرَةُ الإنسان محدودة، واستطاعتُه مُتناهِيَة، واختيارُه قَصير، وطَاقتُهُ مَعْرُوفة؛ وكلُّ ما جاوز هذا الحدَّ وهذا[1] التّناهى فهو الذى يَجْرى على الإنسان شاءَ أوْ أبَى، كَرِه أوْرَضِى، وهاهُنا يُفْزَعُ إلى الله مِن نازِلِ المَكْرُوه، وحادِثِ المَحْذُور.

وذَاكَ أنَّ الرُّومَ تهايَجَتْ على المُسْلِمِين، فسارَتْ إلى نَصِيبِينَ بِجَمْعٍ عَظِيم زائدٍ على ماعُهِدَ على مَرِّ السِّنين، وكانَ هذا فى آخِرِ سَنَةِ اثنتين وستِّين، فخافَ[2] الناسُ بالمَوْصِل وما حَوْلها، وأخَذُوا فى الانحدار على رُعْبٍ قُذِفَ فى قُلُوبهم، ليكون سَبَبًا لما صارَ إليه [الأمر]؛ وماجَ الناسُ بمَدينةِ السَّلام واضطرَبُوا، وتقَسَّمَ هذا المَوْجُ والاضطرابُ بين الخاصّةِ والعامّة؛ وصارَتِ العامّةُ طائفتَين، طائفةً تَرِقُّ للدِّين ولما دَهَمَ المُسْلِمِين، وتَسْتَعْظِم ذلِكَ فَرَقًا مما يُنْتَهَى إليه، بعد ما يُؤْتَى عليه؛ وطائفةً وَجَدَتْ فُرْصَتَها فى العَيْثِ والفَساد، والنَّهْبِ والغارةِ بوَساطةِ التعصُّبِ للمَذْهَب.

وافتَرَقَت الخاصّةُ أيضاً فرقَتَين: فرقةً أحَبَّتْ أن تكُونَ لِلنّاسِ حَمِيَّةٌ[3] للإسْلام، ونُهوضٌ إلى الغَزْو، وانبعاثٌ فى نُصْرَةِ المُسْلِمِين، إذ قد أضْرَبَ

---

(١) فى (ب): «وهو»؛ وهو تحريف.
(٢) فى (١) «لخلق»؛ وهو تحريف.
(٣) فى (ب) «حيا»؛ وهو تحريف.

السلطانُ عن هذا الحديث ، لأنهما كه فى القصْفِ والعَزْف ، وإعْراضِهِ عن المصالح الدِّينيّة ، والخيرات السّياسيّة ؛ وطائفةً اختارت السكونَ والإقبالَ على ما هُوَ أحْسَمُ لمادّةِ الوُثوب والهَيْج ، وأقطَع لشَغَب الشاغب ، وأقمعُ لخلاف المتّهم ؛ فإنّ الاختلافَ إذا عرَضَ خَفِيَ مَوْضعُ الاتفاق ، وألتبسَ الأمرُ على الصِّغارِ والكِبار ؛ وبمثْلِ هـذا فُتِحَت البلاد ، ومُلِكَت الحصون ، وأزيلت النِّعَم ، وأريقت الدِّماء ، وهُتِكَت المحارِمُ ، وأبيدَت الأمم ؛ ونَعُوذُ بالله منْ غضَب الله ومما قرَّب من [سُخْطِ] الله ؛ وإذا أرادَ اللهُ أمرًا كثَّرَ بَواعِثَه ، وفرّق نَوابِثَه[1] .

ولما أشتَعَلَت النائرَة ، وأشتَغَلَت الثّائِرة ، صاح الناس : النَّفيرَ النَّفير ، وإسْلَامَاه ، واُمحَمَّداه ، واصَوْمَاه ، واصَلَاتاه ، واحَجَّاه ، واغَزْوَاه ، واأَسْرَاه ، فى أيْدِى الرُّوم والطُّغاة . وكان عِزُّ الدَّولة قد خرَج فى ذلك الأوان إلى الكُوفَة للصَّيد ، ولأغراضٍ غيرِ ذلك ؛ فاجتمَع الناسُ عند الشيوخ والأماثِل والوُجوهِ والأشرافِ والعُلماء ، وكانت النِّيَّة[2] بَعْدُ حَسَنَة ، والناس فى ظِلِّ السلطان مَبيتٌ ومَقِيل ، يَستعذِبون ورْدَه ، ويَسْتَسهِلُون صَدَرَه ، وعَجُّوا وضَجُّوا ، وقالوا : اللهَ اللهَ ، انظروا فى أمْرِ الضُّعَفاء وأحوالِ الفقراء ؛ وأغضَبُوا لله ولدينه ؛ فإنّ هذا الأمر إذا تفاقَمَ تَعَدَّى ضُعفَاءنا إلى أقْويائنا ، وبَطَلَ رَأْيُ كُبَرائنا فى تَدْبير صُغَرائنا ؛ والتّدارُكُ واجب ، وهو الإسلام ، إن لم تَذُبَّ عنه غلَبَ الكفر ، وهُوَ الأمْنُ والسكون إن لم يُحْفَظَا ، فهو الخوف والبَلاء وذَهابُ الحرْثِ والنَّسل ،

---

(١) فى كلتا النسختين : « نوائبه » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق . ونوابث الأمر : مثيرات دفينة ومظهرات خفية .

(٢) فى (١) « الثقة » وفى (ب) « البقية » وفى (١) « تمد » مكان قوله « بعد » ؛ وهو تحريف .

وَفَضِيحَةُ الوَلَدِ وَالأَهْلِ. فسَكَّنَ المشايخُ منهم، وطَيَّبُوا أنفسهم، وَقَوَّوْا مُنَّتَهُمْ ووَعَدُوهم أن يَرْتَثُوا[1] فيه مُتَّفِقِين، وَيجتَمِعُوا عليه مجتهدين، وَيَسْتَخْيِرُوا اللهَ ضارعين؛ وَانصَرَفَ الناسُ عَنهم، وَأُجتَمَعَ القوم: أبو تَمَّام الزينبيّ، وَمحمدُ ابنُ صالح بنِ شَيْبان، وابنُ مَعْروف القاضى، وأبنُ غسّان القاضى، وأبن مُكرَم — وكان مِنْ كِبارِ الشُّهودِ فى سُوق[2] يَحْيَى — وأبنُ أيُّوبَ القطّان العَدْل وأبو بكر الرازىُّ الفقيه، وعلىُّ بنُ عِيسَى والعَوّامىّ صاحب الزبيرى[3]، وابنُ رُبَاطٍ شَيْخُ الكَرْخ، ونائب الشِّيعة[4] ولسان الجماعة، وابن آدم التاجر[5]، والشالُوسىُّ أبو محمد، وغيرُهم ممن يَطول ذِكْرُهم؛ وتَشَاوَرُوا وَتفاوَضُوا، وقَلَّبُوا الأمْرَ، وَشَعَّبُوا القول؛ وَصَوَّبوا وصَعَّدوا، وقرّبوا و بَعَّدُوا[6] وَالتَأَم لهم مِنْ ذلك أنْ تَخْرُجَ طائفةٌ وَراءَ الأمير بِخْتِيار إلى الكُوفَةِ وَتلْقَاه وتُعَرِّفَه[7] ما قد شَمِلَ مدينة السلام من الأهتمام؛ وأنَّ الخوْفَ قد غَلَبَهم، وَأَنَّ الذُّعْرَ قد مَلَكَهُمْ؛ وأنهم يقولون: لو كان لنا خَليفةٌ أو أميرٌ أو ناظرٌ سائسٌ لم يُفْضِ الأمرُ إلى هذه الشناعة؛ وَأَنّ أميرَ المؤمنين المطيعَ لِله إنما وَلّاه ما وَرَاءَ بابه ليتيقَّظَ فى ليلِه، متفكراً فى مَصالح الرّعايا، وَيُنفِّذَ فى نَهارِه آمِراً وَناهِياً ما يَعُودُ بمَرَاشِدِ الدِّين، ومنافِعِ الدّانِينَ وَالقاصِين[8] وَإلّا فلا طاعة؛

(١) فى كلتا النسختين: «يرثوا» بالثاء وسقوط الهمز؛ وهو تحريف.

(٢) سوق يحيى كانت فى الجانب الشرقى من بغداد، كانت بين الرصافة ودار المملكة؛ وهى منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكى؛ وهى محلة ابن حجاج الشاعر المعروف.

(٣) فى (ب) «الزهرى» مكان «الزبيرى».

(٤) فى (ا) «ونابالسبعة» وفى (ب) «وبابالشيعة». وهو تحريف فى كلتا النسختين.

(٥) فى (ب) «الشامى».

(٦) فى (ا) «وقعدوا»؛ وهو تحريف.

(٧) فى (ب) «وتعلمه»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٨) كذا فى (ب). والذى فى (ا) «الواردين والقاصدين»؛ وما أثبتناه أولى بالسياق.

وكلاماً على هذا الطابَع ، وفى هذا النَّسْج ؛ فاتَّفقَ جماعةٌ على صَريمة الرأى فى الحركة إلى الكوفة ، منهم أبو كَعْب الأنصارىّ ، وأبو الحسن مِذْرَةُ القَوْم ، وعلىُّ ابنُ عيسى ، والعَوّامىّ ، وابنُ حَسّان القاضى صاحبُ الوُقوف ، وأبو أحمد الجُرْجانىُّ القاضى البليغ ، وابن سَيّار القاضى أبو بكر ، وأبو بكر الرازىّ .

وأما جُمَل ، فإنه ذَكَر ما به من وَجَع النِّقْرِس ، واستَعْفَى .

وأما أبو سَعيد السِّيرافىُّ ، فإنه ذَكر ضَعْفاً وسِنًّا ، وقال : أنا[1] أُعِينُ فى هذه النائبة بإقامة رَجُلٍ جَلْدٍ مُزاحِ العِلّة بالفَرَسِ والسِّلاحِ ، وقَعَدَ الجمُّ الغَفير ، وسارت الجماعةُ إلى الكوفة ، ولحقَتْ عِزَّ الدولة فى التَصَيُّد ، وانتظَرَتْهُ ؛ فلمّا عادَ قامَتْ فى وَجْهه واستأذَنَتْ فى الوُصولِ إليه على خَلْوَة وسكونِ بالٍ وقلّةِ شُغْل ؛ فلمْ يَلْتَفِتْ إليهم ، ولا عاجَ عليهم — وكان وافرَ الحظِّ من سُوء الأدب ، قليلَ التَّحاشى من أهْل الفَضْل والحِكمة — ثم قيل له : إنّ القومَ وَرَدُوا فى مُهِمٍّ لا يجُوزُ التغافُلُ عنه ، والإمساكُ دُونَه ، فأذِن[2] لهم بين المَغْرِبِ والعَتَمة ، فجَلَسُوا بحَضْرَته كما اتّفقَ من غيرِ ترتيب ، فقال : تكلّموا .

فقال أبو الوَفاء المُهَنْدِسُ لأبى بكر الرازىّ : تكلّمْ أيها الشيخ ، فإنّك رِضَا الجماعَة ، ومَقْنَعُ العصابة .

فقال أبو بكر : الحمد لله الّذى لا مَوْهِبَةَ إلاّ منه ، ولا بَلْوَى إلاّ بقَضائه ، لا مَفْزَعَ إلاّ إليه ، ولا يُسْرَ إلاّ فيما يَسّرَه ، ولا مَصلحةَ إلاّ فيما قدّرَه ؛ له الحُكْمُ وإليه المَصير ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد رسولِه المبعوث ، إلى الوارِث والمَوْروث ؛ أما بعد ، فإنّ الله [تعالى] قد حَضَّ على الجهاد ، وأمَرَ بإعزاز الدِّين ،

(١) فى (ا) « لنا » ، وهو تحريف .
(٢) فى (ب) « فأمر » .

والذَّبِّ عن الحَرِيم والإسلام والمسلمين فى الدهر الصالح، والزمان المطمئنّ؛ فكيف إذا اضطرب الحَبْلُ وانتكثَتْ مَرِيرَتُه، وأُبْرِزَ مَصُونُه، وعُرِّىَ حَرِيمُه بالاستباحة؛ ونِيلَ جانبُه بالضَّيم، وضُعْضِع مَنارُه بالرَّغْم، وقُصِدَ رُكْنُه بالهَدْم، وأنت أيها[(١)] المولى من وراء سُدّة أمير المؤمنين المطيع لله، والحاملُ لأعباء مُهمّاته، والناهضُ بأثقال نوائبه وأحداثه؛ والمَفْزَعُ إليك، والمُعوَّل عليك، فإنْ كانَ مِنْكَ جِدٌّ وتَشمِيرٌ فما أقْرَبَ الفَرَجَ مِمّا قد أظَلّ وأزْعَج، وإنْ كانَ مِنْكَ تَوانٍ وتَقْصِيرٌ فما أصْعَبَه منْ خَطْب؟ وما أبْعَدَه منْ شَعْب!! وقد جئناكَ نُحَقِّقُ عندكَ ما بَلَغَكَ من تَوَسُّط هذه الطاغية أطْرافَ الوَصِل وما والاها، وأنّ الناسَ قد جَلَوْا عن أوْطانهم، وفُتِنُوا فى أدْيانهم[(٢)] وضَعُفوا عن حقيقة إيمانهم؛ للرُّعْبِ الذى أذْهَلَهم، والخَوْفِ الّذى وَهَلَهُمْ؛ وإنّما هم بَيْنَ أطْفالٍ صِغار، ونِساء ضِعاف، وشيوخٍ قد أخَذَ الزمانُ منهم، فهم أرْضٌ لكلِّ واطئٍ، ونَهْبٌ لكلِّ يد؛ وشَباب لا يقفُون لعدوِّهم لقِلّة سلاحِهم، وسُوء تأتِّيهم[(٣)] فى القِراع والدِّفاع؛ ونحن نَسْألُكَ أن تتوخّى فى أُمّة محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم ما يُزْلِفُكَ عنده، ويكونُ لك فى ذلك ذُخْرٌ منْ شَفاعَته وبختيارُ مُطْرِق.

ثم اندَفَع علىُّ بنُ عيسى فقال: أيّها الأمير، إنّ الصغيرَ يُتدارَكُ قَبْل أن يَكْبُر، فكيفَ يَجُوز ألاّ يُسْتَقْبَلَ بالجِدِّ والاجتهاد وهو قد عَسَا وَكَبُر. والله إنْ[(٤)] بنا إلّا أنْ يَظُنَّ أهْلُ الجَبَلِ وأذْرَبِيجانَ وخُراسانَ أنّه ليس لنا ذابٌّ

(١) كذا فى (ب). وعبارة (١) «وأنت أمير الأمير المولى ما وراء سيده»، ولا يخفى ما فيها من اضطراب.
(٢) فى (١) «ديارهم»؛ وهو تحريف.
(٣) كذا فى (ب)؛ والذى فى (١) بأسهم؛ وهو تحريف إذ أن سوء البأس فى هذا الوضع مما يحمد لا مما يعاب.
(٤) «إن» فى هذا الموضع نافية بمعنى «ما».

عن حَرِيمِنا ، ولا ناصِرٌ لِدِينِنا ، ولا حافظٌ لبَيْضَتِنا ، ولا مُفَرِّجٌ لـكُرَبِنا ، ولا مَنْ يَهُمُّه شيءٌ مِنْ أُمُورِنا ، فاللهَ اللهَ ، لا تُجَرِّئَنَّ علينا شُمَّاتَتَهُمْ بنا ، وخُذْ بأَيْدِينا بقُوَّتِكَ ، وحُسْنِ نِيَّتِك ، وحَمِيدِ طَوِيَّتِك ، وعِزِّكَ وسُلْطانِك ، وأوليائِكَ وأعْوانِك ، وأَكْتُبْ قبل هٰذا إلى عُدَّةِ الدَّوْلَةِ بما يَبْعَثُه على حِفْظِ أطْرافِه ، وحِرَاسَةِ أكْنافِه ، مع أستِطْلاعِ الرَّأيِ مِنْ جِهَتِك ، ومُطالَعةِ أمير المؤمنين برأيكَ وَمَشُورَتِكَ .

ثم رفع الأنصاريُّ رأسَه وقال : ليس فى تَـكْرِيرِ الـكلام — أطال الله بقاء الأمير — فائدةٌ كبيرة ، ولئن كانَ الإيجازُ فى هٰـذا الباب لا يَكْفِى ، فالإطنابُ فيه أيضاً لا يُغْنِى ، والله لو نَهَضْتَ بنا ونحن أحْرَاضٌ[1] كما تَرَى لا نُقلِّب مِخْصَرَةً[2] بكَفّ ، ولا نَرْمِى دُحْروجَةً[3] بيَد ، ولا نَعْرِفُ سِلَاحًا إلا بالاسم ، لَنَهَضْنا وسِرْنا تحت رَايَتِك ، وتَصرَّفنا بين أمرِكَ ونَهْيِك ، وفَدَّيْناك بأرْوَاحِنا ضَنًّا بك ، وبعثْنا عَلَى مِثل ذلك أحداثَنا وأوْلادَنا الذين رَبَّيْناهم بِنِعْمتِك ، وخَرَّجْناهم فى أيامِك ، وأدَّخَرْناهم لِلنَّوازِلِ إذا قامت ، والحوادثِ إذا تَرَامَت ، فإن كان فى المال قِلَّةٌ فَخُذْ مِنْ مُوسِرِنا ومَنْ له فَضْل فى حالِه ، فإنه يُفرِج عنه طاعةً لك ، وطَمَعًا فيما عِندَ اللهِ من الثَّوَاب .

---

(١) فى (ب) «أحراس» بالصاد ؛ وهو تصحيف . والأحراض : جمع حرض بالتحريك وهو الكالّ المعى والمشرف على الهلاك .

(٢) فى (١) «محصره» بالحاء المهملة ؛ وفى (ب) «محضرة» بالحاء المهملة والضاد المعجمة وهو تصحيف فى كلتا النسختين . والمخصرة : ما يتوكأ عليه من عصا ونحوها .

(٣) فى كلتا النسختين «بحبوحة» وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والدحروجة : ما يدحرجه الجعل من البندق ، أو لعله حَدَجة بالتحريك يقال تراموا بالحدج وهو الحنظل الصغير .

وقال العَوّامِىّ[(١)] : واللهِ ما سُمِّيتَ لِلدَّوْلةِ عِزًّا ، إلا لِأنَّ اللهَ — تعالى — قد ذَخَرَكَ للمُسْلِمين كَنزًا ، وجعل لهم على يَدَيْكَ و بتدبيرِكَ راحةً وفَوْزًا ، ولم يُعَرِّضْكَ لهذه الفَادِحَةِ إلاَّ ليَخُصَّكَ بانفِرَاجِها [عَلَى يَدِكَ] وَيُبْقِى لك بها ذِكْرًا يطبِّقُ الأرْض و يبْلُغَ أُمَرَاءَ خُرَاسانَ ومِصْرَ والحِجَازِ واليَمَنِ فيُصِيبَهُم الحَسَدُ على ماهَيَّأَ[(٢)] اللهُ لك منها .

ونَظَرَ بَخْتيَارُ إلى ابْنِ حَسَّان القاضى — وكانَ مُنْبَسِطًا مَعَه لِقديمِ خِدْمَتِه — فقال : أيُّها القاضى ، أنتَ لا تقول شيئًا ؟ قال : أيُّها الأمير ، وما القَوْلُ وعِنْدَكَ هؤلاء العلماء ، والمَصَاقِعُ الألِبَّاء ؛ و إنَّ سِرَاجى لا يَزْدَهِرُ فى شَمْسِهِمْ ، و إنَّ سَحَابتى لا تبلّ على بُلالِهِم[(٣)] : وقد قالوا فأنْعَمُوا[(٤)] ، وَجَرَوْا[(٥)] فأمْعَنوا ، وليس قُدَّامَهم إمام ، ولا وراءَهُمْ أمام ؛ لـكِنِّى أقول : ما جَشَّمْنَا إليكَ هـذه الـكُلَفَ إلّا لتنظُرَ على ضَعْفِ أرْكَانِنا ، وعُلُوِّ أشْنَانِنا[(٦)] وقلّة أعْوانِنا[(٧)] ، لأنّا[(٨)] رَأيْنَاكَ أهْلاً للنّظَر فى أمرنا ، والاهْتِمام بحالِنا ، وبما يعودُ نَفْعُه على صغيرِنا و كَبيرِنا .

فقال عِزُّ الدولة : ما زُوِىَ عَنِّى ما طَرَقَ هذه البلاد ، ولقد أشْرَفْتُ عليه ، وفـكَّرْتُ فيه ، وَما أحْبَبْتُ تَجَشُّمَ هذه الطائفةِ عَلَى هذا الوَجْه . وَما أعْجَبَنِى

(١) فى كلتا النسختين : « العراق » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا مما سبق .
(٢) فى (ب) « وهب » مكان قوله « هيأ » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٣) البلال بكسر الباء وضمّها : الماء .
(٤) أنعموا : جوّدوا .
(٥) فى (١) « وحرروا » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى كلتا النسختين : « شأننا » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، كما أن فى (١) وحدها « وغلو » بالغين المعجمة مكان المهملة ؛ وهو تصحيف أيضاً .
(٧) فى (١) « إخواننا » ؛ وهو تحريف .
(٨) فى كلتا النسختين : « لـكنا » ؛ وهو تحريف ، فإن الاستدراك هنا غير مفهوم .

هـذا التقريعُ مِنَ الصَّغيرِ والـكبير ، وما كانَ يَجُوز لى أن أَنعَسَ عَلَى هـذه الـكارثَة ، وأَنعَمَ بالعَيْشِ مَعها ، ولَعَمْرِى إنَّ الغَفْلَةَ [علينـا] أَغْلَب ، والسَّهوَ فينا أَعْمَل ، ولـكن فيما رَ كِبْتِمُوه[1] مِنّى تَهْجِينٌ شديد ، وتو بيخٌ فاحش ، و إنَّ هذا المجلس لِمَّا يُتَهَادَى حَدِيثُه بالزَّائِد والناقِص ، والحَسَنِ والقَبيح ، و إنّـكم لَتظنّون أنّـكم مَظلُومُون بسلطانِي عليكم ، ووِلاَيَتِي لِأُمُورِكم ؛ كلاَّ ، ولـكن كما تـكونون يُوَلَّى عليكم ؛ هكذا قَوْلُ صاحب الشَّرِيعَة فينَا وفيكُم ؛ واللهِ لوْ لم تَـكُونوا اشْبَاهى لَما وَلِيتُـكُمْ ، وَلَوْ لا[2] أنِّى كَوَاحِدٍ مِنكم ، لَمـا جُعِلْتُ قَيِّماً عليكم ؛ ولو خَلَا كلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بعَيْبِ نفْسِه لَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَسَعُه وَعْظُ غَيْره ، وتَهْجِينُ سُلْطَانِه ؛ أَيَظُنُّ هٰذَا الشيخُ أبو بكر الرَّازىُّ أنِّى غيرُ عَالِمٍ بنِفَاقِه ، ولا عارفٍ بمـا يشتمل عليـه مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّه ؛ يَلْقَانى بوَجهٍ صُلْب ، ولسانٍ هَدَّار يُرِى مِنْ نَفْسِهِ أنه الحَسَنُ البَصرِىّ يَعِظُ الحَجَّاج بنَ يُوسُف ، أو وَاصلُ بنُ عطاء يأمُرُ بالمَعْرُوف ، أو ابن السماكِ يُرْهِبُ الفُجّار ؛ هٰذا قَبيح ، ولو سكتُّ عن هٰذا لـكان عِيًّا وعَجْزًا ؛ جَزَى اللهُ أبا عَبْد الله شيخَنا خيْرًا حينَ جَلَس ، وكذٰلك أَحْسَنَ اللهُ عنّا مكافأَةَ أبى سَعِيدٍ السِّيرَافىّ ، فإنَّه لَوْ عَلِمَ أنَّ فى مُسَاعَدَتِـكُمْ رُشدًا لَمَا تَوَقَّف ؛ وأمّا أنتَ يا أبا الحَسَن — يُرِيد علىَّ بنَ عيسى — فوَحَقِّ أَبِى إنِّى لَأُحِبُّ لِقَاءَك ، وأُوثِرُ قُرْبَكَ ، ولولا ما يَبْلُغُنِى مِنْ مُلَازَمَتِكَ لمجلِسك ، وتَدْرِيسِكَ لمُختلِفَتِك[3] ، و إِكْبَابِكَ عَلَى كِتابِكَ فى القُرْآن ، لغَلَّبْتُك على زَمَانِك ، ولا أَستَـكْثَرْتُ مِمَّا قَلَّ حَظِّى منه فى هـذِه الحـال التى أ نا مَدْفُوعٌ

(١) فى (١) « رأيتموه من » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (١) « ولو أنى » ؛ ولا يستقيم به المعنى .
(٣) المختلفة : الذين يتعلمون منه .

إليها ، فإنها وَازِعَةٌ على هَوَى النَّفْس ، وطاعةِ الشيطان ، ومُنَازَعةِ الأَكْفاء ، وجَمْعِ المالِ ، وَأَخْذِهِ منْ حَيْثُ يجبُ أولا يَجِبُ ، وتَفْرِقَتِهِ فيمن يَسْتَحِقُّ ومن لا يَسْتَحِقّ ، وإلى اللهِ أَفْزَعُ فى قَلِيلِ أَمْرِى وكثيرِه ، إذا شِئْتم .

قال لى أبو الوَفاء — وهو الّذِى شَرَحَ لى المجلسَ مِنْ أَوّلِه إلى آخِره — : لقد شاهدتُ من عِزّ الدولة فى ذلك المجلس المنصورَ(١) فى جِدِّه وشَهَامَتِه ، وثباتِ قَلْبِه وقُوّةِ لِسانِه ، مع بَحَحٍ لَذِيذٍ ولُثْغَةٍ حُلْوَة .

قال : ولقدقُلتُ له بعدذلك : أيُّهَا الأمير ، ما ظننتُ أنك إذاخَلَعْتَ رِدَاءك ونَزَعْتَ حِذاءك تَقُول ذلك المقال ، وتَجُولُ ذلك المجال ، وتَنالُ ذلِكَ المنال ، لقد انصرَفَ ذلِكَ الرّهْطُ عَلَى هَيْبَةٍ لَكَ شَدِيدة ، وتعظيمٍ بالغ ، ولقد تَدَاوَلوا لفظَكَ ، وتَتَبّعُوا مَعَانِيَكَ ، وتَشَاحُّوا(٢) عَلَى نَظْمِك ، وقالوا : ما يَنْبَغِى لأَحَدٍ أنْ يُسِيء ظَنّه بأَحَدٍ إلّا بَعْدَ الخِبْرَةِ والعِيان ، وإلّا بَعْد الشّهَادَة والبَيَان ؛ أهذا يقال له مُتَخَلِّف أو ناقِص ؟ لِلّهِ دَرُّه من شَخْص ! ولله أبوه مِنْ فتًى مِدْرَه !

ولما بلَغَ هذا المجلسُ الّذين قَعَدُوا عن المَسِير إليه — أَعْنِى عِزّ الدولة — حَمِدُوا اللهَ تعالى ، وعَلِمُوا أنّ الخِيرَةَ كانت قَرِينةَ اخْتِيَارِهم .

قال الوَزِير : قرأتُ ما دَوّنه الصّابى أبو إسحاق فى (التّاجِيّ) فما وَجَدْتُ هذا الحديث فيه . قلتُ : لعلّه لم يَقَعْ إليه ، أو لعلّه لم يَرَ التّطويلَ به ، أو لعلّهُ لم يَسْتَخِفَّ ذِكْرَ عِزّ الدّولة على هذا الوجه . قال : هذا مُمْكِن ؛ فهل سمِعْتَ فى أيام الفِتْنَةِ بِغَرِيبة ؟

---

(١) يريد بالمنصور أبا جعفر الخليفة العباسيّ المعروف .

(٢) تشاحّوا على نظمك ، أى أن كلا منهما ضنّ بما يحفظه منه على صاحبه ، وفى (ب) « وتسابحوا » ؛ وهو تحريف .

قلتُ : كلُّ ما كنّا فيه [كان] غريباً بديعاً ، عَجيباً شنيعاً ، حَصَلَ لَنا مِنَ العَيّارِين قُوّاد(١) ، وأشهَرُهم(٢) ابن كَبْرَوَيه ، وأبو الدُّود(٣) ، وأبو الذُّباب ، وأَسْوَدُ الزُّبْد ، وأبو الأَرَضَة(٤) ، وأبو النَّوابح ، وشُنَّت الغارة ، واتّصل النَّهْب ، وتَوالَى الحَرِيقُ حتى لم يَصِلْ إلينا الماء من دِجْلَة ، أَعْنِي الكَرْخ .

فمِنْ غريبِ ما جرَى أنّ أَسْوَدَ الزُّبْدِ كان عَبْدًا يَأوِى إلى قَنْطَرَة(٥) الزُّبْدِ ويَلتَقِطُ النَّوَى ويَسْتَطْعِمُ مَنْ حَضَرَ ذلِك المكان بِلَهْوٍ ولَعِب ، وهو عُرْيانُ لا يَتَوارَى إلا بخِرْقَة ، ولا يُؤْبَه له ، ولا يُبالَى به ، ومَضَى عَلَى هذا دَهر ، فلما حَلّتِ النَّفْرة(٦) أعنِي لمّا وَقَعَت الفِتنة، وفَشَا الهَرْجُ والمَرْج ، ورَأَى هذا الأَسْوَدُ من هو أَضْعَفُ منه قد أَخَذَ السَّيْفَ وأَعْمَلَه ، طلَبَ سَيْفاً وشَحَذَه ، ونَهَبَ وأغارَ وسَلَبَ ، وظَهَرَ منه شيْطانٌ فى مَسْكِ إنسان ، وصَبُحَ وَجْهُه ، وَعَذُبَ لَفْظُه ، وحَسُنَ جِسْمُه ، وعُشِقَ وعَشِق ، والأيّامُ تأتى بالغرائب والعجائب ، وكان الحسنُ البَصْرِيّ يقول فى مَوَاعِظه : المعتبَرُ كثير ، والمعتبِر قليل . فلمّا دُعِيَ قائداً وأطاعَه

(١) فى (ا) « قول » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ب) « وأسماؤهم » .
(٣) فى كلتا النسختين : « وابن الرود » بالراء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا ، إذ هو المناسب لأسماء هؤلاء الذين ذكرهم .
(٤) كذا فى (ا) والذى فى (ب) « أبو الأرى » .
(٥) فى كلتا النسختين : « الريد » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب بغداد للأستاذ لوسترانج Le Strange ؛ ولعلهم كانوا يبيعون الزبد عند هذه القنطرة فأضيفت إليه وهى قنطرة البطريق أيضاً . وفى ياقوت : قنطرة رحى البطريق ، وهى على نهر الصراة .
(٦) فى (ا) : « حلف الخنصرة » وفى (ب) « حلب البقرة » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

رِجالٌ وأعطـام وفرّق[١] فيهم ، وطلبَ الرّآسةَ عليهم ، صار جانبُه لا يُرَام ، وحِمَاه لا يُضَام .

فمِمَّا ظَهَرَ من حُسْنِ[٢] خُلُقه — مع شَرَّهِ[٣] ولَعْنَتِه ، وسَفْكِه الدَّم ، وَهَتْكِهِ الحرْمة ، ورُكُوبه للفاحشة ، وتمرُّدِه عَلَى رَبِّه القادِر ، ومالِكِهِ القاهِر — أنّه اشْتَرَى جارِيةً كانت فى النَّخَّاسِين عِند المَوْصِلِيِّ بألف دينار ، وكانت حَسْناء جميلة ، فلمّا حَصَلَتْ عندَهُ حاوَلَ منها حاجَتَه ، فامتنعَتْ عليه ، فقال لها : ما تَكْرَهِين مِنِّى ؟ قالت : أَكْرَهُك كما أنت . فقال لها : فما تُحِبِّين ؟ قالت : أن تبيعنى ، قال لها : أو خَيْرٌ مِنْ ذلك أعْتِقُك وأَهَبُ لكِ ألفَ دينار ؟ قالت : نعم ، فأعْتَقَها وأعطاها ألفَ دينار بحَضْرَة القاضى أبنِ الدَّقاق عند مسجد أبن رَغْبَان[٤] فعَجِبَ الناس من نفسِه وهِمَّتِهِ وسماحَتِهِ ، ومن صَبْرِه عَلَى كلامِهَا ، وتَرْكِ مُكافأتِهَا على كَرَاهتِهَا ، فلو قتلها ما كان أتَى ما ليْسَ مِنْ فِعْلِهِ فى مِثْلِها .

قال الوزير : هٰذا وَالله طَرِيف ، فما كان آخِرُ أمْره ؟ قلتُ : صارَ فى جانب أبى أحْمَدَ المُوسَوِيِّ وحِمَاه ، ثم سيَّرَه إلى الشأم فهَلَكَ بها .

قال : وكيف سَلِمتَ فى هذه الحالات ؟ قلتُ : ومتى سَلِمتُ ؟ جاءتِ النَّهَّابة إلى بَيْنَ السُّورَيْنِ[٥] وشَنُّوا الغارَة واكْتَسَحوا ما وَجَدُوا فى مَنْزِلى من ذَهَب وثِيابٍ وأثاث ، وما كنتُ ذَخَرْتُه من تُرَاث العُمْرِ ؛ وجرَّدوا السَّكاكين

(١) فرق فيهم ، أى فرق الأعطية فيهم .
(٢) فى (١) « من خلق » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (١) « شرهه » ؛ والهاء الأولى زيادة من الناسخ .
(٤) مسجد ابن رغبان فى غربى بغداد . والذى فى (١) ابن رعبان بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف .
(٥) إلى بين السورين ، أى إلى هذه المحلة المسماة بهذا الاسم فى بغداد .

على الجارية فى الدّار يطالبونها بالمال ، فأُنشقت مرارتُها ، ودُفِنَتْ فى يومها ، [وأمسَيْتُ] وما أملك مع الشيطان فَجْرَةً[1] ، ولا مع الغراب نقْرَةً .

أيُّها الشيخ — وفّقكَ الله فى جميع أحوالك ، وكان لك فى كلّ مقالك وفعالك — إنما نثرْتُ بالقَلَمِ ما لاقَ به ؛ فأمّا الحديثُ الّذِى كانَ يَجْرِى بيْنِى وَبيْنَ الوزير فكان على قَدْرِ الحال والوقتِ [والواجب] ؛ والاتّساعُ يَتبَعُ القَلَمَ ما لا يَتْبَعُ اللّسان ، والرّوِيّةُ[2] تَتْبَع الخطّ ما لا تتْبَع العبارة ، ولما كان قَصْدِى فيما أعْرِضُه عليك ، وأُلقِيه إليك ، أن يبقى الحديثُ بَعْدى وبَعْدَك ، لم أجِدْ بُدًّا من تنميقٍ يَزْدَانُ بِهِ الحَدِيث ، وإصْلاحٍ يَحْسُنُ معه المَغْزَى ، وتكلّفٍ يَبْلُغ بالمُراد الغاية ، فليَتِمّ العُذْرُ عِندكَ على هذا الوَصف ، حتى يَزُول العَتْب ، ويُستَحَقّ الحَمْدُ والشُّكْر .

الليلة التاسعة والثلاثون

(١) وقال الوزير ليلة : يعجبنى الجوابُ الحاضر ، واللفظ النادِر ، والإشارة الحُلْوَة ، والحركة الرَّضِيّة ، والنَّغْمَةُ المُتَوَسّطة ، لا نازلةً إلى قَعْرِ الحَلْق ، ولا طافِحَةً على الشفة .

فكان من الجواب : اقْتِراح الشىء على الكمال سَهْل ، ولكنّ وِجْدَانه

(١) فى (ا) « نحوه » . وفى (ب) « نخرة » وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا ، أى لا أملك ما أفجر به فجرة واحدة مع الشيطان . ويشبّهون العجلة فى السجود بنقر الغراب ، فيريد بالعبارة الثانية أنه لا يملك سجدة مستعجلة مع الغراب تشبه نقرة من نقراته . ويريد بالعبارتين أنه لا يملك عملا خبيثاً ولا طيباً مهما قلّ . هذا ما يلوح لنا من معنى هاتين العبارتين .

(٢) فى الأصول : « والرق به يتسع الخط ما لا تسع الخ » وهو تحريف ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

على ذلك صَعْب ، لأنّ التّمنّي صَفوُ النّفس الحِسّيّة ، ونَيْلَ المتمنَّى فى الفُرْصَة[1] المحْشُوّة بالحَيْلولة .

وقد قال المدائِنيُّ : أحسنُ الجواب ما كان حاضرًا مع إصابَةِ المعْنى وإيجاز اللّفظِ وبُلوغ الحجّة .

وقال أبو سليمان شارحاً لهذا : أمّا حُضور الجَوابِ فلِيَكُونَ الظّفَرُ عند الحاجة ، وأما إيجاز اللفظ فلِيَكونَ صافيًا من الحشو ، وأمّا بُلوغُ الحجّةِ فلِيَكُونَ حَسْماً للمُعارَضة .

قال : ما أحْسَنَ ما وَشّحَ هذِه الفقْرَة بهذِه الشّذْرَة !

وحَكَى المدائنيّ قال : قال مَسْلَمَةُ بنُ عَبْدِ المَلِك : ما مِنْ شىء يؤتاهُ العَبْدُ بعد الإيمانِ باللهِ أحَبُّ إلىّ من جَوابٍ حاضِر ، فإنّ الجَوَابَ إذا تُعُقِّبَ لم يَكُن له وَقْع .

وحَكَى المدائنيُّ بإسنادِهِ عن عَبْد الرّحْمن بن حَوْشَب أنّ رَسُولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال لعَمْرو بن الأهْتَمِ التّميميّ : أخْبِرْني عن الزِّبْرِقَان بن بَدْر ، فقال : مُطاعٌ فى أدْنَيه ، شديد العارِضَة ، مانِعٌ لِمَا وَرَاء ظَهْرِهِ . فقال الزِّبْرِقان : يا رَسول الله ، إنه ليَعْلَمُ مِنّى أكثرَ مِنْ هذا ، ولكنّهُ حَسَدَنى ، فقال عمرو : أمَا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ إنّهُ لَزَمِرُ[2] المروءة ، ضَيِّقُ العَطَن ، لئيمُ الخال ، أحْمَقُ الوالِدِ ، وما كَذَبْتُ فى الأولى ، ولقد صَدَقْتُ فى الأخرى ، ولقد رَضِيتُ فقلتُ أحْسَنَ ما عَلِمت ، وسَخِطْتُ فقلتُ أسْوَأَ ما عَلِمْتُ . فقال رَسُولُ اللهِ صَلّى الله عليه وسلم : « إنّ من البَيَان لَسِحْرًا وإنّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمًا » .

(١) فى (١) « فى العرضة » ؛ وفى (ب) « فى العرض » وهو تحريف فيهما .
(٢) فى كلتا النسختين : « زمن » بالنون ؛ وهو تحريف ؛ وزمر المروءة : قليلها .

وقال أبو سليمان : السِّحْرُ بالقَوْلِ الأعَمِّ والرَّسمِ المُفيدِ على أرْبَعةِ أضْرُب : سِحْرٌ عَقْلِيٌّ ، وهو ما بَدَرَ من الكلام المشتمِلِ على غريب المَعْنَى في أيِّ فنٍّ كان ؛ وسِحْرٌ طَبيعيٌّ ، وهو ما يَظْهَرُ مِنْ آثارِ الطبيعةِ في العَناصِرا المُتَهَيِّئَة(١) والموادِّ المُسْتَجيبَة(١) ، وسحرٌ صِنَاعيٌّ ، وهوما يوجَدُ(٢) بخِفَّةِ الحركات المباشِرَة ، وتصريفها في الوُجوهِ الخَفِيَّة عن الأبصار المُحَدِّقَة ، وسِحْرٌ إلهي وهو ما يَبْدُو من الأنفُسِ الكَرِيمة الطَّاهِرَة باللَّفظِ مرَّة ، وبالفِعْلِ مَرَّة . وعَرْض كلٍّ واحدٍ من هذه الضُّرُوب واسِع ، وكلٌّ حِذْقٍ ومهارَةٍ وبلوغِ قاصِيَةٍ في كلِّ أمْرٍ هو سِحْرٌ ، وصاحبُه ساحِرٌ .

وقال المدائني : نظرَ ثابت بنُ عبد الله بنِ الزُّبَيْر إلى أهل الشام فشَتَمَهُم ، فقال له سعيدُ بنُ عُثمان بن عَفَّان ، أتَشْتُمُهُمْ لأنَّهُمْ قَتلُوا أباكَ ؟ فقال : صَدَقْتَ ، ولكنَّ المُهاجِرينَ والأنْصارَ قَتَلُوا أباكَ .

وقال عبدُ المَلك بنُ مَرْوَان لثابتِ بن عبد الله بن الزُّبَيْر : أبُوكَ كانَ أعلَمَ بك حين شَتَمَكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتَدْرِي لِمَ كان يَشْتُمُني ؟ إنِّي نَهَيْتُه أن يُقَاتِلَ بأهْلِ مَكَّةَ وأهْلِ المَدِينَة ، فإنَّ اللهَ لا يَنْصُره بهما ، وقلتُ له ، أمَّا أهلُ مكَّة فأخرَجُوا رسُولَ اللهِ صلَّى الله عليه وعلى آلهِ وسلَّمَ وأخافُوه ، ثم جاؤا إلى المَدينةِ فأخْرَجَهُمْ مِنْهَا وشَرَّدَهُمْ .

فعَرَّضَ بالحَكَمِ بنِ أبي العاص — وهو جَدُّ عبدِ المَلِك — وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ نفَاهُ .

(١) ورد في (ب) هذان اللفظان « التهيئة والمستجيبة » مهملة حروفهما من النقط تتعذر قراءتهما .

(٢) في (ا) يؤخذ .

وأمّا أهْلُ المدينةِ فخذلوا عُثمانَ حتّى قُتِلَ بينهم ، لم يرَوْا أنْ يدفعُوا عنه . فقال له عبدُ الملك : لَحَاكَ اللهُ .

وقال عبْدُ الرّحمٰن بنُ خالِد بنِ الوَليدِ لِمُعَاوِيَةَ : أما واللهِ لو كنتَ بمكّة لَعلِمْتَ ، فقال معاوية : كنتُ أكونُ ابنَ أبي سُفْيان يَنْشَقُّ عنى الأبْطَح ، وكنتَ أنتَ ابنَ خالِدٍ مَنْزِلُكَ أجْياد ، أعْلاهُ مَدَرَة ، وأسْفَلُهُ عَذِرَة .

وقال المَدَائِنِيّ : قال أبُو الضحّاك بن قيس الفِهْرِيّ[1] لهشام بنِ عبدالملك قبل أنْ يَمْلِك — وهو يومئذ غلامٌ شابّ — يا بن الخَلَائف ، لم تُطِيل شَعرَكَ وقميصَك ؟ قالَ أكْرَهُ أنْ أكُونَ كما قالَ الشاعر :

قصيرُ القَمِيصِ فاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ   وشرُّ غِراسٍ في قُرَيْشٍ مُرَكّبا[2]

قال : وهٰذَا الشعرُ لأبى خالِدٍ[3] مروانَ بن الحَكَم ، هَجَا به الضَّحَّاك ابن قيس .

وحَكَى أيضاً ، قال : مرّ عَطاءُ بنُ أبى[4] صَيْفِيّ بعبد الرحمن بن حسّان ابنِ ثابتٍ وعَطاءٌ على فَرَسٍ له ؛ فقال له عبد الرحمن : يا عَطَاء ، لو وجدتَ زِمَامَ زِقِّ الخمر خالياً ما كنتَ تَصْنَعُ به ؟ قال : كنت آتى به دُورَ بَنِي النَّجّار فأعَرِّفُه فإنّهُ ضالّةٌ من ضوالِّهم ، فإنْ عرَفُوه[5] وإلّا فهوَ لَكَ لمْ يَعْدُكَ ، ولكن

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « العنزى » ، وهو تحريف .
(٢) المركب : الأصل والمنبت . وفى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « فركبا » وهو تحريف لا معنى له . وفيها أيضا « فراش » مكان « غراس » ؛ وهو تحريف .
(٣) لم نجد فى الكتب التى بين أيدينا أن أبا خالد كنية لمروان بن الحكم .
(٤) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة : قال ابن عطاء مر ابن صيفى . وفى العبارة اضطراب ظاهر لا يستقيم به المعنى ، كما لا يخفى .
(٥) حذف الجواب هنا للعلم به وهو « فهو لهم » .

أَخْبِرْنى أيُّ جدَّيْكَ أكْبَر، أَفُرَيْعَةُ أَمْ ثابِت؟ قال: لا أدْرِى. قال: فلِمَ يَغْنيك[1] ما فى كَنَائِنِ الرِّجال وأَنْتَ لا تدْرِى أىُّ جَدَّيْكَ أكبَر؟ بل فُرَيْعَةُ أكْبَرُ مِنْ ثابت، وقد تزَوَّجَهَا قَبْلَه أَرْبَعَةٌ كلُّهم يَلقاها بِمِثْلِ ذِرَاعِ البَكْرِ، ثم يُطَلِّقُهَا عَنْ قِلًى؟ فقال لها نِسْوَةٌ من قَوْمِهَا: والله يا فُرَيْعَةُ إنَّكِ لَجَمِيلَة، فما بال أَزْوَاجِكِ يُطَلِّقُونَكِ؟ قالت: يُرِيدُون الضِّيقَ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِم.

وحَكَى أيضاً قال: قال أبو السَّفَر: بَيْنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عليه وسلّم يسيرُ إذ رُفِعَ بينَ مكةَ والمدينة قبرُ أبى سَعِيدِ بن العاص، فقال أبو بكر: لَعَنَ الله صاحِبَ هٰذا القبر، فإنه كان يُكذِّبُ اللهَ ورَسولَه، فقال [خالد بنُ][2] أسِيد — وهو فى القوم —: لا بل لَعَنَ اللهُ أبا قُحَافَةَ فإنه كانَ لا يَقْرِى الضيفَ، ولا يَمْنَعُ الضَّيْمَ، ولا يُقَاتِلُ معَ رَسُولِ الله صلّى الله عليه وسلّم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إذا سَبَبْتُم المُشْرِكُون فعُمُّوهم بالسَّبّ، ولا تَسُبُّوا الأمواتَ فإنّ سبَّ الأمْوَات يُغْضِبُ الأحْيَاء؟».

قال محمدُ بنُ عُمَارة: فذاكرتُ بهٰذا الحديث رَجُلا من أصحاب الحديثِ مِنْ وَلَدِ سعيدِ بنِ العاص، فعَرَفَه، فقال: فيه زيادة ليست عندكم، قلت: وما هى؟ فقال: قال خالدُ بنُ أسِيد: يا رَسولَ الله، والّذى بَعَثَكَ بالحق ما يَسُرُّنى أنّه فى أعْلَى عِلِّيِّينَ وأنَّ أبا قُحَافَةَ وَلَدُه. فضَحِك رَسولُ الله صلى الله عليه وسلّم حتى بَدَتْ نواجِذُه، وقال: «لا تَسُبُّوا الأمواتَ فإنَّ سَبَّهُمْ يُغْضِبُ الأحْيَاء».

---

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة: «ينهيك»؛ وهو تحريف.

(٢) هذه التكملة التى بين مربعين لم ترد فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة والسياق يقتضى إثباتها إذ أن أسيدا أبا خالد لم يكن مع القوم.

وحكى قال : رمى عُمَرُ بن هُبَيْرَة الفزاريُّ إلى عُرَام بن شُتَيْر[1] بخاتمٍ له فضّة — وقد زُوِّجَ — فعقد عليه عُرَام سَيْرًا وردّهُ إلى ابنِ هُبَيْرَة. أراد ابنُ هُبَيرة قولَ الشاعر :

لقد زَرِقتْ عَيْناكَ يا بْنَ مُلَمَّنٍ ... كما كلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤمِ أزرقُ

وعرّض له عُرام بقول ابن دارة :

لا تأمَنَنَّ فزاريًّا خلوتَ به ... على قَلوصِك واكْتُبْها بأسْيار[2]

وقال المدائني : وكان ابنُ هُبَيْرَة يُسايرُ هلالَ[3] بن مُكَمّل النُّمَيري ، فتقدّمتْ بغلةُ النُّميريِّ بغلةَ ابن هُبَيْرَة . فقال : غُضَّ من بَغلتِك . فالتفت إليه النُّميريّ فقال : أصلحَ اللهُ الأمير ، إنّها مَكتوبة ، وإنما أرادَ ابنُ هُبَيْرَة :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلابا[4]

وأرادَ النُّميريُّ قولَ سالمِ بنِ دارَة :

لا تأمَنَنَّ فَزاريًّا خَلوتَ بِهِ ... على قَلوصِك واكْتُبْها بأسْيار

وقال الوليد العَنْبَرِيّ[5] : مرّت امرأةٌ مِنْ بَني[6] نُمَير على مجلسٍ لهم ، فقال رجل منهم : أيتها الرسحاء[7] . فقالت المرأة : يا بني نُمَيْر ، والله ما أطعتم

(١) كذا في تاريخ الطبري طبع أوربا . والذي في (١) التي وردت فيها وحدها هذه القصة « شنير » بالنون ، وهو تصحيف .

(٢) اكتبها بأسيار ، أي اخزم حياءها لئلا ينزى عليها .

(٣) في العقد الفريد « سنان بن مكمل » . وفي نهاية الأرب أيوب بن ظبيان ، وفي كتاب الكناية والتعريض للثعالبي « شريك بن محمد » .

(٤) البيت لجرير .

(٥) في (١) التي وردت فيها وحدها هذه القصة « النيدي » ، ولم نجد الفيدي هذا ضمن أسماء الرواة ، والذي وجدناه في أسمائهم الوليد العنبري كما في تاريخ الطبري .

(٦) في نهاية الأرب مرت امرأة من العرب بمجلس من مجالس بني نمير ؛ وهو أنسب .

(٧) الرسحاء : التي خفّ لحم أليتيها ووركيها .

اللهَ ولا أطعتمُ الشاعر، قال الله عزّ وجلّ (قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضّوا من أبصَارِهِمْ)
وقال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلابَا

وقال: مرَّ الفرزدقُ بخالدِ بنِ صَفْوان بن الأهتم، فقال له خالد: يا أبا فِراس، ما أنت الذى لمّا رأينَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطّعْنَ أيدِيَهُنّ، فقال لَهُ الفرَزْدق: ولا أنت الذى قالت الفتاة لأبيها فيه: (يا أبتِ اسْتَأجِره إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القوِىُّ الأمِينُ).

قال: ودخل يزيدُ بنُ مُسْلِمٍ على سُليمان بن عبد المَلِك، وكان مُصَفَّرًا نحيفًا، فقال سُليمان: على رَجُلٍ أجرَّكَ رَسَنَكَ[1] وسَلَّطَكَ على المُسلمين لَعْنَةُ الله. فقال: يا أميرَ المؤمنين إنَّكَ رَأَيْتَنِى والأمْرُ عَنِّى مدبِرٌ، فلو رأَيْتَنى وهو علَىَّ مُقْبِلٌ لاَستَعْظَمْتَ منّى يومَئِذٍ ما اسْتَصْغَرْتَ اليَوْمَ. قالَ: فأيْنَ الحَجّاج؟ قالَ: يجىء يومَ القيامَةِ بَيْنَ أبيكَ وأخيكَ، فَضَعْهُ حَيْثُ شِئْتَ.

وقالَ عبَّاد بن زِياد: كنتُ عند عبد المَلِكِ بن مروان إذ أتاه أبو يوسُف حاجِبُهُ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذه بُثَيْنَة. قال: أبُثَيْنَةُ جَمِيل؟ قال: نعم، قال أدْخِلْهَا، فدَخَلَتِ امرأةٌ أدْمَاء طَوِيلَةٌ يُعْلَم أنّها كانَتْ جميلة، فقال له يا أبا يوسف ألقِ لها كُرْسِيًا، فألقاهُ لهـا، فقال لها عَبْدُ المَلِك، ويحَكِ ما رَجا مِنْكِ جَمِيل، قالت: الذى رَجَتْ مِنكَ الأُمَّةُ حينَ ولَّتْكَ أمْرَهَا.

وقال سعيدُ بنُ عَبْد الرَّحْمٰن بن حَسَّان: إنَّ رَهْطًا من الأنْصَار دَخَلُوا على مُعَاوِيَة، فقال: يا مَعْشَرَ الأنْصَار، قُرَيْشٌ خَيْرٌ لـكم منكم لَهُمْ، فإنْ يَكُن

(١) أجرك رسنك، أى تركك وشأنك تفعل ما تشاء. والرسن المِقْوَد تقاد به الدابة.

ذلك لقتلى أُحُد ، فقد قَتَلتم يومَ بَدْرٍ مِثلَهم ؛ وإن يكن لإمْرَةٍ(١) فوالله ما جعلتم لى إلى صِلَتكم سَبيلاً ؛ خَذَلتم عُثمانَ يومَ الدار ، وقتلتم أنصاره يومَ الجَمَل ، وصَلِيتم بالأمر يوم صِفِّين . فتكلَّمَ رَجُلٌ منهم ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أمّا قولُك « إن يَكن لِقَتْلَى أُحُد » فإن قَتيلَنا شَهيد وحَيَّنا ثائق(٢) ، وأمّا ذِكْرُك الإمْرَةَ ، فإنَّ رَسُولَ الله صَلّى الله عليه وسلّم أمرَ بالصَّبْر عليها . وأمّا قولُك إنّا خَذَلنا عُثمانَ ، فإنَّ الأمرَ فى عثمان إلى قَتَلَتِه(٣) ؛ وأمّا قولُك إنا قتلنا أنصارَه يوم الجَمَلِ فذلك ما لا نَعْتَذِرُ منه ، وأما قولُك إنّا صَلينا بالأمْرِ يومَ صِفِّين ، فإنما كُنّا مع رَجُل لم نألُه خُبْرًا ، فإنْ لُمتَنا فرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ .

ثم قام هو وأصحابُه يجرُّ ثوبَهُ مُغْضَبًا ، فقال معاوية : رُدُّوهم ، فرُدُّوا فترضَّاهم حتى رَضُوا ، ثم انصَرَفُوا . وأقبلَ معاوية على رَهْطٍ من قريشٍ ، فقال : والله ما فرَغَ من مَنْطِقِه حتى ضاقَ بِي مجلسى .

قال سعيدُ بن عبد الرَّحمٰن بن حَسّان : دَخَلَ قيسُ بنُ سعد بن عُبادةَ مع قومٍ من الأنصار على مُعاوية . فقال معاوية : يا مَعْشَر الأنصار ، لِمَ تَطْلُبُون ما قِبَلِي ، فوالله لقد كنتمْ قليلاً معى ، كثيراً علىّ ، ولقد قَتَلتم جُنْدِى(٤) يوم

---

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها دون (ب) هذا الكلام « لدهيه » ؛ وهو تحريف ، صوابه ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتى بعد فى جواب الأنصار من قولهم : وأما ذكرك الإمرة الخ . ويريد بالإمرة أنه لا يوليهم الأعمال .

(٢) تائق أى إلى أن يستشهد . وفى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة وردت تلك الكلمة مهملة الحروف من النقط . ولعل الصواب ما أثبتنا أو لعل صوابها « مائت » .

(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « قلتنا » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ا) « جدى » ؛ وهو تحريف .

صِفِّين حتى رأيتُ المَنايا تَلَظَّى فى أَسِنَّتِكُم ، وهَجَوْتُمُونى(١) بأشَدَّ من وَخْزِ الأَشَافى(٢) حتى إذا أقامَ الله ما حاولتم مَيْلَه(٣) ، قلتم : ارْعَ فينا وَصِيَّة رَسُول الله صلّى الله عليه وسلم ؛ هَيهات ، «أَبَى الحَقِينُ العِذْرَة»(٤) ، فقال قيس : نَطْلُبُ ما قِبَلكَ بالإسلام الكافِى به اللهُ لا سِوَاه ، لا بما تَمُتُّ به إليكَ الأحزاب ، وأما عِداؤنا لك فلو شئت كَفَفْنا عنك ؛ وأما هِجاؤنا إيّاك فقولٌ يَزُولُ باطِلُه ، ويَثْبُتُ حَقُّه ، وأمّا قَتْلُنا جُنْدَكَ يومَ صِفِّينَ فإنا كنا مع رَجُلٍ نَرَى أنّ طاعَتَه طَاعةُ الله ؛ وأمّا استقامة الأمْرِ لك فعَلَى كُرْهٍ كان مِنّا ، وأمّا وَصِيَّةُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وعَلَى آله وسلم فينا ، فَمَنْ آمَنَ به رعاها ؛ وأما قولك « أَبَى الحَقِينُ العِذْرَة » ، فليس دُونَ الله يَدٌ تَحْجُزُكَ ؛ فشأنَك . فقامَ مُعاوِيةُ فدَخَلَ ، وخَرَجَ قَيْسٌ ومَنْ كان مَعَه .

وقالَ محمد بنُ خالد القُرَشيّ : دَخَلَ زُفَرُ بنُ الحارثِ الكِلَابِىُّ على عبدِ المَلك بن مَرْوَان وعندهُ خالدُ بنُ عبدِ الله بن خالد بن أَسِيد وأُمَيّةُ بنُ عبد الله بن خالد ، فقال زُفَرُ : لو كان لعبد الله سَخاء مُصْعَب وكان لمصعب عِبادَة عبد الله لكانا ما شاء المُتَمَنِّى . فقال عبدُ المَلِك : ما كان سَخاء

(١) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « ولهجوتمونى » ، وهو تحريف .
(٢) فى (١) « الأثافى » بالثاء ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « مثله » بالثاء ؛ وهو تصحيف ، والتصحيح عن العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٦ طبع بولاق .
(٤) وردت هذه العبارة فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « بأى الحقين العذرة » ؛ وهو تحريف كما ترى ، والتصحيح عن مجمع الأمثال . والحقين : اللبن المحقون والعِذرة : العذر . وأصله أن رجلا نزل بقوم فاستسقاهم لبنا ، فاعتلوا عليه وزعموا أن لا لبن عندهم ، وكان اللبن محقونا فى وطاب عندهم ، فقال هذا المثل ؛ وهو مثل يضرب للكاذب الذى يعتذر ولا عذر له . يقول : إن اللبن المحقون لديكم يكذبكم فى عذركم . والذى فى العقد الفريد « أبى الحبير العذرة » .

مُصْعَب إلا لَعِبًا ، ولا كانت عبادةُ عبد الله إلا عَبَثاً ، ولكنْ لو كان للضَّحَّاك ابنِ قَيْسٍ مِثْلُ رجال مَرْوَانَ لكانت قيسُ أرباباً بالشّام ، فقال زُفَرُ : لو كانت لمروانَ صُحْبَةُ الضَّحَّاك لكان ؛ فقال عبد المَلك ، والله ما أُحِبُّ له مِثْلَ صُحْبَتِه ومَصْرَعِه ، فقال خالد : لولا أنَّ أميرَ المؤمنين لا يُبْصِر مَرْعًى[1] لما تَرَكْناكَ والكلامَ . فقال زُفَر : اِرْبَعا[2] على أنْفُسِكما ودَعانا وخَلِيفتَنا واسحَبا ذُيولَكما على خيانة خُراسانَ وسِجِسْتَان والبَصْرَة .

وقال المدائنيّ : غابَ مَوْلًى للزُّبَيْر عن المدينة حيناً ، فقال له رجل من قريش لمّا رَجَع : أما والله لقد أَتيْتَ قومًا يُبْغِضون طَلْعتَك ، وفارقتَ قومًا لا يُحِبُّونَ رَجْعَتَك . قال المولَى : فلا أنْعَمَ اللهُ بمَنْ قدِمْتُ عليه عَيْناً ، ولا أَخْلَفَ اللهُ على مَنْ فارَقْتُ بخير .

قال المدائنيّ : كان مَرْثَد بنُ حوشب عند سُلَيْمان بن عَبدِ المَلِك ، فجرى بَيْنَهُ وبينَ أبيهِ كلامٌ حتّى تسابّا ، فقال له أبُوه : والله ما أَنْتَ بابني ، قال : واللهِ لأَنا أشْبَهُ بِكَ مِنْكَ بأبِيكَ ، ولأَنتَ كنتَ أغْيَرَ على أُمّي من أبيكَ على أمّك . فقال له سليمان : قاتَلَكَ الله ، إنَّك لابنُه .

وسابَّ مَرْثَد أخاهُ ثُمامَة ، فقال له ثُمامَة : يا حَلَقِيّ[3] ، فقال له مَرْثَد :

(١) يشير خالد بهذه العبارة إلى قول زفر بن الحارث :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى … وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وهذا البيت من أبيات قالها زفر حين فرّ بعد وقعة مرج راهط التي قتل فيها الضحاك وانتصر فيها مروان ، وكان زفر من أصحاب الضحاك .

(٢) اربعا : يخاطب خالدا وأخاه أمية .

(٣) يتهمه بداء قبيح ؛ ويقال أتان حلقية إذا تداولتها الحمر فأصابها داء في رحمها . والحلاق في الأتان ألا تشبع من السفاد .

يا خَبيث ، أتسابّنى مُسَابَّة الصِّبْيَان ، فوالله إنّكَ لأبنى ، ولقد غَلَبنِى حَوْشب على أمّكَ ، وقد ألقحتُهَا بِكَ(١) .

وقال ابنُ عَيَّاش المُنتُوف(٢) لأبِي شاكر بن هِشَام بن عبد الملك : لوقَصَّرْتَ قَمِيصَكَ ، قال له : ما يَضُرُّكَ مِنْ طُولِهِ . قال : تَدُوسُه فى الطِّين ، قال وما يَنفَعُكَ مِنْ دَوْسِه .

وقال : كان على تَبالَةَ(٢) رجُل من قُرَيش ، فقال لِرَجل من باهِلة ، مَن الذى يقول :

إن كُنتَ تَرجو أن تَنالَ غنيمةً ... فى دُور باهِلَةَ بن يَعْفُرَ فأرْحَل

قَـــومٌ قتيبة أمُّهُمْ وأبُوهُمُ ... لَوْلَا قُتَيبَةُ أصْبَحُوا فى مَجْهَلِ

فقال الباهِلىّ : ما أدْرِى غيرَ أنّى أظُنُّه الذى يقول :

يا شَدّةً ما شدَدْنا غيرَ كاذِبَةٍ ... عَلَى سَخِينَةَ لولا اللَّيْلُ والحرَمُ(٣)

قال : وتكلّم ابنُ ظبيانَ التَّيْمِىُّ يوماً فأكْثَر ، فقال له مالكُ بنُ مِسْمَع ،

(١) يتضح من القصة أن مرثدا وثمامة أخوان لأب ، وبذلك يستقيم الكلام .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى طبع أوربا . والذى فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « المثبوق » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصّة : « تأييده » مكان قوله : « ياشدة » . و « على سجية » مكان قوله « على سخينة » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين صوابه ما أثبتنا نقلا عن الأغانى ج ١٩ ص ٧٦ طبع بولاق . والبيت لخداش بن زهير ، والسخينة : طعام يتخذ من الدقيق وهو دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء ، وهو لقب لقريش كانت تعيّر به لكثرة اتخاذهم لهذا الطعام . وهذا البيت من أبيات أربعة وردت فى الأغانى فى خبر طويل فانظره ثم . وها هى ذى الأبيات الثلاثة بعد هذا البيت :

إذ يتقينا هشام بالوليد ولو ... أنا ثقفنا هشاما شالت الخدم

بين الأراك وبين المرج تبطحهم ... زرق الأسنة فى أطرافها السمم

فإن سمعتم بجيش سالك شرفا ... وبطن مر فأخفوا الجرس واكتتموا

إيهاً أبا مَطَر(١) ، فإن للقوم فى الكلامِ نَصِيبًا ، فقال : والله ما إليكَ جِئتُ ، ولو أن بكرَ بنَ وائل اجتمعتْ فى بيْتٍ بَقّالٍ لأَتَيْتُهُمْ . فقال له مالِكٌ ، إنما أنت سَهْمٌ من سِهام كِنانَتِي . فقال ابنُ ظَبْيَان : أنا سَهْمٌ من سِهام كِنَانتِك ؟ فوالله لو قمتُ فيها لَطلْتُهَا ، ولو قعدتُ فيها لخرَقْتُها ، وايْمُ اللهِ ما أراكَ تنْتهى حتى أرْمِيَكَ بِسَهْمٍ لم يُرَشْ(٢) ، تَذْبُلُ به شفتَاك ، ويَجِفُّ لهُ رِيقُك .

وقال رجُلٌ للأحْنَف : بأيِّ شَىءٍ سُدْتَ تَميماً ؟ فوالله ما أنتَ بأَجْوَدِهم ولا أشجَعِهم ولا أجْمَلِهم ولا أشْرَفِهم ، قال : بخلافِ ما أنتَ فيه . قال : وما خِلافُ ما أنا فيه ؟ قال : تَرْكِى ما لا يَعْنِينِى من أُمُورِ الناس كما عَنَاكَ مِنْ أمْرِى ما لا يَعْنيكَ .

ووَفَدَ عُلَيْمُ بن خالد الهُجَيْمِىُّ عَلَى هِشَامٍ وعنده الأبرش [الكلبىّ] ، فقال له الأبْرَش الكلْبىّ : يا أخا بنى الهُجَيْم ، مَن القائل :

لو يَسْتَمْعُون بأكلةٍ أو شَرْبةٍ بعُمانَ أصْبَحَ جَمْعُهم بِعُمانِ

أَلَكُمْ يَقوله ؟ قال : نعم ، لنا يَقُوله ، ولكنكم يا مَعْشَرَ كلْب تُعبِرُون(٣) النِّساء وتَجُزُّون(٤) الشّاء ، وتكدِّرُون العَطاء ، وتؤخِّرون العَشَاء ، وتبيعون الماء .

(١) فى (ا) « إنها أبا فطر » ، وهو تحريف ، وقد أثبتنا هذه الكنية عن الكامل للمبرد . والذى فى (ب) إنما ينتظر القوم .

(٢) يقال راش السهم بريشه إذا وضع عليه الريش ليكون أسرع له . ويريد هنا سهماً من القول .

(٣) تعبرون النساء أى تتركون ختانهن . يقال امرأة معبرة إذا طال بظرها . وفى الأصل تعيرون بالياء المثناة وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين : « وتجرون » ؛ وهو تحريف ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

فَضَحِكَ هِشَام ، فلما خرجا قال الأبرش : يا أَخَا بَنِي الهُجَيْم ، أما كانت عندك بقيّة ؟ قال : بلى ، لو كان عندكَ بقيّة .

قدّمَتِ امرأةٌ زوجَها إلى زِياد تُنَازِعُه ، وقد كانت سِنُّه أعلَى مِنْ سِنِّها فَجَعَلتْ تَعِيب زَوْجَها وتقعُ فيه ، فقال زَوْجُهَا : أيُّهَا الأمير ، إن شرَّ شَطرَى المرأة آخرُها ، وخيرَ شطرَى الرَّجل آخِرُه . المرأة إذا كبرَتْ عقمَتْ رَحِمُها ، وحَدَّ لسانُهَا ، وساء خُلقُها ، وإن الرَّجُلَ إذا كَبِرَتْ سِنّه أستحكَمَ رَأْيُهُ ، وكثُرَ حِلْمُهُ وقَلَّ جَهْلُه .

وقال أعْشَى هَمْدَانَ لامرأتِهِ : إنّكِ لَسَلِسَةُ الثُّقْبَة ، سَرِيعَةُ الوَثْبَة ، حَدِيدَة الرُّكبة ، فقالت : والله إنّك لسَرِيعُ الإرَاقَة ، بطيء الإفاقة ، قليلُ الطاقة[1] ، فَطَلَّقها ، وقال :

تَقَادَمَ عَهْدُكِ أُمَّ الجَلَالِ وطاشَتْ نِبالُكِ عند النِّضَال
وقد بُتَّ[2] حَبْلُكِ فَاسْتَيْقِنِي بأنِّى طَرَحْتُكِ ذَاتَ الشِّمال[3]
وأن لا رُجُوعَ فلا تُكْذَبِى نَ ماحَنَّتِ[4] النِّيبُ إثْرَ الفِصَال

قال الغِلابىُّ عن غيره : قال رجل لامرأته : أما إنّكِ ما علِمْتُ لسَئُولٌ مُنَعَة ، جَزُوعٌ هَلِعَة ، تَمْشِينَ الدِّفِقَّى[5] وتقعدين الهَبَنْقَعة ، فقالتْ : أما والله

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « الطاعة » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى رواية : لحى حنينك .
(٣) ورد هذا الشطر فى (ا) التى وردت فيها هذه الأبيات :
* بأنى فرضتك داب التبال *
وهو تصحيف لا معنى له . والتصويب عن شعر أعشى همدان المطبوع فى أوربا ضمن شعر الأعشين .
(٤) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه الأبيات « ما حييت للبنت » وهو تحريف . والتصحيح عن شعر أعشى همدان المطبوع فى أوربا ضمن شعر الأعشين . والنيب جمع ناب وهى المسنة من النياق .
(٥) يقال مشى الدفقى كزمكى إذا مشى مسرعا . وجلس الهبنقعة ، إذا جلس مزهوًّا أو جلس متربعا مادًّا إحدى رجليه فى تربعه .

إن كان زَادِي منك لهَدِيّة[1] ، وإن كانت حُظْوَتى منك لَحَذِيَّة[2] ، فإنّك لأبن خبيثة يهودية .

وقال المدائنيّ : قَبضَ كِسْرَى أرْضًا لرَجُل من الدَّهَاقِين ، وأقطَعَها البَحْرَجان[3] ، فقَدِمَ صاحبُ الأرض مُتَظَلِّمًا ، فأقام بباب كِسْرَى ، فرَكِبَ كِسْرَى يومًا ، فقَعَدَ لهُ الرَّجلُ على طَرِيقِه يُكَلِّمُه ، فلما حاذَاهُ شَدَّ عليه حتى صَكَّ بصَدْرِهِ رُكْبَتَه ، ووَضعَ يدَه على فَخذِه ؛ فوَقَفَ له كِسْرَى وكلَّمهُ ، فقال له : أرضٌ كانَتْ لأجْدَادِي وَرِثْتُهَا من آبائى قَبَضْتَها فأقطَعْتَها البَحْرَجان ؟ أرْدُدْهَا عليّ ، فقال له كسرى : مُذْ كم هذه الأرْضُ فى أيدِي أجْدَادِكَ وآبائك ؟ فذَكَرَ دَهْرًا طويلاً ، فقال له كسرى : والله لقد أكَلْتُمُوها دهرًا طويلاً ، فما عليكَ فى أنْ تَدَعَهَا فى يد البَحْرَجان عاريةً سُنَيَّاتٍ يَسْتَمْتِع بها ثم يردّها عليك ، فقال : أيّها المَلِك ، قد علمتَ حُسْنَ بَلَاءِ بَهْرَام جور فى طاعَتِكُم ، أهلَ البيت ، وما كَفَاكُم مِنْ حَدِّ عدوِّكُم ، ودَفْعَه عنكم كَيْدَ التُّرْك وحُسْنَ بلاء آبائه قَبْلَ ذلك فى طاعة آبائك ، فما كان عليك لو أعَرْتَهُ مُلْكَكَ سُنَيَّاتٍ يَسْتَمْتِع به ثم يَرُدُّه إليك ؟ فقال كِسْرَى : يا بَحْرَجان ، أنت رَمَيْتَنى بهذا السَّهم ، أرْدُدْ عليه أرْضَهُ [فردّها] .

قال رجل من القحاطِنَة[4] لرجل من أبنَاء الأعاجِم : ما يَقُولُ الشِّعْرَ منكم

(١) تريد بهذه العبارة أن ما تناله من طعام لدى زوجها يشبه الهدية فى ندرته وازدهائه بإطعامها كما يزدهى صاحب الهدية بما أهدى وأن زوجها يرى أن إطعامها غير واجب بل هو من قبيل الهدية . هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة إن لم يكن فيها تحريف .

(٢) فى الأصل « تحدية » ولعل الصواب ما أثبتنا . والحذية : من معانيها القسمة من الغنيمة ، أى أنه كان يعطيها القليل مما يغنم . وقد تكون الجدية بالجيم والدال ومعناها القطعة من الكساء تحت السرج أى الشىء التافه . (٣) يريد بالبحرجان هنا صاحب سفن كسرى ورئيس الملاحين ، وهى كلمة فارسية معناها النوتى ، كما فى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستاينجاس . (٤) فى (١) القحاطبة وفى (ب) وردت هذه الكلمة مهملة الحروف من النقط .

إلاَّ من كانتْ أمُّهُ زَنَى بها رجُلٌ مِنّا فنزَعَ إلينا. فقال له الثَّنوىّ: وكذلك كلُّ مَنْ [لم] يقل الشِّعْرَ مِنْكم ، فإنما زَنى بأُمِّهِ رَجُلٌ مِنّا فحَمَلَتْ به ، فنزَعَ إلَينا ، فمِنْ ثَمَّ لم يَقُل الشعر.

وقال رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ لرجُلٍ مِنْ أبْناء العَجَمِ : رأَيتُ في النَّوْمِ كأنِّى دَخَلْتُ الجَنَّةَ فلم أرَ فيها ثَنَوِيًّا . فقال له الثَّنوِىّ : أصَعِدْتَ الغُرَفَ ؟ قال : لا . قال : فمِنْ ثَمَّ لم ترَهُم ، هُمْ في الغُرَف .

قال ابنُ عيَّاش : ما قطَعَنى إلا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ من آل أبى مُعَيْط ، وكان ماجِنًا[1] شارب خَمْرٍ ، وذاك أنى وَقَفْتُ على بَيان التَّبَّان[2] الذى أُتِىَ[3] به ابنَ هُبَيْرَةَ الفزَارِىّ فأمرَ بِصَلْبِه ، فقال لى : ما وُقوفُكَ هاهنا يا أبا الجرّاح ؟ قلتُ : أنظُرُ إلى هذا الشقِىِّ الذى يقول : إنَّهُ نبىٌّ ؛ قال : وما أتى به فى نبوّتِه ؟ قلتُ : بتحليل الخمْرِ والزِّنا — وأنا أُعرِّضُ به — فقال : لا ، واللهِ لا يُقبَلُ ذلك منه حتى يُبْرِئَ الأكْمَهَ والأبْرَص .

قال المدائنىُّ : ابنُ عيَّاش أبْرَص .

وقال : دَخَلَ أبو الأسود الدؤلىُّ على عبيد الله بنِ زِيادٍ ، فقال له ابنُ زياد — وهو يَهزَأُ به — [أمسيتَ يا أبا الأسود العشيّةَ جميلا فلو عَلَّقْتَ تميمةً تنفِي

(١) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « ما حارنا » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٢) فى (١) التى وردت فيها وحدها هـذه القصة : « ابن بيان » . ولم نجده فيما راجعناه من الكتب ، ولعل الصواب ما أثبتنا نقلا عن الكامل لابن الأثير ، والفرق بين الفرق ، وعيون الأخبار . وبيان هذا ، هو ابن سمعان التيمى وهو أول من قال بخلق القرآن ، وغير ذلك من المقالات الزائغة وكان يقول إنه المشار إليه بقوله تعالى : « هذا بيان للناس » .

(٣) فى (١) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « أرى » ؛ وهو تحريف . والذى وجدناه فى الكتب أن الذى صلب بيانا هذا هو خالد بن عبد الله لا ابن هبيرة الفزارى وكان ذلك سنة ١١٩ هـ

بها عنك العين ؟ فعرف أنه يهزأ به] فقال : أصلح الله الأمير —

أَفِى الشَّبابَ الّذى فارقْتُ بَهْجَتَه مَرُّ الجَدِيدَيْن مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِ
لم يَتْرُكا لِىَ فى طُولِ اخْتِلافِهِما شيئاً تُخافُ عليه لَدْغَةُ[1] الحَدَقِ

وقال المَدائنيّ : وَقَعَ بين العُرْيانِ بنِ الهَيْثَمِ النَّخَعىّ و بين بلالِ بنِ أبى بُرْدَةَ ابنِ أبى موسى الأشعرىِّ كلامٌ بينَ يَدَىْ خالد بن عبد الله القَسْرِىّ[2] وَخالدٌ يومئذٍ على العراق — وكان متحاملا على بلال ، وكان العريان على شُرْطة خالد — فقال العُريان لبلال : إنى والله ما أنا بأبْيَضِ الرَّاحَتَين ، ولا مُنْتَشِرِ المَنْخِرَيْنِ ، ولا أرْوَحِ القَدَمَين ، ولا مُحَدَّدِ الأسنان ، ولا جَعْدٍ قَطَط ، فقال بلال : يا عُرْيان أتَعْنِينى[3] بهذا ؟ قال : لا والله ، ولكن كلامٌ يتلو بعضه بعضاً . فقال بلال : يا عُرْيان ، أتريد أنْ تَشْتُمَ أبا بُرْدَةَ وَأشْتُمَ أباكَ ، وتَشْتُمَ أبا مُوسى وأشْتُمَ جَدّكَ ، هذا والله ما لا يكون ، فقال العُرْيان : إنى والله ما أجعل أبا مُوسى فِدَاءَ الأسْوَد ، ولا أبا بُرْدَةَ فِدَاءَ الهَيْثَم ، فَمَثَلى ومَثَلُكَ فى ذلكَ كما قالَ مِسْكِينٌ الدارِمِىّ[4] :

أنا مِسْكِينٌ لمن أنكَرَنى ولِمن يَعْرِفُنى جِدُّ نَطِقْ[5]
لا أبيعُ الناسَ عِرْضِى إننى لو أبيعُ الناسَ عِرْضِى لَنَفَقْ

(١) فى رواية : « لذعة » .
(٢) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « القشيرى » ؛ وهو تصحيف .
(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « استعن » ؛ وهو تحريف إذ لا يناسب معناه سياق الكلام .
(٤) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « الدانق » ؛ وهو تحريف .
(٥) ورد هذا البيت فى (؛) التى ورد فيها وحدها هذان البيتان :

أيا مسكين لمن تعرفنى ولمن تبادر لى حد نطق

وهو تحريف ؛ والتصحيح من الأغانى فى ترجمة مسكين الدارمى .

قال المَدائنيّ : جرى بين وكيع بن الجراح و بين رجل من أصحابه كلامٌ فى معاوية واختلفا ، فقال الرجل لوكيع : ألم يَبْلُغك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَعَنَ أبا سفيان ومعاوية وعتبة فقال : « لعن الله الراكبَ والقائدَ والسائق » ، فقال وكيع : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيُّما عَبْدٍ دعوتُ عليه فاجْعَلْ ذلك (له أوْ عليه) رَحْمَةً » ؛ فقال الرجل : أفيسرُّك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعَنَ والِدَيْك فكان ذلك لها رحمةً . فلَمْ يَحر إليه جَواباً .

تَكلَّمَ صَعْصَعةُ عِنْدَ مُعاوِيةَ فعَرِق ، فقال : وبَهَرَكَ القَوْلُ يا صَعْصَعة ؟ فقال : إن الجيادَ نَضَّاحَةٌ بالماء .

هكذا قال لنا السِّيرافيّ ، وقد قرأتُ عليه هذه الفِقَرَ كلَّها ، وإنما جَمَعْتُها للوزير بعد إحْكامها ورِوايتِها .

قال علىُّ بن عبدِ الله : شَهِدْتُ الحَجّاج خارِجا مِنْ عِنْدِ عبدِ الملك بن مَرْوَانَ ، فقال له خالدُ بنُ يَزِيدَ بنِ مُعاوية : إلى متى تَقْتُل أهلَ العِراق يا أبا مُحَمد ! فقال : إلى أنْ يَكُفُّوا عَنْ قَوْلِهم فى أبيك : إنه كان يَشْرَبُ الخَمْرَ .

قال المدائنيّ : أَسَرَتْ مُزَيْنَةُ حَسّانَ بنَ ثابتٍ — وكانَ قَدْ هجاهمْ — فقال:

مُزَيْنَةُ لا يُرَى فيها خَطِيبٌ ولا فَلِجٌ يُطَافُ به خَضِيبُ
أناسٌ تَهْلِكُ الأحْسابُ فِيهم يَرَوْنَ التَّيْسَ يَعْدِلُه الحبيب

فأتتهم الخزْرج يَفْتَدُونَه ؛ فقالوا[1] : نفاديه بتَيْس ؛ فغَضِبُوا وقامُوا ؛ فقال لهم حسّان : يا إخْوَتِى خذوا أخاكم وادْفعُوا إليهم أخَاهم .

وقال المَدائنيّ : فَرّقَ عُمَرُ بنُ الخَطّاب بين منظور بن أبانَ و بين امرأته —

(١) فقالوا ، أى آسروه ، وهم بنو مزينة .

وكان خَلَفَ عليها بعد أبيه — فتزَوَّجها طلحةُ بنُ عبدِ الله ، فلقيَه مذطور ، فقال له : كيف وَجدتَ سُوْرِى ؟ فقال : كما وَجَدْتَ سُوْرَ أبيكَ . فأفحَمَه .

وقال حاطِب بنُ أبى بَلْتَعَة : بعثَنى النبىُّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم إلى المُقَوْقِس مَلِكِ الإسكَنْدَرية ، فأتَيتُه بكتاب رسُول الله — صلى الله عليه وسلّم — وأبْلَغتُه رِسالتَه ؛ فضحكَ ثم قال : كتَبَ إلىّ صاحِبُك أنْ أتبَعَه على دِينِه ، فما يَمْنَعُه — إنْ كان نبيّا — أن يَدْعُوَ اللهَ أن يسلِّط علىّ البحرَ فيُغرِقَنى فيَكْتَفِيَ مَؤُونَتى ويأخُذَ مُلْكى ؟ قلتُ : فما صَنَع عيسى إذ أخَذَتْه اليَهُودُ فربَطوه فى حَبْل وحلَقوا وَسط رَأسِه ، وجَعَلوا عليه إكليلَ شوْك ، وحَمَلوا خَشَبَتَهُ الّتى صَلَبُوه عليها على عُنُقِه ، ثم أخرَجُوه وهو يَبْكى حتّى نَصَبُوه على الخَشَبَة ، ثم طَعَنُوه حَيّا بحَرْبة حتّى مات ؛ هذا على زَعْمِكم ، فما مَنَعَه أن يَسأَلَ الله فيُنْجِيَه ويُهلِكَهُمْ فيكفِىَ مَؤُونَتهم ويَظْهَرَ هُوَ وأصحابُه عليهم ؟ وما مَنَع يحْيَى بن زكريّا حين سألَت امرأةُ المَلِكِ المَلِكَ أنْ يَقْتُله فقتَله ، وبَعَثَ برأسِه إليها حتى وُضِع بين يَدَيْها ، أن يَسْألَ الله تعالى أنْ ينجيَهُ ويُهلِكَ الناسَ ؟ فأقبلَ على جُلَسائه وقال : إنّه والله لحكيمٌ ، وما يَخرُجُ الحكيمُ إلا مِنْ عند الحُكَماء .

قال المَدائنىّ : أبْطأَ على رَجُلٍ منْ أصْحابِ الجُنَيْدِ بن عبد الرّحمن ما قِبَلَه[1] — وهو على خُراسان — وكان يقال للرجُل : زامِلُ بنُ عَمْرو مِنْ بَنِى أسَد بن خُزَيْمة ، فدَخلَ على الجُنَيْدِ يوماً فقال : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، قد طَال انتِظارى ، فإنْ رَأى الأميرُ أنْ يَضرِبَ لى مَوْعِدًا أصيرُ إليه فعَل . فقال : مَوْعِدُك الحَشْر ؛ فخرج زاملٌ متوجّهًا إلى أهله ؛ ودخل على الجُنَيْدِ بعد ذلك رَجُلٌ مِنْ أصحابِه فقال : أصلحَ اللهُ الأمير .

(١) ما قبله ، أى ما قبل الجنيد من العطاء .

أرِحْنِي بخيرٍ منكَ إنْ كُنتَ فاعِلاً ... وإلّا فميعادٌ كميعادِ زامِلِ

قال : وما فَعَلَ زامل ؟ قال : لَحِقَ بأهله . فأَبْرَدَ الجُنَيْدُ في أثره بَرِيداً وبَعَثَ يُعْهِدُهُ إلى الكُورة[(١)] التي يُدْرَكُ بها ، [فأُدْرِكَ][(٢)] بنَيْسابُورَ ، فنزَلها .

وامتَدَحَ رَجُلٌ الحسنَ بنَ عليّ — عليه السلام — بشِعْرٍ ، فأَمَرَ له بشيء ؛ فقيل[(٣)] : أتُعْطِي على كلام الشَّيطان ؟ فقال : أَبْتَغِي الخيرَ لنَفْيِ الشرّ .

قال المَدائنيّ : أتى العَبْدانيُّ حَمّادَ بْنَ أبي حنيفةَ وقد مَلأَ عينَه كُحْلاً قد ظَهَرَ مِنْ مَحاجِرِ عَيْنِه ، وعِنْد حَمّادٍ جماعةٌ . فقال له حمّاد : كأنك امرأةٌ نُفَساء . قال : لا ، ولكنّي ثَكْلَى . قال : على مَن ؟ قال : على أبي حَنِيفَة .

وقال مَرْوانُ بنُ الحكم ليَحْيَى[(٤)] : إنّ ابنتَك تَشْكُو تَزْوِيجَك وتَزْعُمُ أنّه[(٥)] يبول في دِثاره[(٦)] . قال : فهو يَبُول منها فيما هو أعظمُ مِنْ دِثاره[(٦)] .

وقال مُعاوِيَة : هذا عَقِيلٌ عَمُّهُ أبو لَهَب . فقال عَقِيل : هذا مُعاوِيَةُ عَمَّتُه حَمّالَةُ الحطب .

قال : ودَخَل مَعْنُ بنُ زائِدةَ على أبي جَعْفَرٍ فقارَبَ في خَطْوه ، فقال أبو جَعْفَر : كَبِرَتْ سِنُّكَ يا مَعْن . قال : في طاعَتِك . قال : وإنّك لجَلْد . قال : على أعْدائك . قال : إنّ فيك لبَقِيّة . قال : هي لكَ يا أميرَ المُؤمنين .

(١) بعث يعهده إلى الكورة ، أى بعث إلى الكورة التى يدرك بها يؤمّنه . يقال أعهده إذا أمّنه وكفله . (٢) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) التى وردت فيها وحدها دون (ب) هذه القصّة ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٣) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « فقال » ؛ وهو خطأ ؛ أو لعلّ اسم القائل قد سقط من الناسخ كما يظهر لنا .

(٤) يريد يحيى بن الحكم أخا مروان . (٥) أنه أى زوجها .

(٦) فى (ا) التى وردت فيها وحدها دون (ب) هذه القصة « داره » ؛ فى كلا الموضوعين وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

قال المنصورُ لسُفْيانَ بنِ مُعاويةَ المُهَلَّبيّ ، ما أسْرَعَ الناسَ إلى قومِكَ ؟
قال سفيان :

إنّ العَرانِينَ[١] تَلْقاها مُحَسَّدَةً ... ولَنْ تَرَى لِلِئامِ النّاسِ حُسّادا

فقال : صدقتَ .

قال المدائنى : حضرَ قومٌ مِنْ قُرَيش مجلسَ معاويةَ وفيهم عَمْرُو بنُ العاصِ وعبدُ الله بنُ صفوان بن أُمَيّة الجُمَحىّ وعبدُ الرحمن بنُ الحارثِ بنِ هِشام ؛ فقال عمرو : احْمَدوا الله يا مَعْشَرَ قُرَيش إذ جعل والىَ أمورِكم من يُغْضِى[٢] على القَذَى ، ويَتَصامُ عَنِ العَوْراء ، ويجرُّ ذَيْلَه على الخدائع . قال عبد الله بنُ صفوان : لو لم يكنْ هذا لمشَيْنا إليه الضَّرّاء ، ودَبَبْنا[٣] له الخَمَر ، وقَلَبْنا له ظَهْرَ المِجَنِّ ، ورجَوْنا أن يقومَ بأمْرِنا مَنْ لا يُطْعِمُكَ مالَ مِصْر .

وقال معاوية : يا مَعْشَرَ قريش ، حتّى مَتَى لا تُنْصِفُون من أنفُسِكم ؟

فقال عبد الرحمن بنُ الحارث : إن عَمْرًا وذَوِى عمْرٍو أفسَدُوك علينا وأفسَدُونا عليكَ ، ما كان لَوْ أغْضَيتَ على هذه ؟ فقال : إنّ عَمْرًا لى ناصح ، قال أطْعِمْنا مِمّا[٤] أطْعَمْتَه ، ثم خُذْنا بمِثْلِ نَصِيحَتِه ، إنّكَ يا مُعاوِيَةُ تَضْرِبُ عَوامَّ قُرَيْشٍ بأيادِيكَ فى خَواصِّها كأنّك تَرَى أنّ كِرامَها جارَوْكَ[٥] دونَ لئامها ،

---

(١) عرانين القوم : عليتهم ، تشبيها بعرانين الأنوف .

(٢) فى نسخة : « يقضى على المدى » .

(٣) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) «ووهنا له الحمى» مكان «ودبينا له الخمر» ؛ وهو تحريف من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، يقال : مشى إلى خصمه الضراء ودب إليه الخمر بفتح الخاء والميم إذا مشى إليه مستخفيا ليختله . والضراء : الشجر الملتف : والخمر : ما واراك من جرف ونحوه .

(٤) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة « منذ » ؛ وهو تحريف .

(٥) كذا فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة . وجاروك ، أى جروا معك فيما تريد . وفى بعض الكتب حاربوك . يريد أنه يعطى كرامهم خوفا منهم واتقاء لحربهم .

وأيمُ الله : إنّك لتفرغ(١) من إناء فَعْم فى إناء ضَخْم ، ولكأنك بالحرْبِ قد حَلّ عِقالُها ثمّ لا تُنْظِرُك . فقال معاوية : يا بن أخى(٢) ما أحْوَجَ أهلَكَ إليك . ثم أنْشَدَ معاوية :

أغرّ رجالاً من قُرَيْشٍ تَشايَعُوا على سَفَهٍ ، مِنّا الحَيا والتَّكَرُّمُ ؟

وقال المَدائنىّ : كان عروةُ بنُ الزُّبَيْر عند عبدِ الملك بنِ مَرْوانَ يحدِّثُه — وعنده الحجّاج بنُ يوسف — فقال له عُرْوَةُ فى بَعْضِ حديثه : قال أبو بكر — يَعْنى عبدَ الله بنَ الزُّبَيْر — فقال الحجّاج : أعند أمير المؤمنين تكنى ذلك الفاسقَ ؟ لا أمّ لك . فقال عُرْوَة : ألِىَ تقول هذا لا أمّ لك وأنا ابن عجائز الجنّة خديجة وصفيّة وأسماء وعائشة ، بل لا أمّ لك أنت يا بن المُسْتَفْرِمَة(٣) بِعَجَم زَبيبِ الطّائف .

وقال : لمّا صَنَع هِشامُ بن عبدِ المَلِكِ بغَيلانَ الواعِظِ ما صَنَع ، قال له رَجُلٌ : ما ظلَمَكَ اللهُ ولا سَلّطَ عليكَ أميرَ المؤمنين إلّا وأنتَ مُسْتَحِقّ ؛ فقال غَيْلان : قاتَلَكَ الله ، إنّك جاهِلٌ بأصحابِ الأخْدُود .

قال عمرو بنُ العاص : أعْجَبَتْنى كلمةٌ مِنْ أمَةٍ ؛ قلتُ لها ومعها طَبَق : ما عليه يا جارِيَةُ ؟ قالت : فلِمَ غطّيْناه إذاً ؟

وَقَعَ ابنُ الزُّبَيْر فى مُعاوِيَةَ ، ثم دَخَل عليه فأخْبَرَه مُعَاوِيَة بِبَعْضِهِ ، فقال : أنّى عَلِمتَ ذلك ؟ فقال مُعاوِيَةُ : أما عَلِمْتَ أنّ ظَنّ الحكيم كِهانَة .

---

(١) فى (ا) التى وردت فيها هذه القصة وحدها : « لتفرغر » ، ولم نتبين له معنى . والصواب ما أثبتنا كما فى العقد الفريد .

(٢) فى الأصل : « يا براح » مكان « يابن أخى » ، ولم نفهم له معنى . والصواب ما أثبتنا كما فى العقد الفريد . وبعد قوله « ما أحوج أهلك إليك » قوله « فلا تفجعهم بنفسك » .

(٣) المستفرمة بعجم زبيب الطائف : عبارة كان عبد الملك بن مروان قد شتم بها الحجاج فى بعض كتبه إليه . وعجم الزبيب : نواه . ويريد أن أمه كانت تستفرم به أى تضعه فى فرجها ليضيق .

وقيل لعُمرَ بن عبدِ العَزيز : ما تَقُولُ في عليّ وعُثمانَ وفي حَربِ الجَمَل وصِفِّين ؟ قال : تلك دِماءٌ كفَّ اللهُ يَدِي عنهـا ، فأنا أكرَهُ أنْ أغمِسَ لِساني فيها .

وقال : طَلَّقَ أبُو الخِنْدِف امرأتَهُ أمَّ الخِنْدِف ، فقالت له : يا أبا الخِنْدِف طَلَّقتَني بعد خمسين سَنَة ، فقال : مالَكِ[1] عِندِي ذَنبٌ غيرُه .

وقال : لقي جريرٌ الأخطَلَ فقال : يا مالك ، ما فَعلَتْ خنازِيرُكَ ؟ قال : كثيرةٌ في مَرْجٍ أفيَحَ ، فإنْ شِئتَ قَرَيْناكَ منها ، ثم قال الأخطل : يا أبا حَزْرَةَ ما فَعلتْ أعنازُك ؟ قال كثيرةٌ في وادٍ أرْوح ، فإن شئتَ أنْزَيناكَ[2] على بَعضِها .

وقال الشَّعْبيّ : ذَكرَ عَمرُو بنُ العاصِ عَلِيًّا فقال : فيه دُعابَةٌ ، فبلغَ ذلكَ عليًّا فقال : زَعَم ابنُ النّابغَةِ أنّي تِلْعابةٌ تِمْراحَةٌ ذُو دُعابةٍ أُعافِسُ وأُمارِسُ ؛ هَيْهات ، يَمْنَعُ مِن العِفاسِ والمِراسِ ذِكرُ الموْتِ وخَوْفُ البَعْثِ والحساب ومَنْ كان لهُ قَلبٌ فَفِي هـذا عن هـذا له واعِظ وزاجِر ، أما وشَرُّ القَوْلِ الـكَذِب — إنّه لَيعِدُ فيُخلِف ، ويُحَدِّثُ فيَكذِب ، فإذا كانَ يومُ البَأسِ فإنّه زاجِرٌ وآمِرٌ ما لم تَأخُذِ السيوفُ بِهامِ الرِّجال ، فإذا كان ذاكَ فأعظَمُ مَكِيدَتِه في نَفْسِه أنْ يَمْنَحَ القومَ اُسْتَه .

قال المَدائنيّ : بَعَثَ المُفَضَّلُ [الضَّبّيّ] إلى رَجُل بأضْحِيَة ، ثم لَقِيَه فقال : كيف كانت أُضحِيَّتُك ؟ فقال : قليلةُ الدَّم . وأرادَ قَولَ الشاعر :

ولو ذُبِحَ الضَّبِّيُّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ   مِنَ اللُّؤْمِ لِلضَّبِّيِّ لحمًا ولا دَمَا

---

(١) في (ا) التي وردت فيها وحدها هذه القصة : « تبالك » .

(٢) في (ا) التي وردت فيها وحدها هـذه القصة : « أقريناك » بالقاف والراء ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

وقال المَدَائنيّ : مَرّ عَقِيلُ بنُ أبى طَالِب على أخيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعه تيسٌ، فقالَ له علىّ : إنّ أحَدَ ثلاثتِنا أحمق . فقال عَقِيل : أمّا أنا وتيسى فلا .

وكلّم عامرُ بن عبدِ قيسٍ حُمْران يوماً فى المسجد . فقال له حُمْران : لا أكثرَ اللهُ فينا مِثْلَكَ . فقال عامر : لكن : أكثرَ اللهُ فينا مِثْلَكَ ، فقال له القوم : يا عامر ، يقول لك حمران مالا تقول مِثْلَه ؟ فقال : نعم يَكسَحُونَ طُرُقَنا ، ويَحُوكُون(١) ثيابَنا ، ويَخرِزُون خِفافَنا . فقِيل له : ما كنّا نَرَى أنّكَ تعرِفُ مِثْلَ هٰذا ، قال : ما أكثرَ ما نعرِفُ ممّا لا تَظُنّون بنا .

وقال : مَرّ جَرير بن عطيةَ على الأحْوَصِ وهو عَلَى بَغْلٍ ، فأَدْلَى البَغْلُ فقال الأحوص : بَغْلُك يا أبا حَزْرَةَ على خمسِ قوائم . قال جرير : والخامسةُ أحبُّ إليك .

ومَرّ جَريرٌ بالأحْوَصِ(٢) وهو يَفْسُق بامرأة ويُنشِدُ :

يَقِرُّ بِعَيْنِى ما يَقِرُّ بعَيْنِها وأحسَنُ شىء ما به العَيْنُ قَرّتِ

فقال له جرير : فإنّه يَقِر بعَيْنها أنْ تقعُدَ على مِثْلِ ذِراعِ البَكْر ، أفتراكَ تَفعلُ ذلك ؟

فقال الوزير : مَنْ رأيتَ مِن الكِبار(٣) كان يَحفَظُ هذا الفنّ وله فيه غَزارةٌ وانبعاثٌ وجَسارةٌ على الإيراد . قلتُ : ابنُ عَبّاد على هذا ، ويَبلُغ من قوّته أنه يفتَعِل(٤) أشياءَ شبيهةً بهذا الضَّرْبِ على من حضر ، فقال : الكذبُ لا خيرَ

---

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه القصة : « ويحولون » ؛ ولا يخفى ما فيها من تحريف ظاهر .

(٢) عبارة (ب) « ومرجرير بالأحوص وهو ينشد » ثم ذكر البيت .

(٣) فى (ب) « الكتاب » . (٤) فى (ا) « ينقل » ؛ وهو تحريف .

فيه ، ولا حَلاَوَةَ لِراويه ، ولا قَبُولَ عند سامعِيه .

وقال: أرْسَلَ بلالُ بنُ أبى بُرْدَة إلى أبى عَلْقَمة فأتاه ، فقال : أتدرى لأىِّ شىء أرسلتُ إليك ؟ قال : نعم ، لتَصْنَعَ بى خيرًا . قال : أخطأتَ ولكن لِأُسِىء بك . فقال : أمّا إذْ قلتَ ذاك لقد حَكَّمَ المسلمُون حَكَمين ، فسَخِرَ أحَدُهُما بالآخَر . فقال الوزير : أيُقَالُ سَخِرَ بِهِ ! فكان الجواب أنّ أبا زَيْد حَكاه ، وصاحبَ التَّصْنِيفِ قد رَوَاه ؛ وسَخِرَ منه أيضاً كلامٌ ، و إنما يقال هُوَ أفْصَح ، لأنه فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ ، و إلّا فكلاهُما جائز .

وقال حَمْزَةُ بن بيض الحنفىُّ لِلفرزدَق : يا أبا فِراس ، أيُّما أحبُّ إليك أن تَسْبِقَ الخيرَ أمْ يسْبِقُك ! قال : ما أُرِيدُ أنْ أسْبِقَه ولا أنْ يَسْبِقَنى ، بل نَكون معاً . ولكنْ حَدِّثْنى أيُّما أحَبُّ إليكَ : أن تَدخُلَ مَنْزِلَكَ فتجدَ رَجُلاً على حِرِ أمِّكَ ، أو تجدَها قابضةً على قُمُدِّ الرجل . فأفْحَمَه .

فلما قَرَأْتُ الْجزْء فى ضُروبِ الجوابِ المُفحِم . قال : ما أفْتَحَ[1] هذا النوعَ من الكلامِ لأبواب[2] البَديهة ! وأبْعَثَه لرواقد الذِّهْن ! وما يَتَفَاضَلُ النـاسُ عِنْدِى بشىء [أحْسَنَ][3] مِنْ هذه الكلمات النوائق الروائق ، ما أحْسَنَ ما جَمَعْتَ وأتَيْتَ به .

الليلة الأربعون

وقال مَرَّةً أخرَى : حَدِّثنِى عن اعتِقادِك فى أبى تَمّامٍ والبُحْتُرِىّ ، فكان (١)

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) « ما أصح » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ب) : «لأنواع» ؛ وهو خطأ من الناسخ .

(٣) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد فى كلتا النسختين ، والسياق يقتضيها ، إذ لا تتم العبارة بدونها .

الجواب : إن هذا البابَ مُخْتَلَفٌ فيه ، ولا سبيل إلى رَفْعه ، وقد سَبَقَ هذا من الناس فى الفَرَزْدَقِ وجَرِيرٍ ومِنْ قَبْلهما فى زُهَيْر والنابغة حتَّى تكلمَ على ذلك الصدرُ الأول ، مع علوّ مَراتبهم فى الدِّين والعَقْلِ والبَيان ، لكن حَدَّثنا أبو محمد العَروضىُّ عن أبى العبّاسِ المُبَرِّدِ قال : سألنى عُبَيْدُ الله بنُ سُلَيْمانَ عن أبى تمّام والبُحْتُرىِّ ؛ فقلت : أبو تمّام يَعْلُو عُلوًّا رَفيعاً ، ويَسْقُطُ سُقُوطاً قَبيحًا ، والبحترىُّ أحسنُ الرجلين نمطًا ، وأعْذَبُ لَفْظًا ؛ فقال عُبَيْدُ الله :

قد كانَ ذٰلكَ ظنِّى فعـــادَ ظنِّى يَقينا

فقلتُ : وهٰذا أيضاً شِعْر . فقال : ما علمتُ .

فقال : هٰذه حكاية مفيدةٌ مِنْ هٰذا العالِمِ المتقدِّم ، وحُكمٌ يَلُوحُ منه الإنصاف ، وقد أغْنَى هذا القولُ عن خَوْضٍ كثير .

(٢) وَدَعْ ذا ؛ مِن أينَ دَخَلَتِ الآفَةُ على أصحاب المَذاهِب حتى افترقوا هذا الافتراق ، وتبَايَنُوا هٰذا التَّبايُنَ ، وخَرَجُوا إلى التكفير والتَّفسِيق وإباحةِ الدَّم والمالِ ورَدِّ الشَّهادَةِ وإطْلاقِ اللِّسان بالجرْح وبالقَذْع والتَّهاجُر والتَّقاطُع !

فكان الجواب : إنَّ المذاهبَ فُروعُ الأدْيان ، والأديان أصولُ المَذاهِب ، فإذا ساغ[1] الاختِلافُ فى الأديان — وهى الأصول — فلِمَ لا يَسُوغُ فى المَذاهب وهى الفروع .

فقال : ولا سَوَاء[2] ، الأديان اختَلَفَتْ بالأنبياء ، وهم أرْبابُ الصِّدْقِ والوَحْىِ المَوْثوق به ، والآياتِ الدَّالَّة على الصِّدق ؛ وليس كذٰلك المذاهِب .

فقيل : هٰذا صحيح ، ولا دافع[3] له ، ولكن لمّا كانت المذاهب نتائجَ

(١) فى (ب) « شاع » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٢) فى (ا) ولا سيما ؛ وهو تحريف إذ لا يستقيم به سياق الكلام .
(٣) فى (ا) « ولا رابع » ؛ وهو تحريف .

الآراء ، والآراء ثمراتِ العقول ، والعقولُ مَنائحَ الله للعباد ، وهذه النتائجُ مُختَلِفَةٌ بالصَّفاء والكَدَر ، وبالكمال والنَّقص ، وبالقِلّة والكَثْرة ، وبالخفاء والوُضوح ؛ وَجَبَ أن يَجْرِيَ الأمرُ فيها على مَناهجِ الأدْيان في الاختِلاف والافتراق وإن كانت تِلكَ مَنُوطَةً بالنبوَّة ؛ وبعد ، فما دامَ الناسُ على فِطَرٍ كثيرةٍ ، وعادَاتٍ حَسَنَةٍ وقَبيحة ، ومَناشِئَ محمودةٍ ومَذمومة ، ومُلاحَظَاتٍ قريبةٍ وبعيدة ، فلا بدّ من الاختِلاف في كلّ ما يُختَارُ وَيُجتَنَب ، ولا يَجوزُ في الحِكمَةِ أنْ يَقعَ الاتفاق فيما جرَى مَجرَى المَذاهبِ والأدْيان ؛ ألَا تَرَى أنّ الاتفاق لم يَحصُل في تفضِيل أمة على أمّة ، ولا في تفضيلِ بَلَدٍ على بَلَد ، ولا في تَقديمِ رَجُلٍ على رَجُل ، ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التَّعَصُّبُ واللَّجاجُ والهوَى والمَحْكُ والذَّهابُ مَعَ السابق إلى النفس ، والموافِقُ [لِلمزاج] ، والخفيفُ على الطِّباع ، والمالكُ للقَلْب ، لكان كافياً بالِغاً بالإنسان كلّ مبلغ .

وشيخُنا أبو سُلَيمانَ يقول كثيراً : إنَّ الدِّينَ مَوْضُوعٌ على القَبولِ والتَّسليم ، والمُبالَغةِ في التَّعْظيم [1] ، وليس فيه « لِمَ » و « لا » و « كيفَ » إلا بقدرِ ما يؤكِّدُ أصْلَه ويَشُدُّ أزْرَه ، ويَنفِي عارِضَ السُّوءِ عنه ، لأن ما زادَ على هذا يُوهِنُ [الأصْلَ] بالشكّ ، ويَقْدَحُ في الفرْع بالتُّهمةِ .

قال : وهذا لا يخصّ دِيناً دُونَ دِين ، ولا مقالةً دُون مَقالة ، ولا نِحْلَةً دون نِحْلَة ، بل هو سارٍ في كلّ شيء في كلّ حالٍ في كلّ زمان ، وكلّ مَن حاوَلَ رَفْعَ هذا فقد حاوَلَ رَفْعَ الفِطْرَة وَنَفْيَ الطِّباع وَقَلْبَ الأصْل ، وَعَكْسَ الأمر ؛ وهذا غيرُ مُسْتَطاعٍ ولا مُمْكِن ؛ وقد قيل : « إذا لم يَكُنْ ما تُريد فأرِدْ ما يكون » .

(١) في كلتا النسختين « والتعظيم » بالواو ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

وقال لنا القاضى أبو حامد المَرْوَرُّوذِىُّ : أنا منذ أربعين سنةً أجْتَهِدُ معَ أصْحَابِنَا البَصْرِيِّينَ فى أنْ أُصَحِّحَ عندهم أن بغدادَ أطْيَبُ مِنَ البَصْرَةِ ، وأنَا اليومَ فِى كلامِى معهم كما كنتُ فى أوّل كلامِى لهم ، وكذلك حالهُمْ مَعِى ، فهٰذا هٰذا . أنظر إلى فَضْل وَمَرْعُوش — وهما مِن سَقَطِ النّاس وَسِفْلَتِهم — كيف لَهِجَ الناسُ بهما و بالتعَصُّب لهما حتى صارَ جميعُ مَن ببغداد إما مَرْعُوشِيًّا و إمَّا فَضْلِيًّا .

ولقدْ أُجْتازَ ابنُ مَعْرُوف وهوَ عَلَى قَضَاء القضاة بباب الطاق فتَعَلَّقَ بعضُ هٰؤلاء المُجّان بِلِجام بَغْلَتِه ، وقال : أيُّها القاضى ، عرِّفْنا ، أنتَ مَرْعُوشِيٌّ أمْ فَضْلِيٌّ ، فتحيّرَ وعَرَفَ ما تَحْتَ هٰذه الكَلِمَةِ مِنَ السَّفَهِ والفِتْنَة ، وأنّ التخلُّصَ بالجوَابِ الرَّفِيق أجْدَى عليه مِن العُنْفِ والخُرْق و إظْهارِ السَّطْوة ؛ فالْتَفَتَ إلى الحرّانىّ — وكانَ معه وهو من الشهود — فقال : يا أبا القاسم ، نحن فى مَحَلَّةِ مَن ؟ قال : فى مَحَلّةِ مَرْعُوش ؛ فقال ابنُ معروف : كذلك نَحْنُ — عافاكَ اللهُ — مِنْ أصْحَابِ مَحلّتِنا لا نَخْتارُ على أختيارِهم ؛ ولا نَتَمَيّزُ فيهم . فقال العَيّار : اِمْشِ أيُّها القاضِى فى سِتر الله ؛ مِثْلُكَ من تَعَصَّبَ للجيرَان .

فقال الوزير — أحْسَنَ اللهُ تَوفِيقَه — هٰذا كلُّهُ تعصُّبٌ وهَوًى وتَمَاحُكٌ(١) وتكلُّفٌ . قِيل : هٰذا وإنْ كانَ هكذا فهو داخلٌ فيما عَدَاهُ مِنْ حَدِيث الدِّين والمَذْهَبِ والصِّناعَةِ والبَلَد .

قال أبو سليمان : ولمصلحةٍ عامّةٍ نُهِيَ عن المِراء والجدَل [فى الدِّين] على عادة المتكلّمين ، الذين يزعمون أنّهم يَنصُرُونَ الدّين(٢) ، وهمْ فى غايةِ العَداوَةِ

(١) فى (ا) « وتماسك » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ب) « الجدل » مكان « الدين » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

للإسلامِ والمُسْلِمين ، وأبْعَدُ الناسِ من الطُّمَأنينة واليَقِين .

ثم حدّث فقال :

اجتمعَ رَجُلان : أحـدهما يقول بقَوْلِ هِشام ، والآخَرُ يَقُولُ بقَوْل الجوَاليقيّ ؛ فقال صاحِبُ الجَوَاليقيّ لصاحب هشام : صِفْ لِي رَبَّكَ الّذى تَعْبُده ، فوَصَفَه بأنّه لا يَدَ له ولا جارِحةَ ولا آلةَ ولا لِسان ، فقال الجواليقيّ : أيسرُّكَ أنْ يكون لكَ وَلَدٌ بهذا الوصف ! قال : لا ، قال : أمَا تَسْتَحِي أن تصفَ رَبَّك بصفةٍ لا تَرْضاهَا لوَلدِك ! فقال صاحبُ هِشام : إنَّكَ قد سَمِعْتَ ما تَقُول ، صِفْ لى أنْتَ رَبَّكَ ؛ فقال : إنّه جَعْدٌ قَطط فى أتمّ القامات وأحْسَن الصُّوَر والقَوام . فقال صاحب هِشام[١] : أيسُرُّكَ أنْ تـكونَ لكَ جاريةٌ بهذه الصِّفة تَطَؤُها ؟ ! قال : نعم ، قال : أفما تستحى من عبادة من تُحِبُّ مُباضَعَةَ مِثْلِه ! ! وذلك لأنّ مَنْ أحَبَّ مُباضَعَتَه فقد أوْقَعَ الشَّهْوَةَ عليه .

فقال : هذا من شؤم الـكلام ونـكد الجَدَل ، فلو كان هُناكَ دِينٌ لـكان لا يَدُورُ هذا فى وَهْم[٢] ولا يَنْطِقُ بهِ لِسان .

وَحَكى أيضاً قال : ابْتُلِيَ غلامٌ أعْجَمِيٌّ بوَجَع شديد ، فجعل يتأوّهُ ويتلوّى ويَصِيح . فقال له أبوه : يا بُنيّ أصبِرْ واحْمَدِ اللهَ تعالى . فقال : ولماذا أحْمَدُه ! قال لأنه ابْتَلاكَ بهذا ؛ فاشتَدَّ وَجَعُ الغُلامِ ورَفَعَ صَوْته بالتأوُّه أشَدَّ مِمّا كان ، فقال له أبُوه : ولِمَ اشتدَّ جَزَعُك ! فقال : كنتُ أظُنُّ أنَّ غَيْرَ اللهِ ابْتَلانى بهذا فـكنتُ أرْجُوهُ أن يُعافِينى من هذا البلاء ويَصْرِفَه عنّى ، فأمّا إذ كانَ هوَ

(١) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه العبارة « الجواليقى » مكان « هشام » ، وهو خطأ من الناسخ ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا . وعبارة (ب) «فقال له» ثم ذكر كلامه .

(٢) فى (ب) « فى خاطر » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

الّذى أبتلانى به فن أرْجو أنْ يُعافِيَنى ! فالآن أشتدَّ جزَعِى ، وعَظُمَتْ مُصيبَتِى . قال : ولو عَلِمَ أنّ الّذى أبتلاه هو الذى أستَصْلَحَه بالبَلاء لِيَكُونَ إذَا وَهَب له العافيةَ شاكِرًا له عليها بحِسٍّ صَحِيحٍ وعِلْمٍ تامٍّ لَكان لا يَرى ما قالَه وتوهَّمَه لازِمًا .

وحَكَى أيضًا أنّ رَجلاً مِن العَجَم حَجَّ وتَعَلَّقَ بِأستارِ الكَعْبَةِ فَطَفِقَ يَدْعُو ويَقول: يا مَن خَلَق السِّباعَ الضارِيَةَ ، والهَوامَّ العادِيَةَ ، وسَلَّطها على الناس ، وضَرَبَهُمْ بالزَّمانَةِ والْعَمَى والفَقْرِ والحاجة ؛ فوَثَب الناسُ عليه وسَبُّوه وزَجَروه وقالوا : ادع اللهَ بأسْمائِه الحُسْنَى . فأَظْهر لهم النَّدامة ، والتَّقارف[1] فَخَلَّوْا عنه بعد ما أرادُوا الوَقيعةَ به ، فرَجَعَ وتَعَلَّق بأسْتارِ الكَعْبة ، وجَعَلَ يُنادِي : يا مَنْ لم يَخلق السِّباعَ الضَّارِيَةَ ، ولا الهَوَامَّ ، ولا سلَّطها على النَّاس ، ولمْ يَضرِب الناسَ بالأوْجاع والأسْقام . فوثبوا [عليه] أيضاً وقالوا له : لا تَقُلْ هذا فإنّ اللهَ خالقُ كلِّ شيء ؛ فقال : ما أدْرِى كيفَ أعمل ؟ إنْ قلتُ : إنّ اللهَ خالقُ هذه الأشياء وَثَبْتم علىّ ؛ وإن قلتُ : [إنّ اللهَ] لم يَخْلُقْها وثَبْتمْ علَىّ . فقالوا : هذا يَنْبَغى أنْ تَعلَمه بقَلْبك ولا تَدْعُ اللهَ به .

قال أبُو سُلَيْمان : وهذَا أيضاً مِن شُؤْم الكلامِ وشُبَه المُتكلِّمين الّذين يَقُولون : لا يَجُوزُ[2] أنْ يُعتَقَدَ شيء بالتقليد ، ولا بُدَّ مِن دليل ، ثم يُدَلِّلون ويَخْتَلِفُون ، ثم يَرْجِعُون إلى القَوْل بأنّ الأدِلّةَ مُتَكافئة .

وكان ابنُ البَقّال يَجْهَر بهذا القول ، فقلتُ له مرّةً : لِمَ مِلْتَ إلى هذا المَذْهب ؟ فقال : لِأنى وَجَدْتُ الأدِلّةَ مُتدافِعَةً فى أنفُسها ، ورأيتُ أصحابَها

(١) عبارة (ا) «وفارق بخلوا عنه» ؛ وهو تحريف . والتقارف : التقارب والمداناة .
(٢) كذا فى (ا) والذى فى (ب) « لا يجب » . ولعلها محرفة عن « لا يُحبُّ » بالبناء للمجهول .

يُزَخْرِفُونها ويُمَوِّهُونها لتُقْبَلَ منهم ، وكانوا كأصحاب الزُّيُوفِ الذين يَغُشُّون النَّقْدَ لِيَنْفُقَ عِنْدَهم ، وتدور المُغالَطةُ[(١)] بينهم . فقلتُ له : أَمَا تَعْرِفُ بأنَّ الحقَّ حَقٌّ والباطِلَ باطل ؟ قال : بلى ، ولكن لا يَتَبيَّن[(٢)] أَحَدُهُما من الآخر . قلتُ : أَفَلأَنه لا يتبيّن لك الحقُّ مِنَ الباطِلِ تَعْتَقِد أنّ الحقَّ باطِل وأنّ الباطلَ حقّ ؟ قال : لا أَجيء إلى حقّ أَعْرِفُهُ بعَيْنِه فأعتقِد أنّه باطل ، ولا أجيء أيضاً إلى باطل أعْرِفُهُ بعَيْنِه فأَعْتَقِد أنه حَقّ ، ولكنْ لمّا الْتَبَس الحقُّ بالباطِلِ والباطِلُ بالحق قُلتُ : إنّ الأدِلّة عليهما ولهما متكافِئة ، وإنها مَوْقُوفَةٌ على حِذْقِ الحاذِق في نُصْرَتِه ، وضَعْفِ الضَّعِيفِ في الذَّبِّ عنه . قلتُ فكأنّك قد رَجَعْتَ عن اعترافِكَ بالحَقّ أنّه حَقّ ، وبالباطِلِ أنّه باطِل . قال : ما رَجَعْتُ . قلتُ فكأنّك تَدّعي الحَقّ حقًّا جُمْلَةً والباطلَ باطِلاً جُمْلَةً من غير أنْ تُميِّزَ بالتفصيل . قال : كذا هو . قلتُ : فما نَفْعُكَ[(٣)] بالاعتراف بالحقّ وأنّه مُتَميِّزٌ عن الباطل في الأصل ، وأنت لا تميِّزُ بينهما في التفصيلِ ؟ قال : والله ما أدْرِي ما نَفْعِي منه . قلتُ فلِمَ لا تَقُول : الرأيُ أن أقفَ فلا أحكُمَ على الأدِلّة بالتّكافؤ ، لأنّ الباطلَ لا يُقاوِمُ الحقّ ، والحقّ لا يَتَشَبّه بالباطل ، إلى أن يَفْتَح اللهُ بَصَرِي فأرَى الحقّ حقًّا في التفصيل ، والباطلَ باطِلاً على التّحصيل ، كما رأيتُهما في الجُمْلة ، وأنّ الّذِي فَتَح بَصَرِي على ذلك في الأوّلِ هوَ الّذي غَضّ بَصَرِي عنه في الثاني ؟ قال : يَنْبَغِي أنْ أنظُرَ فيما قلتَ . فقلتُ : انْظُرْ إنْ كانَ لك نَظَر ، ولا تَتَكلّف النّظرَ ما دامَ بكَ عَمًى أوْ عَشًا أو رَمَد .

---

(١) كذ في (ا) والذي في (ب) « المعاملة » .

(٢) في كلتا النسختين « يبين » بسقوط « لا » ؛ والصواب ما أثبتنا كما يؤخذ مما يأتي بعد .

(٣) في (ا) « تفعل » ؛ وهو تحريف .

وحكى لنا أبو سليمان قال : وصَف لنا بعضُ النّصارَى الجَنَّةَ فقال : ليس فيها أَكْلٌ ولا شُرْبٌ ولا نِكاح . فسَمِعَ ذلك بعضُ المتكلِّمين فقال : ما تصف إلاّ الحُزْنَ والأسَفَ والبَلاء .

وقال أبو عيسى الورّاق — وكان مِن حُذّاق المتكلِّمين — إنّ الآمر بما يَعْلَمُ أنّ المأمور لا يَفْعَلُه سَفيه ، وقد عَلِمَ اللهُ مِن الكفّار أنّهم لا يؤمنون ، فليسَ لأمْرِهِمْ بالإيمانِ وَجْهٌ في الحِكْمَة .

قال أبو سليمان : أنظُرْ كيف ذَهب عليه الشَّرُّ في هذه الحال ، مِنْ أيْنَ أتَوا ، وكيف لَزِمَتْهم الحجّة .

وقال أبو عيسى أيضاً : المُعاقِبُ الّذى لا يَسْتَصْلِحُ بِعُقُوبته من عاقبَه ، ولا يستَصْلحُ به غَيْره ، ولا يَشْفى غيظَه بعقُوبَتِه جائر ، لأنّه قد وَضَع العُقُوبَةَ في غير مَوْضِعها . قال : لأنّ الله تَعالَى لا يَسْتَصْلِحُ أهْلَ النار ولا غيرَهم ، ولا يَشْفِي غَيْظَه بعُقُوبَتِهم ، فليس للعُقُوبَةِ وَجْهٌ في الحِكْمَة . هذا غَرَضُ كِتابِهِ الّذى نَسَبَه إلى الغَرِيبِ المَشْرقِيّ .

وقال أبو سَعِيد الحَضْرَمِيّ — وكان من حُذّاقِ المُتكلِّمين ببَغْداد ، وهو الذى تَظاهَرَ بالقَوْل بتكافُؤ الأدلّة — إنْ كانَ الله عَدْلاً كريماً جَوَادًا عَليماً رَءوفاً رَحيماً فإنّه سَيُصَيِّرُ جميعَ خَلقِه إلى جَنّته ، وذلك أنّهم جميعاً على اختلافهم يَجْتهدُون في طَلَب مَرْضَاتِه ، فيَهرُبُون مِنْ وَقْع سُخْطه بِقَدْرِ عِلْمِهِمْ وَمَبْلغ عُقولهم ، وَإنّما تَرَكُوا اتِّباعَ أمرِه لأنّهم خُدِعُوا ، وزُيِّنَ لهم الباطِلُ بِاسمِ الحقّ ؛ ومَثَلُهم في ذلك مَثَلُ رَجُل حَمَلَ هَديّةً إلى مَلِك ، فعَرَضَ له في الطريقِ قومٌ شأنُهم الخِداعُ والمَكْرُ والأستِلال[١] ، فنَصَبوا له رَجُلا ، وسمّوْه باسم الملك

(١) في (أ) «والاسترلال» وفي (ب) «والاسترسال» ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين.

الذى كان قَصَدَه ، فسَلَّمَ المدِيةَ إليهم ؛ فالملِكُ الّذى قَصَده إنْ كان كريماً فإنّه يَعْذِرُه ويَرْحَمُهُ ويَزِيدُ فى كرامَتِه وبِرِّه حِينَ يقِفُ على قِصَّته ، وهذا أوْلَى به مِنْ أنْ يَغضَبَ عليه ويُعاقبه .

وقال أبو سليمان : ذكروا أنّ رَجُلاً رَأى قوماً يتَنَاظَرُون ، فجَلَسَ إليهم فرآهم مُخْتَلِفِين ، فأقْبَلَ على رَجُل منهم فقال : أتُلْزِمُنِى أنْ أقولَ بقَوْلِكَ وأنا لا أعْلَمُ أنّكَ مُحِقٌّ ؟ فإنْ قلتَ : نعَم ، قلتُ لك : إنّ بعضَ جُلَسائك يدعونى إلى مخالَفَتِك واتِّباعِه ، وليس عِندى عِلْمٌ بالمُحِقِّ منكم ؛ وإن ألزَمْتَنِى أنْ أتّبعَ كلَّكُم فهٰذا مُحال ، وإن قلت : لا يَلزَمُكَ أنْ تتّبِعَنى ولا غَيْرِى إلّا بَعْدَ العلم بالمُحِقِّ منكم ، لم يَخْلُ العلمُ بذٰلك مِنْ أنْ يكون فِعْلِى أو فِعْلَ غيرى ، فإنْ كان العلمُ فِعْلاً لِغَيْرِى فقد صِرْتُ مُضْطَرّاً ، ولا أسْتَوْجِبُ عليه حمداً ولا ذمّاً [وإن كان الفعل لى] فمَنْ أعْظَمُ جَهالَةً مِمّن يَفعل ما يَلْزَمُه الأمْرُ والنهْىُ به ، وإنْ قَصَّرَ صَيَّرَه ذٰلك إلى العَطَبِ والهَلاك ، مع أنّ هٰذا القَوْلَ يُؤَدِّى إلى أنْ أكُونَ أنا المُعْتَرِضُ على نَفسى ، لأنه إنما يَلْزَمُنِى ذٰلك إذا عَلِمْتُ أنّى أقْدِرُ أنْ أعْلَمَ وألّا أعْلَمَ .

وحَكَى لنا أيضاً قال : سئل عندنا رَجُلٌ مِن المتَحَيِّرِينَ بسِجِسْتَان فقِيل له : [ما دليلك على صحّة مقالتك ؟ فقال لا دليل ولا حجّة . فقيل له] وما الّذى أحْوَجَكَ إلى هـذا ؟ قال : لأنّى رأيْتُ الدليلَ لا يكون إلّا مِنْ وُجُوهٍ ثلاثة : إمّا مِنْ طَرِيق النبوّة والآيات ، فإن كان إنما يَثبت من هذه الجهة فلم أشاهد شيئاً من ذلك ثبتت عندى مقالته .

وإما أن يكون يثبت بالكلام والقياس فإن كان إنما يثبت بذلك فقد

رأيتني مَرَّةً أخْصِمُ وَمَرَّةً أُخْصَم ، ورأيتُني أعْجِزُ عن الحجّة فأجدُها عند غَيْرِي ، وأتذبّبُ إليها مِن تِلْقاء نَفْسِي بعد ذلك ، فيَصِحُّ عِنْدِي ما كانَ باطِلاً ، ويَفْسُدُ عِنْدِي ما كان صحيحاً ؛ فلمّا كان هذا الوَصْفُ على ما وَصَفْتُ لم يكن لى أن أقضى لشىء بصحّةٍ من هذه الجهة ، ولا أقضِيَ على شيء بفَسادٍ لعدَمِ الحجّة .

وإمّا أن تكون ثبتَتْ بالأخبارِ عن الكُتُب فلم أجِدْ أهلَ مِلّةٍ أوْلَى بذلك مِنْ غيرهم ، ولم أجِدْ إلى تَصْدِيقِ كلِّهم سبيلاً . وكان تَصْدِيقُ الفِرْقَةِ الواحدةِ دُونَ ما سِواها جَوْرًا ، لأنّ الفِرَق مُتَساوِيةٌ فى الدَّعْوَى والحُجّةِ والذّبِّ والنُّصْرَة . فقيل له : فلِمَ تَدِينُ بدِينِك هذا الذى أنتَ على شِعارِهِ وحِلْيَتِه ، وهَدْيِه وهَيْئَتِه ؟

فقال : لأنّ له حرمةً ليسَتْ لغَيْرِه ، وذاك أنّى وُلِدْتُ فيه ، ونَشَأت عليه ، وتَشَرَّبْتُ حَلَاوَتَه ، وألِفْتُ عادَةَ أهْلِهِ ، فكان مَثَلِي كمَثَلِ رَجُلٍ دَخَل خاناً يستظلُّ فيه ساعةً مِنْ نَهار وَالسَّماء مُصْحِيَةٌ ، فأدخله صاحب الخان بيتاً من البيوتِ من غير تَخَبُّرٍ ولا مَعرِفَةٍ بصَلاحِه ، فبينا هو كذلك إذْ نَشَأَتْ سحابةٌ فمَطَرَتْ جَوْدًا ، وَوَكَفَ البَيْتُ ، فنَظَرَ إلى البُيوتِ التى فى الفُنْدُق فرآها أيضاً تَكِفُ ، ورأى فى صَحْنِ الدَّارِ رَدْغَة ، ففكّرَ أنْ يُقِيمَ مَكانَه ولا يَنْتَقِلُ إلى بَيْتٍ [آخر] ويَرْبَحَ الرَّاحةَ ، ولا يُلَطِّخ رِجْلَيْه بالرَّدْغَة والوَحَلِ اللّذَيْنِ فى الصَّحْن ؛ ومالَ إلى الصَّبْرِ فى بَيْتِه ، والمُقام على ما هُوَ عليه ، وكان هذا مَثَلى ، وُلِدْتُ ولا عَقْلَ لى ، ثم أدْخَلَنى أبَوَاىَ فى هذا الدِّينِ مِن غَيْرِ خِبْرَةٍ مِنّى ، فلمّا فتّشْتُ عنه رَأيْتُ سَبِيلَه سَبِيلَ غَيْرِه ، ورَأيتُنى فى صَبْرِى

عليه أعزّ مِنِّى فى تَرْكِه ، إذ كنتُ لا أَدَعُه وأَمِيلُ إلى غَيْرِه إلاّ باختيار مِنِّى لذلك ، وأثَرَةٍ له عليه ؛ ولَسْتُ أجِدُ له حُجّةً إلاَّ وأجِدُ لغَيْرِه عليه مِثْلَها .

وحَكَى لنا ابنُ البقّال — وكان مِنْ دُهاةِ الناسِ — قال : قال ابن الهَيْثم : جُمِع بَيْنِى وبَيْنَ عُثمانَ بنِ خالد ، فقال لى : أُحِبُّ أنْ أُناظِرَك فى الإمامة ؛ فقلتُ : إنّكَ لا تُناظِرُنى ، وإنّما تُشيرُ عَلَيّ ؛ فقال : ما أفعَلُ ذلك ، ولا هذا مَوْضِعُ مَشُورة ، وإنما اجتَمعْنا للمناظَرة ؛ فقلتُ له : فإنّا قد أجْمَعْنا على أنّ أوْلَى الناسِ بالإمامة أفضَلُهم ، وقد سَبَقَنا القومُ الذين يتَنازَعُ فى فَضْلِهم ، وإنما يُعْرَفُ فضلُهم بالنَّقْلِ والخَبَر ؛ فإنْ أحْبَبْتَ سَلَّمْتُ لك ما تَرْوِيه أنتَ وأهْلُ مَذْهَبِكَ فى صاحِبِك ، وتُسَلِّمُ لِى ما أرْوِيه أنا وفِرْقَتِى فى صاحِبِى ، ثم أُناظِرُكَ فى أىِّ الفَضائل أعْلى وأشرَف ؛ قال : لا أريد هذا ، وذاكَ أنى أرْوِى مع أصحابى أنّ صاحبِى رَجُلٌ مِنَ المسلمين يُصيبُ ويُخطِئُ ، ويَعلَمُ ويَجْهَل ؛ وأنت تقولُ فى صاحبك : إنّه مَعْصومٌ من الخطأ ، عالِمٌ بما يحتاج إليه . فكيفَ أرضَى هذه الجُملة ؟ قلت : فأقْبَلُ كلّ شىء تَرْوِيه أنت وأصحابُكَ فى صاحبِى مِن حَمْدٍ أو ذَمّ ، وتَقْبَلُ أنت كلّ شىء أرْوِيه أنا وأصحابى فى صاحِبِك من حَمْدٍ أو ذَمّ ؛ قال : هذا أقْبَحُ من الأوّل ، وذلك أنى وأصحابى نَرْوِى أنّ صاحِبك مؤمنٌ خَيِّرٌ فاضِل ، وأنت وأصحابُك تَرْوُون أنّ صاحِبى كافرٌ مُنافِق ؛ فكيف أقبَلُ هذا منك وأناظِرُك عليه ؟

قال ابن الهيثم : فلم يَبْقَ إلاّ أن أقول : دَعْ قَوْلَكَ وقولَ أصحابِكَ ، واْقبلْ قولى وقولَ أصحابى ؛ قال : ما هو إلاّ ذاك ؛ قلت : هذه مَشُورَة ، ولَيْسَت مناظَرَة . قال : صَدَقْتَ .

وحَكَى لنا الزُّهَيْرِيُّ قال : سأَلَ رَجلٌ آخَرَ فقال : أتقولُ إنَّ اللهَ نَهانا أنْ نعبُدَ إلٰهَيْنِ ؟ قال : نعم ؛ قال : [وأمَرَنا أنْ نَعْبُدَ إلٰهًا واحداً ؟ قال :] نعم ؛ قال : فالاثنان اللّذان نَهانا عن عِبادَتِهما مَعقولان هكذا ؟ وأشار بإصْبَعَيْه ، قال : نعم ؛ قال : فالواحِدُ الّذى أمَرَنا بعِبادتِه مَعقولٌ هكذا ؟ وأشار بإصبع واحدة ؛ قال : لا ؛ قال : فقد نهانا عمّا يُعقَل وأمرَنا بما لا يُعقَل ، وهذا يُعلَمُ ما فِيه فانظُرْ حَسَنًا .

وحَكَى لنا الزُّهَيْرِيُّ قال : حَدَّثنا ابنُ الأخْشادِ قال : تنَاظَرَ رَجلانِ فى وَصْفِ البارِى سُبْحانَه ، واشتَدَّ بَيْنَهُما الجدال ، فتَراضَيَا بأوّلِ مَن يَطْلُعُ عليهما ويَحْكُمُ بَينَهُما ، فطَلَعَ أعرابىٌّ ، فأجلَسَاه وقَصّا قِصّتَهُما ، ووَصَفَا له مَذْهَبَيْهِما ؛ فقال الأعرابىُّ لأحَدِهما — وكان مُشبِّهًا — : أمّا أنتَ فتَصِفُ صَنَمًا ، وقال للثانى : وأمّا أنتَ فتَصِف عَدَمًا ، وكِلاكُما تقُولان عَلَى اللهِ ما لم تَعلَمَا .

وقال لنا الأنصارىُّ أبو كَعْب : قال أبنُ الطحّان الضَّرِيرَ البَصْرِىَّ — وكان يَقُولُ بقَوْلِ جَهم — : إذا كان يوم القِيامة بَدّل اللهُ سَيِّئاتِ المؤمنين حَسَنات ، فيَنْدَمُون عَلَى ما قصّرُوا فيه من تَنَاوُل اللّذّاتِ ، وقَضاء الأوْطار بالشَّهَوَات ؛ لأنهم كانوا يتَوقّعون العِقاب ، فنالوا الثَّوَاب ؛ وكان يَتلو عند هذا الحديث قولَ اللهِ عزّ وجلّ : (فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) .

وحَكَى لنا ابنُ الثّلاّج قال ، قال أبو عُثمانَ الآدَمِىُّ : إنّ الجَنّةَ لا ساتِرَ فيها ، وذلك لأنّ كلّ ساترٍ مانِع ، وكلّ مانِعٍ آفَة ، وليستْ فى الجَنّة آفَة ، ولهٰذا رُوِىَ فى الحديث : إنّ الحُورَ يُرَى مُخُّ ساقِها مِنْ وَراء سبْعين حُلّةً

سِوَى ما تَحْتَ ذلك من اللحم والعظم ، كالسِّلْكِ فى الياقوت ؛ فقال له قائل : الجُنّةُ إذًا أَوْلَى مِنَ الحمّام ، إذ قيل : بئسَ البَيْتُ الحمّام ، يُذْهِبُ الحياء ، ويُبْدِى العَوْرَة .

وحَكَى لنا ابنُ رَبَاطٍ الكوفىُّ — وكان رئيسَ الشِّيعةِ ببغدادَ ، ولم أَرَ أنطَقَ منه — قال : قيل لأميرِ المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب — عليه السلام — مِنْ أَيْنَ جاء اختلافُ النّاسِ فى الحديث ؟ فقال : الناسُ أَرْبعة : رَجُلٌ مُنافِقٌ كَذَبَ عَلَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم متعمِّدًا ، فلو عُلِمَ أنه مُنافِقٌ ما صُدِّقَ(١) ولا أُخِذَ عنه . ورجل سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً أو رآه يفعل فعلاً ثم غاب ونُسِخ ذلك من قوله أو فعله ، فلو علم أنه نُسِخ ما حَدَّثَ ولا عَمِلَ به ولو عَلِمَ الناسُ أنه نُسِخ ما قَبِلوا منه ولا أَخَذُوا عَنْه ورَجُلٌ سَمِعَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول قولاً فوَهِمَ فيه ، فلو عَلِمَ أنه وَهِمَ ما حَدَّثَ ولا عمل به . ورجلٌ لم يَكْذِبْ ولم يَهِمْ ، وشَهِدَ ولمْ يَغِبْ .

قال : وإنما دَلَّ بهذا عَلَى نَفْسِه ، ولهذا قال : كنتُ إذا سُئِلتُ أَجَبْتُ ، وإذا سَكَتُّ ابْتُدِئْتُ .

وحَكَى لنا ابن زُرْعَةَ النَّصرانىُّ قال : قيل للمسيح : ما بالُ الرَّجلين يَسْمَعانِ الحقَّ فيَقْبَلُه أحدُهما ولا يَقْبَلُه الآخرَ ؟ فقال : مَثَلُ ذلك مَثَلُ الرّاعى الذى يصوِّت بغَنَمِه فتَأْتيه هذه الشاةُ بِندائه ، ولا تأتيه هذه .

قال أبو سليمان : هـذا جوابٌ مَبْتور ، وليس له سَنَن ، ولعلَّ الترجمة قد

---

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (١) : « ما حدث » .

حافت عليه ، والمعنى انحرف عن الغاية ؛ وليس يجوز أن يكون حال الإنسان كيف كان ، حالَ الشاةِ فى إجابةِ الداعى وإبائها(١) ، فإنّ له دَواعِيَ ومَوانعَ عقليّةً [وحِسِّيّة] .

فقال الوزير : هذا أيضاً بابٌ قد مَضى مُستَوْفًى ، ما الذى سمعتَ اليوم ؟ فقلتُ : رأيت ابن برمويه فى دَعْوَة ، وتَرَامَى الحديث فقال : رأيتُ اليومَ الوزيرَ شديدَ العُبوس ، أهُوَ هكذا أبداً ، أم عرَضَ له هذا عَلَى بَخْتى ؟ فقال أبنُ جَبَلة : لعلَّه كان ذاك لسبَب ، وإلاّ فالبِشرُ غالبٌ عَلَى وَجْهه ، والبَشاشةُ مألوفةٌ منه . فقال ابن برمويه : ما أحْسَنَ ما قال الشاعر :

أخو البِشْرِ محمودٌ عَلَى حُسْنِ بِشرِهِ ولن يَعْدَمَ البَغضاء مَن كان عابِسا

فقال عليُّ بنُ محمد — رسولُ سِجِستان — : ما أدْرِى ما أنتُما فيه ، ولكن يقال : ما أرْضى الغَضْبان ، ولا اُستَعطِفَ السلطان ، ولا مَلَكَ الإخوان ؛ ولا استُلَّت الشَّحْناء ، ولا رُفِعت البَغضاء ؛ ولا تُوُقِّىَ المحذور ، ولا اجتُلِبَ السرور ؛ بمثل البِشر والبِرّ ، والهَديّةِ والعَطيّة .

وقال الوزير : هاتِ مُلْحَةَ المجلس(٢) .

فكان الجوابُ : قال أبو همّام ذاتَ يوم : لو كان النخلُ لا يَحمِلُ بعضُه إلاّ الرُّطَب ، وبَعضُه [إلاّ] البُسْر ، وبعضُه إلاّ الخَلاَل(٣) ، وكنّا متى

(١) كذا فى (ا) . والذى فى (ب) : « وإتيانه » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ب) : « الوداع » مكان قوله : « المجلس » .
(٣) الخلال بفتح الخاء : البسر إذا اخضر واستدار .

تنَاوَلْنا مِنَ الشِّمْرَاخِ بُسْرَةً خَلَقَ اللهُ مَكانَها بُسْرَتَيْن ، ما كان بذلك بأس .

ثم قال : أستغفِرُ اللهَ ، لو كنتُ تمنَّيْتُ بَدَلَ نَوَاةِ التَّمر زُبْدَةً كان أصْوَب .

وسأَلَ الوزيرُ : هل يقال فى النساء رَجُلة ؟ (٣)

فكان الجواب : حَدَّثَنا أبو سَعِيد السِّيرافىُّ قال : كان يقال فى عائشةَ بنتِ أبى بكرٍ الصِّدِّيقِ [رضى الله عنهما] : « كانت رَجُلَةَ العَرَب » ، وإنما ضاعَتْ هذه الصِّفَةُ عَلَى مَرِّ الأيام بغَلَبَةِ العُجْمان ؛ فقال : إنَّها واللهِ لكذلك ، ولقد سمعتُ مَن يقول : كان يُقال : لو كان لأَبِيها ذَكَرٌ مِثلُها لما خَرَجَ الأمْرُ منه .

قال : هل تَحْفَظُ مِن كلامِها شيئاً ؟ فقلتُ : لها كلامٌ كثيرٌ فى الشريعة ، والرِّوايةُ عنها شائعةٌ فى الأحكام ، ولقد نَطَقَتْ بعد مَوْتِ أبيها بما حُفِظ وأُذيع ، لكنِّى أحْفَظُ لها ما قالَتْهُ لمَّا قُتِلَ عثمان :

خرجَتْ والناسُ مُجْتَمِعون ، وعلىٌّ فيهم ، فقالت : أقُتِلَ أميرُ المؤمنين عثمان ؟ قالوا : نعم ، قالت : أمَا واللهِ لقد كنتُم إلى تَسْديد الحقِّ وتأكيده أحْوَجَ مِنكم إلى ما نَهَضْتُمْ إليه ، مِن طاعةِ مَن خالَفَ عليه ؛ ولكنْ كلَّما زادَكم اللهُ صحةً فى دِينِه ، ازْدَدْتُمْ تَثاقُلاً عن نُصْرَتِه طَمَعًا فى دُنياكم ، أمَا واللهِ لَهَدْمُ النِّعْمَةِ أيْسَرُ من بُنْيانِها ، وما الزِّيادَةُ إليكم بالشُّكر ، بأَسْرَعَ مِن زَوَالِ النعمةِ عنكم بالكُفْر ؛ أما لئن كان فَنِيَ أُكُلُه ، واخْتُرِمَ أجَلُه ، إنَّه لصِهْرُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وعَلَى آله وسلم مرَّتين ، وما عَلِمْنا [خَلْقاً] . تزوَّج ابْنَتَيْ نَبِيٍّ غَيْرَه ؛ ولو غَيْرَ أيْدِيكم قَرَعَتْ صفاتَه لوُجِد عند تَلَقِّى

الحربِ متجرِّدًا(١) ، ولِسُيوفِ النَّصْرِ متقلِّدًا ، ولكنّها فِتْنةٌ قُدِحَتْ بأيدِي الظَّلَمَة ؛ أمَا واللهِ لقد حاطَ الإسلامَ وأكّدَه ، وعضَّدَ الدِّينَ وأيَّدَه ؛ ولقد هدَم اللهُ به صَيَاصِيَ أهلِ الشِّرْك ، وَوَقَمَ(٢) أركانَ الكُفْر ؛ لِلهِ المُصِيبَةُ به ، ما أفْجَعَها ! والفَجِيعَةُ به ما أوْجَعَها ! صَدَّعَ واللهِ مَقْتَلُه صَفاةَ الدِّين ، وثلَمَتْ مصيبَتُه ذِرْوَةَ الإسلام ، تبًّا لقاتِلِه ، أعاذَنا اللهُ وإياكم مِنَ التلبُّسِ بدَمِه ، والرِّضا بقَتْلِه .

فقال الوزير : ما أفْصَحَ لسانَها ، وأشْجَعَ جَنَانَها ، فى ذلك المحْفِل الذى يَتَبَلْبَلُ فيه كلُّ قُلْقُلٍ(٣) !

وَرَوَيْتُ أيضًا أنّها قالت : مَكارِمُ الأخلاق عَشْر : صِدْقُ الحديث ، وصِدْقُ البَأْس(٤) ، وأداءُ الأمانة ، وصِلَةُ الرَّحِم ، وبَذْلُ المَعْرُوف ، والتَّذَمُّمُ للجار ، والتَّذَمُّمُ للصَّاحب ، والمُكافأةُ بالصَّنائع ، وقِرَى الضَّيْف ، ورأسُهُنَّ الحياء .

فقال : واللهِ لكأنَّها نَغَماتُ النبى صلى الله عليه وسلّم ، ما كان أشْهَمَها ، وأعْلَى نظَرَها ، وأبْيَنَ جوَابَها !!

(٤) وحدَّثنى أنَّ امرأةً تَظَلَّمَتْ إلى مسلِم بن قُتَيْبَة بخُراسان ، فزَبَرَها ، ولم يَنظُرْ فى قِصَّتِها ؛ فقالت له : إنَّ أميرَ المؤمنين بَعَثَكَ إلى خُراسانَ لِتَنْظُرَ هل تَثْبُتُ خُراسانُ بلا عاملٍ أم لا ؟ فقال لها مسلِم : اسكُتِى وَيْلَكِ ، فظلامَتُكِ مَسْموعة ، وحاجَتُكِ مَقْضِيَّة .

(١) فى (ا) : « متحركا » ؛ وهو تحريف .
(٢) وقم أركان الكفر : كسرها وأذلّها .
(٣) القلقل : السريع الخفيف المعوان .
(٤) فى (ا) : « الناس » بالنون . ووردت هذه الكلمة فى (ب) لا نقط فيها . ولعل الصواب ما أثبتنا .

وقال مسلم : ما وَخزَ قلبي قطّ شيءٌ مِثْلُ قَوْلِ هذه المرأة ، ولقد آليت ألاّ أستهين بأحدٍ من ذَكَرٍ أو أنثى .

وشبيهٌ بهـذا قول المُعَلَّى بن أيُّوبَ : رأيتُ فى دارِ المأمون إنسـانًا فازْدَرَيْتُه ، فقلتُ : لأيِّ شيءٍ تَصْلُحُ أنت ؟ عَلَى غَيْظٍ مِنِّى وتَغَضُّب ؛ فقال : أنا أَصْلُحُ لِأَنْ يقالَ لى : هل يَصْلُحُ مِثْلُكَ لِما أنتَ فيه أوْ لا . قال : فوَاللهِ ما وَقَرَتْ كَلِمَتُهُ فى أُذُنى حتَّى أظْلَمَ عَلَيَّ الجَوُّ ونَكِرْتُ نَفْسِي .

وكان عَبْدُ المَلِكِ بنُ مرْوَانَ إذا كان له خَصِيٌّ وَضِيءٌ أمَرَ أنْ يُحْجَبَ عن نِسائه ، وقال : هو رَجلٌ وإنْ قُطِعَ منه ما قُطِع ، وربّما اجتزَأتِ امرأةٌ بمِثْلِها ، ولِلعَيْنِ حظُّها .

قال عبد الرحمن بنُ سعيد القرشيّ : كان لِهشام بنِ عبدِ الملك خَصِيٌّ يقال له خالد ، وكان وَضِيئًا تأخُذُه العين ، مديدَ القامة ، فخمًا أبيضَ ، فأمرَ هشامٌ مَسْلَمَةَ بالغُدُوِّ عليه ، فغَدَا ، فقيل : اسْتَأْذِنْ لأخى أميرِ المؤمنين عليه ، فاستَخَفَّ وقال كلمةً سَمِعَها مَسْلَمَةُ ، فحَقَدَها عليه ، فلمّا دخل مَسْلَمَةُ إلى هشام لمْ يَزَلْ يُبدِى كُرْهُ شيئًا ، ويُشِيرُ عليه حتى حُطَّ عن فُرُشِه وجلَسَا عَلَى البساط ومَسْلَمَةُ فى ذلك يَرْمُقُ الخَصِيَّ مَتَى يَمُرُّ به ، فلمْ يَلْبَثْ أنْ مرَّ مُعَمَّمًا بعِمامَةِ وَشْىٍ ؛ فقال مَسْلَمة : يا أميرَ المؤمنين ، أيُّ فِتيانِنا هذا ؟ قال : غَفَرَ اللهُ لكَ يا أبا سَعْد ، هذا خالد الخَصِيّ ؛ قال ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لَضَمَّةٌ مِن هذا خيرٌ من مُجامَعَةِ رَجل ، فقَلِقَ هِشامٌ وجعل يَتَضَوَّر حتى قام مَسْلَمة ، ثم أمَرَ بالخادِمِ فأُخرِجَ من الرُّصافة ، فاتَّصَل ببعض بَنِيه ، فكتب إليه هِشام ، إنِّى نحَّيْتُه لِمَا بَلَغَكَ ، فجفاه ، فلَحِقَ الخادمُ بالثَّغْرِ .

(٥) وجرى حديثُ النفسِ وأنها كيف تعلَمُ الأشياء ، فقيل : النفسُ في الأصلِ علاّمة ، والعِلمُ صُورتُها ؛ لكنّها لما لابَسَتِ البَدَن ، وصار البَدَنُ بها إنساناً ، اعترضَتْ حُجُبٌ بينها وبينَ صُورتِها كثيفةٌ ولَطيفَة ، فصارت تَخرِقُ الحُجُبَ بكلِّ ما استطاعَتْ لتَصِلَ إلى ما لها مِن غَيْبِها ، فصارت تَعلَمُ الماضيَ بالاستخبارِ والتّعرُّف والبحثِ والمسْألَةِ والتّنقير ، وتَعلَمُ الآتيَ بالتّلقّي والتوكُّفِ والتّبشيرِ والإنذار ، وتَعلَمُ الحاضرَ بالتعارُفِ[1] والمُشاهدَةِ ومجالِ الحِسّ ؛ وهذه المَعلوماتُ كلُّها زَمانيّة ، ولهذا انقسَم بين الماضي والآتي والحاضر .

فأمّا ما هو فَوْقَ الزمان فإنّها تَعلَمُه بالمصادَفَةِ الخارجَةِ من الزّمان ، العاليةِ عَلَى حَصْرِ[2] الدَّهر ، وهذه عبارةٌ عن وجدانها ، لما لها في غَيْبها بالحرَكة اللائقة بها ، أعني الحركةَ التي هي في نوعِ السُّكون ، وأعني بهذا السكون الذي هو في نَوْعِ الحرَكة ؛ ولمّا فُقِدَ الاسمُ الخاصُّ بهذا المعنى ، ولم يُعرَف في الإخْبارِ والاستخبار إلاّ ما كان مألوفاً بالزّمان ، الْتَبَسَتِ العِبارةُ عنه باعتمادِ السُّكونِ فيما يُلحَظُ منه الحرَكة ، واعتمادِ الحرَكة فيما يُلحَظ منه السُّكون ، فصار هذا الجُزْء[3] كأنّه ناقِضٌ ومَنْقوض ، وهذا لِجَذْب[4] مَحلِّ الحِسّ مِنْ نَبْتِ[5] العَقْل ، وخِصْب[6] مَرادِ العَقْلِ بكلِّ ما عَلِقَ بالمَوجُودِ الحَقّ .

(١) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول ولا معنى للتعارف هنا .
(٢) في (ب) : « حصن » .
(٣) في (ب) : « الجبر » مكان قوله : « الجزء » .
(٤) في (١) : « الجزء » مكان قوله : « الجدب » .
(٥) في (١) : « ثبت » . وقد وردت هذه الكلمة في (ب) مهملة الحروف من النقط.
(٦) كذا في (ب) . والذي في (١) : « وخصت مواد العقل » ؛ وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام .

فقال الوزير : ما أغلَى نَجْدَ هذا الكلام ! وما أعْمقَ غوْرَه ! وإنى لأعْذِرُ كلَّ مَن قابلَ هـذا المَسْموعَ بالرّدّ ، واعترَضَ عَلَى قائله بالتّكبُّر ؛ ولَعَمْرى إذا تَعَايَتِ الأشياء بالأسماء والصِّفات ، وعَرَضَ العَجْزُ عن إبانتها بحقائق الألقاب ، حارَ العَقْلُ الإنسانيّ ، وحُيِّرَ الفَهْمُ الحِسّيّ ، واستَحَالَ المِزاجُ البَشَرِيّ وتهافَتَ التركيبُ الطِّينيّ ، وقَدَّرَ النّاظرُ فى هـذا الفنّ ، والباحثُ عن هذا المستَكنّ ، أنه حالِم ، وأنّ الحُلْمَ لا ثَمرَةَ له ، ولا جَدْوَى منه .

وهذا كلّه هكذا ما دامَ مَقيساً إلى الأمورِ القائمة[1] بشهادَةِ الإحْساس ؛ فأمّا إذا صَفَا الناظِرُ ، أعْنِى ناظرَ العَقْلِ مِنْ قَذَى الحِسّ ، فإنّ المطلوبَ يكُونُ حاضِرًا أكْثَرَ ممّا يَكونُ غيْرُه ظاهراً مُسْتَبانًا ؛ ولَيْسَتْ شهادَةُ العَبْدِ كشَهادَةِ المَوْلَى ، ولا نُورُ السُّهَى كنُورِ القَمَر .

قال : أنْشِدْنى أبياتاً غريبةً جَزْلَةً ، فأنشَدْتُ [لِهُدْبَةَ العُذْرِىّ] : (٦)

سَآوِى إلى خـيْرٍ فقد فاتَنِى الصِّبا ... وصِيحَ بِرَيْعانِ الشّـبَابِ فنُفِّرَا

أمـورٌ وألْوَانٌ وحالٌ تَقَلّبَتْ ... بنا وزَمَانٌ عُرْفُه قَدْ تَنَكّرَا

أصِبْنَا بما لوْ أنّ سَلْمَى أصـابَهُ ... تَسَهَّلَ من أرْكانِهِ ما توَعَّرَا

وإنْ نَنْجُ مِنْ أهوالِ ما خافَ قوْمُنا ... علَيْنا فإنّ اللهَ ما شـاءَ يَسَّرَا

وإنْ غالَنَا دَهْرٌ فقَدْ غالَ قَبْلَنـا ... مُلوكَ بَنِى نَصْرٍ وكِسْرَى وقَيصَرَا

وذِى نَيْرَبٍ[2] قد عابَنِى لِيَنالَنِى ... فأعْيَا مَدَاهُ عن مَدَاىَ فأقْصَرَا

---

(١) فى نسخة : « الغائبة » مكان « القائمة » .

(٢) النيرب : الحقـد . والذى فى (١) : « نيرب » . وفى (ب) : « سرب » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

فإنْ يكُ دَهْر نالَنى فأصـــابنى بريْبٍ فما تُشْوِى[١] الحوادثُ مَعْشَرَا
فلسْتُ إذا الضَّرّاء نابَتْ بِجُبَّأٍ[٢] ولا جَزِعٍ إن كان دَهرٌ تَغيَّرَا

فقيل : ما الْجُبَّأُ ؟ فقال : الْجَبانُ .

قال أبو سَعيد : حَـكى العلماء أنَّ فلانًا جُبَّأٌ ، إذا نَـكَلَ .

فقال : ما أمْتَنَ هذا الـكلامَ ، وألطَفَ هذا الْجَدَ ! وما أبْعَدَهُ من تَلْفيقِ الضَّرُورة ، وهُجْنَةِ التّـكلّف ، لولا أنَّ سامِعَه رُبَّما تَطَيَّرَ به ، وانكَسَرَ عليه .

(٧) فـكان الجوابُ : قَدْ مَرَّ فى الفَألِ والزَّجْرِ والطِّيَرَةِ والاْعْتِيَاف ما إذا تُحُقِّقَ لم يُعَجْ عَلَى مِثْلِ هـذا الاْستِشمار ؛ ولَعَمْرِى إنَّ المَذْكُورَ والمَسْموع إذا كان حَسَنًا وجَميلاً ومَحْبُوبًا ومُتَمَنًّى ، كان أخَفَّ عَلَى القَلْبِ ، وأخْلَطَ بالنَّفْس ، وأعْبَثَ بالرُّوح ؛ وكذلك[٣] إذا كان ذلك عَلَى الضِّدِّ ، فإنَّهُ يكونُ أزْوَى للوَجْه ، وأكْرَبَ للنَّفس ؛ ولـكنَّ الأمورَ فى الخيراتِ والشُّرُورِ لَيْسَتْ فاشية من الطِّيَرَةِ والعِيافَةِ ، ولا جارِيَةً على هـذه الحدود المعروفة ، وهى عَلَى مَقاصِدِها التى هى غاياتُها ، ومُتَوَجَّهاتُها التى هى نهاياتُها ؛ وإنما هـذه الأخلاق عارِضَةٌ للنِّساء وأشْباهِ النساء ، ومَن بِنْيَتُه[٤] ضعيفة ، ومادَّتُه من العَقْل طَفيفة ، وعادَتُه الجارِيَةُ سَخِيفة ؛ وإلاَّ فبِأيِّ بُرْهانٍ صَحَّ أنَّ الكلامَ الطَّيِّبَ يَجْلبُ المَحْبُوبَ ويكونُ عِلّةً له ؟! وأنَّ اللَّفْظَ الخبيثَ يَجْلبُ المـكرُوه ويكونُ

(١) تشوى : تخطىء .
(٢) فى (ا) : « مجبيا » . وفى (ب) : « مجبا » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .
(٣) كان الأولى أن يقول « ولا كذلك » أو « وليس كذلك » أو « وعكس ذلك » فإن الآتى بعد ليس كالذى ذكره قبل .
(٤) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « نفسه » .

عِلَّةٌ له ؟! هذا خَوَرٌ فى طباعِ قائله ، وتأنُّثٌ[١] فى عُنْصُرِ مُسْتَشْعِرِه ؛ ولوْ سَلَكَ العُلماء والبُصَرَاء هذَا الطَّرِيقَ فى كلِّ حالٍ وفى كلِّ أمْرٍ لأدَّى ذلك إلى فسادٍ عامّ ؛ وآثَرُ[٢] ما فى هذه القصَّة أنَّ الإنسانَ إنْ أعْجَبَه شىءٌ من هذا لا يُعَوِّلُ عليه ، وإن ساء منه شىءٌ لا يَحُطّ إليه ، بل يكون تَوَكُّلُهُ عَلَى رَبِّهِ فى مَسَرَّتِه ومَساءته ، أَكْثَرَ مِن تفرُّدِه بحَوْلِه وقوَّتِه ، فى اختيارِه وتَكَرُّهِه ، وهذَا يَحْتاجُ إلى عَقْلٍ رَصِين ، وهِمَّةٍ[٣] صاعِدة ، وشَكِيمةٍ شَدِيدة ، وليس يوجَدُ هذَا عند كلِّ أحد ، ولا يُصَابُ مع كلِّ إنسان .

فقال الوزير : قد أخذَت المسْئلةُ بحقِّها ، والمُستَزِيدُ منها ظالمٌ ، والزائد عليها متكلِّف .

(٨) وقال أيضاً : أُرِيدُ أنْ أسألَك عن ابن فارسٍ أبى الفتْح — فقد كنتَ عندَه بقَرْمِيسِين[٤] أياماً — وما وَضَحَ لك من تقدُّمه وتأخّره فى صِناعَتِه و بضاعتِه ؟

فكان من الجواب : إنّه شيخٌ فيه مَحاسنُ ومَساوِئُ ، إلّا أنَّ الرُّجْحانَ لما يُذَمُّ به لا لِما يُحْمَدُ عليه ، فمن ذلك أنَّ له خِبرةً بالتصرُّف ، وهُناك[٥] أيضاً قِسطٌ مِنَ العِلْمِ بأوائل الهندسة ، وتَشَبُّهٌ[٦] بأصحابِ البلاغة ، ومُذَاكَرةٌ

(١) فى كلتا النسختين : « وثابت » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين : « وأكثر » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .
(٣) عبارة (١) : « ومدة متباعدة » مكان قوله : « وهمة صاعدة » ؛ ومعناها لايناسب سياق الكلام هنا .
(٤) قرميسين بلد قرب الدينور بين همذان وحلوان .
(٥) فى (١) : « وهذا » مكان « وهناك » ؛ وهو خطأ من الناسخ .
(٦) فى (١) : « ونسبة » ؛ وهو تحريف .

فى المَحافلِ صالحة ؛ إلّا أنّ هذا كلّه مَرْدُودٌ بالرعونة والمَـكر(١) والإيهام والخِسّة والـكذب والغيبة ؛ وقد كان قرينُه بقَرْمِيسِين يَظُنُّ به خَيْرًا ، ويَلْحَظُه بعينٍ ما ؛ فلمّا سَبَرَه ذَمّه وكَرِهَ أنْ يُعاجِلَه بالصَّرْف لئلّا يُحْـكَمَ عَلَى اختيارِه بالخطأ ، وَعَلَى تَصَرُّفِهِ بالهَوَى . والـكُبَرَاء وذَوِى القُدْرَةِ زَلّاتٌ فاحشة ، وفَعَلاتٌ مُوحِشة ، ولـكنْ ليس لهمْ [عليها] مُعيِّر للخَوْف منهم ؛ فلمّا تَمَادَى قليلًا وَجَّهَ ابنَ وَصِيفٍ حتى صَرَفه(٢) وقَيَّدَه [بعد ما وَبَّخَه وَفَنَّدَه] وها هو ذا أُلقِيَ هٰهنا لا يُقْبَلُ بقَبْصَة(٣) ، ولا يُلْتَفَتُ إليه بلَحْظَة ، ومع ذلك يَظُنُّ أنَّ فَقْرَ الدّولة إلى نَظَرِه كفَقْرِ المُذْنِبِ إلى عافيتِه .

وله مع طاهر بن محمد بن إبراهيم شِرَار(٤) وقَبْقَبَة(٥) ، وتَنْدِيد وشُنْعة .

وحدّثنى ابنُ أحمد أمسِ أنّ ابنَ فارِس شارِعٌ فى أمور خبيثة ، وعازِمٌ على أشياء قَبِيحةٍ ، ومُضَرِّبٌ بين أقْوامٍ ضَمَّتْهم الأُلْفَة ، واستحكمتْ بينهم الثِّقَة ، وخَلَصُوا(٦) حَفَظةَ الدّولة ، وحَرَسًا للنّعمة ، وعَلِموا أنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتّى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم ، وما أخْوَفَنِى على إخوانِنا الذين بهم عَذُبَ

---

(١) فى كلتا النسختين : « والفكر » ؛ وهو تحريف .

(٢) كذا فى (ب) . والذى فى (١) : « ضربة » .

(٣) فى كلتا النسختين : « لا يقلب بقبضة » ؛ وهو تحريف فى كلتا الـكلمتين . والقبصة : ما أخذ بأطراف الأصابع ، كما سبق ذلك فى تفسير المؤلف لهذا اللفظ نقلا عن بعض اللغويين فى الجزء السابق من هذا الـكتاب . ويريد بهذه العبارة أنه رخيص .

(٤) شرار ، أى مشارّة بتشديد الراء . وفى نسخة : « سرار » بالسين المهملة .

(٥) من معانى القبقبة : الهدير ، وصوت أنياب الفحل ، والحق ؛ فلعله يريد ما تفيده هذه المعانى من أن بينهما مناضبة وملاحاة وخصومة . وفى (١) : «وفتنة» مكان «وقبقبة» . « وتبديل » مكان « وتنديد » ؛ وهو تحريف فى كلا اللفظين .

(٦) فى كلتا النسختين : «وحصلوا» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

شُرْبنا ، وأَمِنَ سِرْبُنا ، كفانا اللهُ فيهم وكفاهم فينا كلَّ مَكروه .

فقال : هو أضيَقُ مَبْعَرًا ، وأقلُّ مَنظَرًا ، وأذَلُّ ناصراً من ذاك ؛ والله لو نفختُ عليه لطار ، ولو هممْتُ به لبَار .

وأمّا ما قلتَ لى أيُّها الشيخُ[1] إنّه يَنْبَغى أن تكتُبَ رسالتك إلى الوزير ، حتى أقف عَلَى مقاصِدك فيها ، وأستبينَ براعَتَكَ وترتيبَك[2] بها ؛ فأنا أفعل ذلك فى هذه الوَرَقات ، ولم أكتُبْ فى طول هذه المدة مع هذه الأحوال العَجيبة إلاّ رُقعَتَيْن ورسالتين ؛ فأما الرُّقعةُ الواحدةُ فإنّها تضمَّنت حديثَ الخادِم وما عزَمَ عليه ، وقد شافَهتُك به ؛ وأما الأخرى فحَوتْ حديث ابنِ طاهر وصاحبِ الرُّصافة ، وقد سَمِعْتَه منِّى .

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرّحمن الرّحيم : اللهمّ حَلِّنى بالتوفيق ، وأيِّدْنى بالنُّصْرَة ، وأقرِنْ مَنْطِقى بالسَّداد ، واجعل لى مِن الوَزير وزير المَمالِكِ عُقْبَى فارِجَةً[3] من الغُمَم ، وخاتمةً موصولةً بالنجاح ، فإنك على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .

كنتُ وصلتُ إلى مجلسِ الوَزير ، وفُزْتُ بالشَّرَفِ منه ، وخدمت دولته وعلاه من صدرى بخَبِيئَتِه ، ومن فؤادى بمَحِيضَتِه ، وتصرفتُ من الحديث

(١) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس .

(٢) فى كلتا النسختين : « برأيك » مكان « براعتك » . وفى (١) : «وترتيبك» مكان « وترتيبك » .

(٣) فى (١) : « نازحة » ؛ وهو تحريف .

بإذنه فى شجونه وفنونه ، كلُّ ذلك آملاً فى جَدْوَى آخُذُها ، وحُظْوَةٍ أحْظَى بها ، وزُلْفَى أميسُ معها ، ومَثالةٍ أُحْسَدُ عليها ؛ فتقبَّل ذلك كلَّه ، ووَعَدَ عليه خيرًا ولمْ يزَلْ أهْلَه ، وانقَلَبْتُ إلى أهلى مَسرُورًا بوَجْهٍ مُسْفِر ، ومُحَيًّا طَلْق ، وطَرْفٍ عازم[1] ، وأمَلٍ قد سَدَّ ما بين أُفُقِ العراق إلى صَنْعاء اليَمَن ، حتّى إذا قلتُ للنفس : هذا مَكانُ الوَزير ومَغْمَرُه ، وجَنابُه ومَحضَرُه ، [فانشرِحى مستفتِحَة ، وتيمَّنى مقترحة ، واُطمئنّى راضيةً مرضيّة ، لا كدرَة الشُّرْب ، ولا مذعورةَ السِّرْب] ، حَصَلْتُ من ذلكَ الوَعد والضمان ، على بعض فَعَلات الزمان ؛ ولا عَجَبَ فى ذلكَ من الزمان فهو بمثله ملىء ، وله فَعُول . وبَقيتُ محولاً بينى وبين إذ كارِه — قرَنَ الله ساعاتِه بسماداته ، ووَصَلَ عِزَّ[2] يومه بسعادةِ غَدِه ؛ وغدَه بامتِدادِ يَدِه — حيرانَ لا أريش ولا أبرى ، ثمّ رفعتُ ناظِرى ، وسَدَّدْتُ خاطرى ، وفصّلتُ الحسابَ لى وعَلَىَّ ؛ فوَضَحَ العذرُ المبينُ ، المانعُ من استزادة المستزيدين ، وذلكَ أنى رأيتُ أعباءَ الوزارةِ تؤودُ[3] سِرَّه ، وتُتْعِبُ[4] بالَه ، والمملكةَ تفزَعُ وَلَهَى عليه ، وتُلقِى بجِرانِها[5] له بين يديه ، والدولة تَسْتَمِدُّه التدبيرَ الثاقب ، والرأىَ الصائب ، سِوى أمورٍ فى خلاف ذلكَ لا يحرّرها رسمُ راسم ، ولا يقرِّرها قَسْمُ قاسِم ، ولا يحْوِيها وهمُ واهِم ، ولا يَفوزُ بها سَهْمُ مُساهِم ، وهو يخطر فى حواشى هذه الأحوال ،

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصول ولعلها تحريف إذ لم نتبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف .

(٢) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « عن » مكان « عز » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « تود » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « وتستمين » مكان « وتتعب » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « بحرانها » ؛ وهو تصحيف .

متأبِّطا بَواهظ الأثقال ، مفتَتِحًا عَويصَ الأقفال[١] ، سامِىَ الطَّرْف ، فسيحَ الصَّدْر ، بَسّامًا على العِلّات ، غيرَ مُكترِثٍ بهاكَ وهاتِ ، يَتلقَّى ما أعْيا مِنْ ذلك باللَّىّ[٢] ، وما أشكَلَ بالإيضاح ، وما عسُرَ بالتّدبير ، وما فَسَدَ بالإصلاح ، وما أُرِقَّ بالعِتْق ، وما خُرِق بالرَّتْق ، وما خَفِىَ بالتكشيف ، وما بَدَا بالتصريف ، وما أُودَ بالتثقيف ، وما لَبَسَ بالتعريف ، حتى أَجْمَعَ على هَوَاهُ قاصيها ودانِيها ، وجرَى عَلَى مُرَادِه خافِيها وبادِيها ، واستجابَ لأمْرِه أبِيُّها ومُنقادُها ، وأتلَفَ بلفظِه نادِرُها ومُعتادُها ؛ فلمّا تيقَّنْتُ[٣] ذلك كلّه وقتَلْتُه خُبرًا ، أمسكت عن إذ كارِه — نَفَّس اللهُ مُدَّته — سالِفَ عَهْدِه ، ومتقدِّمَ وَعْدِه ، عالمًا بأنَّ أَسَرَّها[٤] مَرْعِىٌّ عنده فى صَدْرِ الكَرَم ، ومَكتوبٌ لديه فى صَحِيفةِ المجد ، وثابِتٌ قِبَلَهُ فى دِيوانِ الحُسْنَى .

ولكنْ كان ذلك الأمتنان[٥] عَلَى رَغْمٍ مِنِّى[٦] ، لأنى قتلتُ فى أثنائِه بين جَنْبَىَّ قلباً مَغْرُورَ الرَّجاء ، ومَنْزُورَ العَزاء ، عَلَى عَوارِضَ لم تَسْنَح فى خَلَدِى ، ولم أَعْقِدْ عَلَى شىء منها يَدِى .

فالحمدُ للهِ الذى جعل مَعاذِى إلى الوزيرِ الكريم ، البَرِّ الرّحيم ، والمنّة لله الذى جعلنى من عُفاةِ جُودِه ، وناشِئةِ عُرْفِه ، ووَارِدِ عِدِّه ، وقادِحِى زَنْدِه ،

---

(١) فى الأصول « الأفعال » ؛ وهو تصحيف .
(٢) فى كلتا النسختين : « بالكى » بالكاف ؛ وهو تحريف لا معنى له هنا . ولعل صوابه ما أثبتنا .
(٣) فى الأصل « نفثت » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى كلتا النسختين : « ايسرها » ؛ والياء زيادة من الناسخ .
(٥) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصول ؛ ولا معنى للامتنان هنا ، ولعل صوابه الكتمان أو « الإمساك » أو ما يفيد ذلك أخذاً من قوله قبل : فأمسكت عن إذكاره .
(٦) فى (ا) على زعم من أبى فلبث إلى أبيابه . مكان قوله على رغم منى لأنى قتلت فى أثنائه.

ومُقْتَبِسِى نُورِه ، ومُصْطَلِى نَارِه ، وحامِلِى نِعْمَتِه ، وطالِبِى خِدْمَتِه ، وجَعَلَ خاصَّتِى وخالِصَتِى من بينهم روايةَ مَناقِبه باللِّسانِ الابْيَن ، ونَشْرَ فضائِلِه بالثَّناء الأحْسَن ، وذِكْرَ آلائه باللَّفظِ الأفصَح ، والاحتِجاجَ لسَدادِ آرائِه بالمعْنَى الأوْضَح ؛ فلا زَالَ الوَزِيرُ — وزيرُ الممالك — مَمْدُوحًا فى أطْوَارِ الأرْض على ألْسِنَةِ الأدباء والحكماء ، وفى نَوَادِى الرُّؤساء والعُظماء ، ما آبَ آئب[1] ، وغابَ غائب ، بمَنِّه ولُطْفِه .

قد نادَيْتُ الوزيرَ حَيًّا سامِعًا ، وخيرًا جامعًا ، وهَزَزْتُ منه صارمًا قاطعًا ، وشِهابًا ساطِعًا ، واستَسْقَيْتُ من كرَمِه سَحابًا هاطلاً ، ونُقَاخا[2] سائلاً ، وأسأله أن يُجَنِّبَنى مرارةَ الخَيْبَة ، وحَسْرَةَ الإخفاق ، وعذابَ التَّسْويف ، فقد تلطَّفْتُ بالسِّحْرِ الحلال ، والعَذْبِ الزُّلال ، جُهْدَ المُقِلِّ المحتال ، وهو أوْلَى بمَجْدِه ، فى تَدْبير عَبْدِه ، إن شاء اللهُ تعالى .

هذا آخرُ الرِّسالة الأولَى .

وحَضَرَ وُصُولُها إليه بهرام — لعنه الله — وتكلَّم بما يشبه نذالتَه وخِسَّتَه ونَتْنَ نِيَّتِه ، فما كنتُ آمَنُه[3] ؛ وما أشَدَّ إشفاقى على هـذا الوَزير الخطير من شُؤْمِ ناصِيَةِ بَهرام ، وغِلِّ صَدْرِه ، وقِلَّةِ نَصيحتِه ، ولؤمِ طَبْعِه ، وخُبْثِ أصْلِه ، وسُقُوطِ فَرْعِه ، ودَمامةِ مَنْظَرِه ، ولآمةِ مَخْبَرِه ؛ حَرَسَ اللهُ العبادَ من شرِّه ، وطهَّرَ البلادَ من عُرِّه وضُرِّه .

وأما الرسالة الثانية فهى التى كانَتْ فى هـذه الأيام بعد استِئذانى إيَّاهُ

(١) فى كلتا النسختين : « وغلب غالب » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٢) ورد هذا اللفظ بالياء والفاء ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .
(٣) فى كلتا النسختين : « آمله » باللام ؛ وهو تحريف . والسياق يقتضى ما أثبتنا

فى المخاطبةِ بالكاف ، حتّى يجرِىَ الكلامُ على سَنَنِ الأسْتِرْسال ، ولا يُعْتَرَ فى طريقِ الكتابةِ بما يُزاحِمُ عليه من اللّفظِ واللّفظ ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم . أيُّها الوزير . جَعَلَ اللهُ أقدارَ دَهْرِكَ جارِيَةً على تحَكُّمِ آمالك ، وَوَصَل توفيقَه بمَبالِغ مُرادِكَ فى أقوالِك وأفعالِك ، ومكَّنَكَ مِنْ نَوَاصى أعدائك ، وثبَّتَ أَوَاخِيَ دَوْلَتِكَ على ما فى نُفُوسِ أوليائك .

يَجِبُ على كلِّ مَن آتاه الله رأياً ثاقباً ، ونُصْحاً حاضراً ، وتنبُّها نافعاً ، أن يَخْدُمَكَ مُتحرِّياً لِرُسوخِ دعائمِ المَملكة بسياسَتك وريادَتك[1] ، قاضياً بذلك حقَّ اللهِ عليه فى تقْوِيَتِكَ وحِياطَتِك . وإنى أرَى عَلَى بابِكَ جماعةً ليست بالكثيرة — ولعلّها دُونَ العَشَرَة — يُؤْثِرُون لِقاءَك والوُصول إليك لما تُجِنُّ صدورُهُمْ من النصائحِ النافِعةِ ، والبلاغاتِ المُجْدِيَةِ ، والدّلالات المُفيدة ، ويَرَوْنَ أنَّهم إذا أهَّلُوا لذلك فقد قَضَوْا حَقَّك ، وأدَّوْا ما وَجَبَ عليهم من حُرْمَتِك ، وبلَغوا بذلك مُرادَهم من تَفَضُّلِكَ واصطناعِك ، وتقديمِكَ وتكريمِك ؛ والحِجابُ قد حالَ بينَهم وبينَك ، ولكلٍّ منهم وسيلةٌ شافعةٌ ، وخِدْمةٌ للخَيْرَاتِ جامعةٌ ؛ منهم — وهو أهل الوفاء — ذَوُو كفايةٍ وأمانةٍ ، ونَباهةٍ ولَباقة ؛ ومنهم مَن يَصْلُحُ للعَمَل الجليل ، ولِرَتْقِ الفَتْقِ العَظيم ؛ ومنهم مَن يُمتِعُ إذا نادَم ، ويَشْكُرُ إذا اصطُنِع ، ويَبْذُلُ المجهودَ إذا رُفِع ؛ ومنهم مَن يَنْظِمُ الدُّرَّ إذا مَدَح ، ويُضْحِكُ الثَّغرَ إذا مَزَح ؛ ومنهم مَن قَعَدَ به الدَّهْرُ لِسِنِّه العالية ، وجَلابِيبِهِ البالية ، فهو مَوْضِعُ الأجْرِ المَذْخُور ، وناطِقٌ بالشُّكرِ المنظومِ والمنثور ؛ ومنهم طائفةٌ أخرى قد عَكَفوا فى بُيوتِهم

(١) فى كلتا النسختين : « وزيادتك » بالزاى المعجمة ؛ وهو تصحيف .

عَلَى ما يَعْنِيهم من أحوال أنفسهم ، فى تزْجِيَةِ عَيْشهم ، وعِمَارةِ آخِرَتِهم ، وهمْ مع ذلك مِنْ وَرَاء خَصَاصةٍ مُرّة ، ومُؤَنٍ غليظة ، وحاجاتٍ متوالية ؛ ولهم العِلْمُ والحِكمةُ والبَيَانُ والتَّجربَةُ ، ولو وَثِقوا بأنَّهم إذا عَرَضوا أنفسهم عليك ، وجَهَّزُوا ما مَعَهم من الأدبِ والفَضْلِ إليك حَظُوا منك ، واْعتزُّوا بك ، لَحَضَرُوا بابَك ، وجَشِمُوا المَشقّةَ إليك ؛ لكنَّ اليأسَ قد غَلَبَ عليهم ، وضَعُفَتْ مُنَّتُهم ، وعُكِس أَمَلُهم ، ورأَوْا أنّ سَفَّ التراب ، أخف من الوُقوفِ على الأبواب ، إذا دَنَوْا منها دُفِعوا عنها ؛ فلو لَحَظْتَ هؤلاء كلَّهم بفَضْلِك ، وأَدْنَيْتَهم بسَعَةِ ذَرْعِكَ وكَرَمِ خِيمِك ، وأَصْغَيْتَ إلى مَقالتِهم بسَمْعِك ، وقابَلْتَهُم بِمِلْء عَيْنِك ، كان فى ذلك بقاء النِّعمةِ عليك ، وصِيتٌ فاشٍ بذِكرِك ، وثوابٌ مُؤَجَّلٌ[1] فى صَحِيفَتِك ، وثناء معجَّلٌ عند قَرِيبِكَ وبَعِيدِك ؛ والأيامُ مَعْروفةٌ بالتقلّب ، والليالى ما خِضَةٌ بما يَتَعَجَّبُ منه ذو اللُّبّ ، والمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ فى جِدّه ، أعنى من كان جَدُّه فى الدُّنيا مَوْصولاً بحظِّه من الآخِرة ، ولَأنْ يُوكَلَ العاقلُ بالاْعتبارِ بغَيرِه ، خيرٌ مِنْ أن يُوكَلَ غَيْرُه بالاْعتبارِ به .

أيُّها الوزير ، اصطِناعُ الرِّجالِ صِناعةٌ قائمةٌ برأسِها ، قَلَّ مَنْ يَرُبُّها[2] ، أو يَتَأتَّى لها ، أو يَعرِفُ حلاوَتَها ، وهى غيرُ الكِتابةِ التى تتعلّقُ بالبلاغَةِ والحِساب .

وسَمِعْتُ ابنَ سُورينَ يقول : آخِرُ مَنْ شاهَدْنا مِمَّنْ عَرَفَ الاْصطِناع ،

(١) فى الأصول « يوجد » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد « معجل » .
(٢) فى (١) : « يسقى تربها » مكان « يربى بربها » . وفى (ب) : « بربيها » بالياء المثناة ؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين . يقال : رب الصنيعة يربها — بضم الراء — إذا نماها وتعهدها .

واستَحلى الصَّنَائع ، وارتاحَ للذِّكرِ الطَّيِّب ، واهتزّ للمَديح ، وطَرِبَ على نَغْمَة السائل ، واُغتَنَمَ خَلَّةَ المحتاج ، وانتَهَبَ الكَرَمَ انتهابا ، والتَهَبَ فى عِشْقِ الثَّناء ألتهابا ، أبو محمد المُهَلّبى ، فإنه قَدَّمَ قَوْمًا ونَوَّه بهم ، ونَبَّهَ على فضلِهم وأحْوَجَ الناظِرِين فى أمْرِ المُلْكِ إليهم ، وإلى كفايتهم ، منهم أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحسين ، ومنهم ابنُ معروف القاضى ، [ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَنىّ] ، ومنهم أبو إسحاق الصابئ ، وأبو الخطّاب الصابئ ، [ومنهم أحمد الطَّويل ، ومنهم أبو العَلاء صاعد ، ومنهم أبو أحمد ابنُ الهيْثَم ، وابنُ حَفْصٍ صاحبُ الديوان] ، وفلان وفلان ، هؤلاء إلى غير هؤلاء[1] ، [كأبى تمّام الزَّينبىّ ، وأبى بكر الزهرىّ] ، وابن قريعة ، وأبى حامد المَرْوَرُّوذِى ، [وأبى عبد الله البَصرى] ، وأبى سَعيد السِّيرافى ، [وأبى محمد الفارسى] ، وابن دُرُسْتُويه ، [وابن البقّال] ، وَالسَّرِىُّ ، ومَنْ لا يُحْصَى كثرةً من التجارِ والعُدُول .

وقال لى [ابنُ سُورين] : كان أبو محمد يَطْرَبُ على اصطناع الرِّجال كما يَطْرَبُ سامِعُ الغِناء على الشَّبابير[2] ، ويَرْتاحُ كما يَرْتاحُ مُدِيرُ الكأس على العشائر . وقال عنه : [إنّه] قال : والله لأكونَنّ فى دولة الدَّيلم ، أول مَن يُذْكَر ، إنْ فاتنى أنْ كنتُ فى دَولةِ بنى العبّاس آخِرَ مَنْ يُذْكَر .

فلولا أنّكَ — أدامَ اللهُ دَوْلَتكَ — أَذِنْتَ لى أن أكتُبَ إليكَ كلّ ما هَجَس فى النفس ، وطَلَعَ به الرّأى ممّا فيه مَرَدٌّ على ما أنْتَ فيه من هذا

(١) فى (ب) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « هذا إلى غير هذا » .
(٢) فى كلتا النسختين : « الستاير » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام . والشبابير : جمع شبور ، وهو من آلات للموسيقى .

الثِّقْلِ الباهظ ، وتنبيهٌ على ما تُباشِرُه بكاهِلِكَ الضَّخْم ، لم يَكُنْ خَطَرِى يَبْلُغُ مُوَاجَهَتَكَ بلفظٍ يَثْقُل ، وإشارةٍ تَغلُظ ، وكنايةٍ تَخْدِش[١] ، لكنّكَ واللهُ يأخُذُ بيَدِك ، ويَقْرِنُ الصنعَ الجميلَ بظاهِرِكَ وباطِنِك — قد رَخَّصْتَ لى فى ذلك ، وخَصَصْتَنى به من بين غاشِيَةِ بابِك ، وخَدَمِ دَوْلَتِك ، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمداً على حُسْنِ تَقَبُّلِك[٢] ، وجميل تكَمُّلِك[٣] ، ومُنْتَظَرِ تفضُّلِك ؛ وليس فى أبوابِ السِّياسةِ شىءٌ أجْدَى وأنفع ، وأنفَى للفسادِ وأقمع ، من الأعتبارِ المُوقِظِ للنفس ، الباعثِ على أخْذِ الحَزْم ، وتَجْريد العَزْم ؛ فإنّ الوِكالَ[٤] والمُوَيْنَا قلّما يُفضِيَان بصاحِبهما إلى دَرْكِ مأمول ، ونَيْل مراد ، وإصابة مُتَمَنّى . وقد قال رجلٌ كبيرُ الحِكمة ، معْرُوفُ الحُنْكة : المُعْتَبَرُ كثير ، والمعتبِرُ قليل . وصَدَق هذا الرَّجُل الصالح ، وهو الحَسَنُ البَصرىّ :

لو اعتَبَرَ من تأخَّر بمن تقدَّم ، لم يَكُنْ من يَتحسَّر فى الناسِ[٥] ويَنْدَم ، ولكنّ اللهَ بَنَى هذه الدار على أن يكونَ أهْلُها بين يَقَظةٍ ونَوْم ، وبين فَرَحٍ وتَرَح ، وبين حَيْطةٍ[٦] ووَرْطَة ، وبين حَزْمٍ وغَفْلة ، وبين نِزَاعٍ وسَلْوَة ، لكنّ الآخِذَ بالحَزْم — وإن جَرَى عليه مكْرُوه — أعْذَرُ عند نَفْسِه وعند

(١) فى كلتا النسختين : « تخرس » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق ما قبله .

(٢) فى كلتا النسختين : « تقلبك » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ب) : « تكلفك » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ا) : « الوكان » بالنون . وفى (ب) : «الوكاك» بالكاف ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٥) فى (ب) : « فى الدنيا »

(٦) فى كلتا النسختين : « غبطة » ؛ ولعله تحريف ، إذ الغبطة لا تقابل الورطة ، والذى يقابلها الحيطة كما أثبتنا .

كلٌّ من كان فى مَسْكه ، مِنَ المُلْقِى بيَدِه ، والمُتَدَلِّى بغُرُورِه ، والساعِى فى ثُبُورِه ؛ وما وَهَبَ اللهُ العَقْلَ لأحَدٍ إلّا وقد عرّضَه للنجاة ، ولا حَلّاه بالعلم إلاّ وقد دَعاه إلى العَمَل بشرائطه ، ولا هداه الطريقين (أعْنى الغَىَّ والرُّشْدَ) إلاّ ليزْحَفَ إلى أحدِهما بحُسْنِ الاختيار .

هذا بالأمْسِ أبو الفَضْل العبّاسُ بنُ الحُسَين الوزير — وهو فى وزارَتِه وبَسْطَةِ أمْره ونَهْيِه — قيل له ذاتَ يوم : هـذا التركى ساسنكر[١] تفَيّأ بِظِلّه ، واعتصمْ بحَبْله ، واستَسْقِ بسَجْله ، وارتَوِ من سُؤْرِه ، ولا يَبْلُغْه عنك ، ما يوحِشُه منك ، ويُجْفِيه[٢] عليك . وقد قيل :

* أُسجُدْ لقِرْدِ السُّوءِ فى زمانه *

وإذا لم تَقْدِر على قَطْعِ يَدٍ جائرةٍ ، فقبِّلها مُتْهِمَةً[٣] مُنجِدَةً غائرة . فلم يَفْعَلْ ، حتى وَجَدَ أعداؤه طريقاً إليه ، فسلكوه وأوْفعوه .

ثم قيل له فى الوزارة الثانية : قد ذُقْتَ مَرارةَ النَّكبة ، وتحرّقتَ بنارِ الشماتة ، وتأرّقتَ على فرَطاتِ[٤] العَجْز والفَسالة ، وقد كان من ذلك كلِّه ما كان ، ودارَ لك بما تمنَّيتَ[٥] الزّمان ؛ فانظُرْ أين تضَعُ الآنَ قدَمَك ، وبأىِّ شىءٍ تُدِيرُ لِسانَكَ وقلَمَك ، فإنّ مُخَلِّصَك من وَرْطَتِك بالمِرْصاد ، وقد

(١) لم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الأعلام التركية ؛ والذى وجدناه «سنجر» بالسين والجيم وبلا سين وألف فى أوله .

(٢) فى (ا) : « ويخيفه » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين : « بهمه » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين : « فطرات » ؛ والظاهر أن فى حروفه قلبا وقع من الناسخ . كما أن فى كلتا النسختين : « وأرقت » مكان « وتأرقت » ؛ وما أثبتناه أولى للملاءمة بينه وبين قوله قبل : « وتحرقت » .

(٥) فى (ب) : « ظننت » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

وَعَدْتَ مِنْ نَفْسِك إنْ أعاد اللهُ يَدَكَ[١] إلى البَسْطة ، ورَدَّ حالَكَ إلى السرورِ والغِبْطة ، أنّكَ تُجْمِل المعامَلة ، وتَنسى[٢] المقابلة ، وتَلْقَى وَلِيَّك وعدوَّك بالإحسانِ إلى هـذا ، والـكفِّ عن هـذا ، حتى يَتَساوَيا بنَظَرِك ، ويَتَعبَّدَا لك بتفضُّلك .

فـكان من جوابه ما دلّ على عتوِّه وثَباتِه[٣] ، لأنّه قال : أمَا سَمِعْتُمُ اللهَ تعالى حيث يقول : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ [وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟

وقال لى القُومَسىّ[٤] — ولم يَعْلَم ما فى فَحْوَى هذا الـكلام — : ما ذاك ؟

قلتُ : فحواه ولو عادوا إلى ما نُهُوا عنه لعُدْنَا] إلى مُقابَلتهم بما أستحقُّوا عليه .

وصدق ما قال اللهُ عزَّ وجَلّ ، ما لَبِثَ ذلك الإنسانُ بعدَ هـذا الـكلامِ إلاّ قليلاً حتى أَوْرَدَه[٥] ولم يُصْدِرْه ، وأَعْثَرَه ولم يُنْعِشْه ، وسُلِّمَ إلى عدوِّه حتّى أَسْتَلَّ رُوحَه من بين جَنْبَيْه ، شافِيًا به ومُشْتَفِيًا منه ، وكان عاقِبةُ أمْرِهِ خُسْرًا ، ولو اتقى الله لـكانَ آخِرُ أمْرِهِ يُسْرًا . واللهُ المستعان .

وهذا بَعْدَه محمد بنُ بَقِيَّةَ طَغَى وبَغَى ، واقتَحَمَ ظلماتِ الظلْمِ والعَسْف ، وطار بجناحِ اللّهوِ والعَزْف ، والشُّرْب والقَصْف ، ومَلَّ نِعْمَةَ اللهِ عليه ، وضَلَّ بين إمْهالِ اللهِ وإمْلائه ، فحاقَ به ما ذهبَتْ عليه نَفْسُه ومالُه ، وخُرِّبَ بَيْتُه ، وافتَضَحَ أهْلُه ، وكيف كان يَسْلَمُ ؟ أم كيف كان يَنْجو وقد قَتَلَ ابنَ السَّرّاج

---

(١) فى (ب) : « أعاد الله بك أيامك البسيطة » ؛ وفى بعض كلماتها تحريف لا يخفى .

(٢) كذا فى (ا) . والذى فى (ب) : « وتسىء » ؛ وهو تحريف . وتنسى المقابلة ، أى لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو .

(٣) وثباته ، أى ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة .

(٤) فى كلتا النسختين : « المسى » ؛ وهو تحريف كما ترى ، صوابه ما أثبتنا .

(٥) أورده ولم يصدره فاعل الفعلين ضمير يعود على الـكلام السابق ذكره . أى أورده كلامه الخ .

بلا ذَنْب ، والجَرْجَرائىَّ[١] بلا حجّة ، وضربَ ابن مَعْرُوفٍ بالسِّياط وأبا القاسم — أخا لأبى محمد القاضى — وشَهَّرَهُ على جَمَلٍ فى الجانِب الشرقىّ ؟!

والتَّشَفِّى حُلْوُ العَلاَنية ، ولكنّه مُرُّ العاقبة ، وكأنّ الحَفيظةَ إنما خُلِقَتْ لِتُفْتَقَد[٢] ، والحقدَ إنما وُجِدَ لِيُبْلَغَ به ما يَسُرُّ الشيطان .

وكأنّ العفوَ حرَام ، والكَظْمَ[٣] محظور ، والمكافأةَ مأمورٌ بها .

وهذا بالأمسِ علىُّ بنُ محمد ذو الكفايتَيْن ، اغترَّ بشَبَابه ، ولَهَا عن الحَزْمِ والأخْذِ به فيما كان أوْلَى به ، وظَنَّ أنَّ كِفايتَه تحفَظه ، ونَسَبَه مِنْ أبيه يَكْنُفُه ، وبَرَاءتَه تحتَجُّ له ، وذنوبَه الصغيرةَ تُغْتَفَر ؛ لِبَلائه المذكور ، وغَنائه المشهور ؛ ومَشَى فعَثَر ، وراب[٤] فختُر ، والأوّلُ يقول :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبْوَةً لم يَستَقِلْها آخِرَ الدَّهرِ

فاُخْطُ مع الدَّهْرِ إذا ما خَطَا وأجرِ مع الدَّهْرِ كما يَجْرى

وقال لى الخليل — وكان لطيفَ المَحَلّ عنده ، لِما كان يَرَى من اختصاصِ أبيه له ، ولِما يَظْهَرُ من فضْله عندَه — : قلتُ له يوماً : يا هذا ، فى أىِّ شىء أنت ؟! وبأىِّ شىء تَعَلَّلُ ؟! وقد شُحِذَت المَوَاسى ، وحُدِّدت الأنياب ، وفُتِلت المَرائر[٥] ، ونُصِبَت الفِخاخ ، والعيونُ مُحَدِّقَةٌ نحوَ القَطيعة ،

(١) فى (ا) : « الجرجانى » .
(٢) فى (ا) : « لتعتقد » . وفى (ب) : « لتنفذ » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .
(٣) فى كلتا النسختين : « والظلم » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : «ودداب فخسر» . وفى (ب) : «وذاب فختر» ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .
(٥) فى (ا) : « وقبلت » . وفى (ب) : « وقتلت » ؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين . وفى (ا) : « المدابر » مكان « المرائر » ؛ وهو تحريف أيضا . والمرائر : الحبال ، جمع مريرة .

والأعناقُ صورٌ(١) إلى الفظيعة ، وأنتَ لاهٍ ساهٍ عمّا يُرادُ بك بعْدُ ؛ يَشْبِيكَ(٢) هذا المزرفن(٣) وهذا المُرْخِي(٤) وهذا المُعَرَّض(٥) ، وهذا الحليق ، وهذا النَّتيف ، وهذا المعقرَبُ الصُّدغ ، وهذا المَصْفوف الطُّرَّة ، وبالكاس(٦) والطاس ، والغِناء والقَصْف ، والناي والعُود ، والصَّبُوحِ والغَبُوق ، والشرابِ المُرَوَّق العتيق ؛ والله ما أدري ما أصْنَع ، إن سَكَتُّ عنك كَمِدْتُ ، وإن نَصَحْتُكَ خِفْتُ منك ؛ ونَعُوذُ بالله من اشتِباهِ الرأى ، واشتباكِ الأمر ، وقِلّةِ الاحتراسِ ، والإعراضِ عمّا يجرى من أفْواهِ الناس .

يا هذا ، سُوءُ الاستمساكِ خيرٌ من حُسْنِ الصَّرْعة ، وتَلَقِّى الأمرِ بالحزمِ والشهامةِ أوْلَى من استِدباره بالحسرةِ والنَّدامة ، ومَنْ لا تجْرِبَةَ له يَقْتَبِسُ مِمَّنْ له تجْرِبَة ، فإذا نقِبَ الخفُّ دَمِىَ الأظَلّ . فقال : قد فَرَغ اللهُ مِمّا هو كائن ، وإذا جاء أجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

قال : قلتُ له : ما أطْلَعَكَ اللهُ على كائنات الأمور ، ولا أعْلَمَكَ بعواقب الأحوال ، وإنما عرَّفَكَ حَظَّكَ بَعْدَ أنْ(٧) وفَّرَ عقْلَكَ ، وأحْضَرَكَ استطاعتَكَ ، وأوْضَحَ لِقلبِكَ ما عليكَ ولك ، حتّى يَستَشِفَّ ويَستَكْشِف ، ومَلَّكَكَ

(١) صور ، أى مائلة . إلى الفظيعة ، أى إلى النكبة الفظيعة . وفى كلتا النسختين : « العظيمة » . وما أثبتناه هو ما يستقيم به السجع الذى التزمه المؤلف فى بعض فقراته .

(٢) فى (ا) : « بعد تشبثك » . وفى (ب) : « بعد بسيبك » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٣) المزرفن الذى يجعل صدغيه كالزرفين ، وهى الحلقة .

(٤) كذا فى (ب) والذى فى (ا) « المزرجن » ، ولا معنى له هنا .

(٥) المعرّض بتشديد الراء الذى نبت شعر عارضيه . كما يقال عذّر الغلام بتشديد الذال إذا نبت شعر عذاره .

(٦) وبالكاس متعلق بقوله قبل : « لاه » .

(٧) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « مقدار » مكان « بعد أن » ؛ وهو تحريف .

النَّواصىَ حتَّى تَمُنَّ(١) وتُرْسِل ، وما طالَبَكَ إلاّ بعد أن أزَاحَ عِلَّتَك ، ولا عاقبَكَ إلاّ بعد أن أنذرَكَ وأنظَرَك ، وبمِثْلِ هذا تُطَالِبُ أنت مَن هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وحَشَمِك ، وأوْليائك وأعْدائك ، وهذا الذى أعْذُلُكَ عليه هُوَ الذى به تَعْذُل غيرَكَ وتَراه ضالاًّ فى مَسْلَكِه ، متعرِّضًا لمَهْلَكِه .

فقال : أيَظْلِمُنِى وَلِىُّ نِعْمَتِى صُراحًا بلا ذَنْب ، ويَجْتَباحُنِى(٢) بلا جَرِيمة ؛ ويَثْلِمُ دَوْلَتَه بلا حُجَّة ؟

قلتُ : اللهُ يَقِيك ويَكْفِيك ، نَرَاكَ بلا ذَنْب ، ونَجِدُكَ بريئًا مِنْ كلّ عَيْب ، وغَيْرُكَ لا يَرَاكَ بهذه العَين ، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكم ؛ فإن كنتَ تَرَى فُرْصَةً فانتَهِزْها ، وإن كنتَ تَخْلُمُ بغُصَّةٍ(٣) فاحترِزْ منها ؛ فأبوابُ النَّجاةِ مُفَتَّحة ، وطُرق الأمانِ مُتَوَجِّهة ، والأخْذُ بالاحتياط واجب ، قد قَرُبَ الشَّاخِصُ من هذا المكان ، والقِيَامةُ قد قامت بالإرجاف ، والطِّيَرَةُ قُشَعْرِيرةُ النَّفْس ، كما أنّ القشعريرةَ طِيَرَةُ البَدَن ، والاسترسالُ كلاَلُ الحِسِّ ، والفَأْلُ لِسَان الزمان ، وعُنْوَانُ الحِدْثان ، ولا يَقَعُ فى الأفواه إلاّ ما يُوجِب الحَذَر ، ويَبْعَثُ على الرَّأيِ والنَّظَر ، واستِقراءِ الأثَر والخَبَر .

قال : أمَّا أنَا بَعْدَ التَّوَكُّلِ على الله فقد استَظْهَرْتُ بمحمد بنِ إبراهيم صاحبِ نيسابور ، وبفَخْرِ الدَّوْلة وهو بهَمَذَانَ على ثلاثة أيام ، وبعِزِّ الدَّوْلة

---

(١) فى (ا) : « تمل وترشد » . وفى (ب) : « تمد » مكان « تمل » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين صوابه ما أثبتنا . وتمن وترسل ، أى تمن بالعفو عمن أساء ، وترسل من أمسكته ، أى تطلقه .

(٢) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « يجنينا » .

(٣) فى (ا) : « بعض » بالعين والضاد . وفى (ب) : « بقصة » بالقاف والصاد ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

وهو بمدينة السّلام ؛ ومتى حَرَبَ حارِب ، ورَابَ رائب ، أَوَيتُ إلى واحدٍ من هٰؤلاء .

قال : قلتُ : ها هنا ما هو أسهَلُ مِنْ هذا وإن كان أهْوَل ، وأنجَى وإن كان أشْجَى ، وأقْرَب وإن كان أغرَب .

قال : ما هو ؟ فرِّجْ عنّى وأهْدِنى .

قلتُ : لمّا يَدْخُلُ هٰذا الوارِدِ [الدّار] ، ويَدْنو من طَرَف البِساط ، تُنْدِرُ رأسَه عن كاهله ، وتُلقِى شِلْوَه فى مزبلَة ، فإنّ الهَيْبَةَ تقَع ، والنّائرة تَخْبُو ، والعَجَب يَغْمُر ، والظِّنَّةَ تزُول ، والصَّدْرَ يَشْتَفِى ، والأعتذارَ يَنتَفِى ؛ ويُكتَبَ إلى مُوفِدِهِ بأنّ الرّأىَ أوْجَبَ هذا الفِعل ، لأنّه غَلَبَ على الظّنّ أنّه وَافَى لِكَيْدٍ يُوصِلُه إلَىّ ، وبَلاءٍ يُفرِغُه علَىّ ، فأزَلْتُ هذا الظّنّ باليَقِين ، ودَفَعتُ الشُّبْهَةَ بالجلاء ، واستَخْلَصْتُ النورَ من الظّلام ؛ ولَأنْ تبْعِدَ ساقِطاً مِنْ خَدَمِك ، يَسوء ظَنّى به مِن جِهَتِك ، ويَقْدَحُ فى طاعتِى لك ، [ويُضْرِمُ فىّ نار التُّهمَة بينى وبينَك ؛ خيرٌ لى فى نصيحتى لِدَوْلتِك ، وخيرٌ لك] فى بَقائى[1] على أمْرِكَ وَنَهْيك ، مِن أن يَلْتاثَ ضميرى فى سِيَاسَةِ دَوْلَتِك ، وتَحُولَ نِيَّتى[2] عمّا عَهِدْتَ من القِيام بحقّ جُنْدِكَ ورَعِيَّتِك ، وحِفْظِ قاصِيَتِك ودانِيَتِك .

فقال : هذا أعظَمَ ، واللهُ المُستَعان .

ولَيْتَنى أصَبْتُ بهذا الرّأيِ[3] أمراً عَلَا عَقْلُه ، فيَقبَله ببيَان ، أو يَرُدّه

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « ثنائى » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى كلتا النسختين : « بينى » ؛ وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين هكذا « وليتنى أصبت من أمر بهذا الرأى على عقله » ؛ وفيها تقديم وتأخير وتحريف إذ لا معنى لها على هذا الوجه ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

بُرْهان ، فكان يَقْوَى أو يَضْعُف ، ويُقْدِمُ عليه أو يُحْجِمُ عنه ، فإنَّ الْمُبْرَم أقْوَى من السَّحِيل ، والسمِينَ أَحْمَدُ من النَّحِيل ؛ ثم كان ما كان . وكان مَشايخُ العِراق والجَبَل يرَوْنَ ما حَدَثَ بذلك الفتى أمْرًا فرِيًّا ، وظُلْمًا عَبْقَرِيًّا .

وحَدَّثنى القُومَسِيُّ أنه لم يتقدَّم بذلك أمْرٌ ، ولا سَبَقَ به إذْن ، ولكنْ لمَّا حَدَث ما حدث ، وَقَع عنه إمساك ، وسُتِرَت الكراهيَةُ والإنكار .

* * *

وللأمور أيُّها الوزيرُ ظُهورٌ وبُطون ، وهَوَادٍ وأعجاز ، وأوائل وأواخِر ؛ وليس عَلَى الإنسانِ أنْ يُدرِكَ النجاحَ فى العَواقب ، وإنَّما عليه أن يَتحَرَّزَ فى المبادىء ؛ ولهذا قال القائل :

لأمْرٍ عليهم أن تَتِمَّ صُدُورُه وليس عليهم أن تَتِمَّ عَوَاقِبُه

وقال سليمانُ بنُ عبدِ الملِكِ أو غيرُه من أهْل بَيْتِه : ما لُمْتُ نَفْسى على فَوْتِ أمْرٍ بَدَأْتُه بحَزْم ، ولا حَمِدتُها على دَرْكِ أمْرٍ بدأتُه بعَجْز .

هاهنا ناسٌ إذا تلاقَوْا يَنْفُث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكِناية ، ويحتاجُ الأمرُ إلى ابنِ يوسف ، ويَسْتَمْلِى[1] الخَبيثُ من الجالس فوقَ مَشْرَعَةِ مكان الرَّوايا .

[2]وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيُرْوَى على وَجْهِه ، وليس يَخْفَى أيضاً كلُّ ما يَجْرِى فيُمْسَكَ عنه ؛ والأمورُ مَرِجَة ، والصدورُ حَرِجَة ، والاحتراسُ

---

(١) عبارة (١) : « ومسلم الخبيث من الحالين فوق مشرعة » ؛ وفيها تحريف ظاهر وفى (ب) : «الحبيب» مكان «الخبيث» ؛ وهو تصحيف أيضا . ويريد بالخبيث ابن يوسف .
(٢) ورد فى (١) قبل قوله : « وليس يصح » قوله : « فصل » .

واجب ، والنصحُ مقبول ، والرأى مُشْتَرك ، والثقةُ بالله من اللوازم على مَنْ عرَفَه وآمَن به ، وليس مِنَ الله عزَّ وجَلَّ بُدٌّ على كلِّ حال .

والله أسألُ الدفاعَ عنك ، والوقايةَ لك ، فى مُصْبَحِك ومُمْساك ، وفى مَبيتِك ومَقِيلِك ، وشهادَتِكَ وغَيْبَتِك ، ولذوى مليحا[١] فى هذا الباب نَفْخٌ وإيقاد ، وتَنَاقُلٌ وأتْيار[٢] ، ومَسْئلةٌ وجَواب .

وعند الشيخ أبى الوَفاء مِنْ هٰـذا الحديث ومن غيره مِمّا يَتّصل به من ناحيةِ ابنِ اليزيدىّ ما يجب أن يُصاخَ له بالأُذُن الواعية ، ويُقابَل بالنَّفْسِ الراعية ، ويُداوَى بالدّواء الناجع ، وتُحْسَمَ مادّتُه من الأصل ، فإنَّ الفسادَ إذا زال حَصَلَ مكانَه الصلاح . وليس بَعْدَ المَرَضِ إلاّ الإفْرَاق ، ولا بعد النَّزْعِ إلاّ الإغراق .

إلى هاهنا انتهى نَفَسى بالنُّصْح وإن كانت شفقتى[٣] تتجاوَزُه ، وحِرْصى يَسْتَغْلِى عليـه ، لـكنّى خادم ، وكما يجب علىّ أن أَخْدُمَ بِنِيّاتِ[٤] الصدر ، فينبغى أن أَلْزَمَ الحَدَّ بحُسْنِ الأدب .

والله إنى لَوَادٌّ مُخْلِصٌ ، وعَبْدٌ طائع ، ورَجائى اليومَ أقْوَى من رَجائى أمْسِ ، وأمَلِى غَدًا أبْسَط[٥] من أملى اليوم ؛ أشكو إليك الأرَق باللّيلِ فِـكْرًا فيما يقال ، وتَحَفُّظا[٦] مِمّا يُنال ، وتوهُّماً لِما لا يكون [إن كان] ، وشرُّ العِدَا ، الذين يَتمنَّوْنَ لِأُولِى نِعْمَتِهِم الرَّدَى ، ويبَيِّتون النَّـكائث[٧] ،

(١) كذا وردت هذه العبارة فى (ب) ولم نتبين من هم ذوو مليحا .
(٢) فى كلتا النسختين : « وتثاقل وأثمار » ؛ وهو تصحيف .
(٣) فى كلتا النسختين : « شفتى » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « تبيان » . وفى (ب) : « بثبات » ، وهو تصحيف .
(٥) فى (ب) : « أنشط » . (٦) فى (ب) : « وغيظا » .
(٧) فى (ب) : « البيايت » ، وهو تحريف .

ويَكسِرون الأجفان[1]، ويتخازرون بالأعين، ويَتجاهَرون بالأذى إذا تلاقَوا، ويَتهامَسون بالألسُن إذا تدانَوْا، والله يَضرَعُ جُدُودَهم، ويُضرِعُ خُدُودَهم بين يديك؛ وهذه الرِّقّةُ منّى والحَفاوَة، وهذه الرَّعْشةُ والقَلَق، وهـذا التقبُّعُ والتفزُّع كلُّه، لأنى ما رأيتُ مِثْلَك، ولا شاهَدْتُ شِبْهَك، كَرَمَ خِيمٍ، ولِينَ عَرِيكة، وجُودَ بَنان، وحُضورَ بِشر، وتهلُّلَ وَجْه، وحُسْنَ وَعْد، وقربَ إنجاز، وبَذْلَ مال، وحُبَّ حِكمةٍ[2].

قد شاهدتُ ناسًا فى السَّفَر والحَضَر، صِغارًا وكِبارًا وأوساطا، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بالمَجْد، ويَتحلَّى[3] بالجود، ويَرْتَدِى بالعَفْو، ويَتأزَّرُ[4] بالحِلْم؛ ويُعْطِى بالجُزاف، ويَفْرَحُ بالأضياف، ويَصِلُ الإسعافَ بالإسعاف، والإتحافَ بالإتحاف، غيرَك.

وأُقسم بالله إنكَ لتَهَبُ الدرهمَ والدينارَ وكأنّكَ غَضْبانُ عليهما، وتُطْعِمُ الصادرَ والوارِدَ كأنّ اللهَ قد أستخلَفَكَ على رِزْقِهما؛ ثم تَتجاوَزُ الذهبَ والفِضّةَ إلى الثيابِ العزيزة، والخِلَع النفيسة، والخَيْلِ العِتاق، والمَراكِب الثّقال، والغِلْمان والجوارى، حتّى الكُتُب والدفاتر وما يَضَنُّ به كلُّ جَواد؛ وما هـذا مِنْ سَجايا البَشَر إلاّ أن يكونَ فاعِلُ هذا نَبيًّا صادقا، ووَلِيًّا للهِ مُجتَبى، [فإنّ الله قد أمّنَ هذا الصنف من الفَقْر، ورَفَع من قلوبهم عِزّ المال]، وهوّنَ عليهم

(١) فى (ا): «الأظفار»، وهو تحريف.

(٢) كذا فى (ب). والذى فى (ا): «وبذل ما أوجب حكمة»، وهو تحريف كما لا يخفى.

(٣) فى كلتا النسختين: «وينتحل»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، إذ ليس انتحال الجود مما يمدح به.

(٤) فى كلتا النسختين: «ويبارز»، وهو تحريف.

الإفراجَ عن كلّ مُنفِسٍ[1] ، ياقوتاً كان أو دُرًّا ، ذهباً كان أو فضّة ؛ كفاكَ اللهُ عَيْنَ الحاسدِين ، وَوَقاكَ كيدَ المُفسِدين ، الّذين أنعمتَ عليهم بالأمس على رُءوسِ الأشهاد ، وكانوا كحصًى فجعلتَهُمْ كالأطواد ؛ وهم يَكفُرون أياديكَ ، ويوالُونَ أعاديكَ ، ويتمنَّوْنَ لكَ ما أرْجُو أنّ اللهَ يَعصِبُهُ برُءوسِهِم ، ويُنزِلُه على أرواحِهم ، ويُذيقُهم وَبالَ أمرِهم ، ويَجعَلُهم عِبرةً لكلّ مَن يرام ويَسْمَعُ بهم ، كان اللهُ لكَ ومَعَك ، وحافِظَك وناصِرَك .

أطلتُ الحديثَ تلذُّذًا بمواجَهتِك ، وَوَصَلْتُه خِدْمةً لِدَوْلَتِك ، وكَرَّرْتُه توقُّعاً لحُسْنِ مَوْقِعِه عِندَك ، وأعَدْتُه وأبْدَيْتُه طَلَباً للمكانةِ فى نَفْسِك .

وأرْجُو إنْ شاء الله ألّا أحْرَمَ هَبّةً مِنْ رِيحِك ، ونَسِيماً مِنْ سَحَرِك ، ونظرةً بنظَرِك . لَمْ أوفّق فى هذه الكلمة الأخيرة ، والله ما يمرُّ بى يأسٌ مِنْ إنعامكَ فأُقوِّيه بالرّجاء ، ولا يَعتَرِينى وَهْمٌ فى الخَيْبَةِ لَدَيْكَ فأتلافاهُ بالأمل . إنَّما قُصارَى أُمنيّتى إذا حُكِّمْتُ أن أُعطَى فيكَ سُؤْلِى بالبَقاءِ المَديد ، والأمرِ الرّشيد ، والعَدُوِّ الصريع ، والوَلِيِّ الرّفيع ، والدَّوْلةِ المُسْتَتِبّة ، والأحوالِ المُسْتَحِبّة ، والآمالِ المَبْلُوغة ، والأمانِيِّ المُدْرَكة ، مع الأمرِ والنَّهْيِ النّافِذَيْنِ ، بينَ أهْلِ الخافِقَيْنِ ؛ واللهُ يُبلغنى ذلك بطَوْلِه ومَنِّه .

وآخِرُ ما أقول ، أيّها الوزير : مُرْ بالصَّدَقات ، فإنّها مَجلَبَةُ السلاماتِ والكرامات ، مَدْفَعَةٌ للمكارِهِ والآفات ؛ واهجُرِ الشراب ، وأدِمِ النظرَ فى المُصْحَف ، وافزَعْ إلى اللهِ فى الأستِخارة ، وإلى الثّقاتِ بالأستِشارة ؛ ولا تبخَلْ على نَفْسِك برأيِ غَيْرِك ، وإن كان خامِلًا فى نَفْسك ، قليلًا فى عَيْنِك ،

(١) كذا فى (١) . والذى فى (ب) : « معسر » ، ولا يستقيم معه الكلام الآتى بعد .

فإنّ الرّأى كالدُّرّة التى رُبّما(١) وُجِدَتْ فى الطّريق وفى المَزْبلة ، وقلّ من فَزِعَ إلى الله بالتوكّل عليه ، وإلى الصّديق بالإسعاد(٢) منه ، إلّا أراهُ اللهُ النّجاحَ فى مَسْئلته ، والقضاءَ لحاجته ؛ والسلام .

فقال لى الوَزِير بعد ما قرأ الرِّسالة : يا أبا مزْيَد(٣) ، بَيّضْتَها ، وعَجِبْتُ من تَشْقيقِ القَوْلِ فيها ، ومِنْ لُطفِ(٤) إيرادِكَ لها ، ومِن بِلّةِ رِيقِكَ بها .

واللهُ يُحقّقُ ما نأمُلُه له ، ونرجُوه لأنفسنا ، ويَنْحَسِرُ عنّا هذا الضّبابُ الّذِى رَكَدَ علَيْنا ، ويَزُولُ الغَيْمُ الّذى اسْتَعْرَضَ فى أمْرِنا ، وعلى الله توكُّلُنا ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

رسالة فى شكوى البؤس ورجاء المعونة وجّهَ بها المؤلف إلى الشيخ أبى الوفاء المهندس الذى كتب له المؤلف هذا الكتاب . وختم كتابه بها :

أيُّها الشيخ ، سَلّمَكَ اللهُ بالصُّنْعِ الجميل ، وحَقّقَ لكَ وفيك وبكَ غايةَ المأمول .

هذا آخِرُ الحديث ، وخَتَمْتُه بالرِّسالتين ، ويتقرّرُ جميعُ ما جرَى ودَارَ(٥) على وَجْهِهِ ، إلاّ ما لَمَمْتُ به شَعَثًا ، وزَيّنْتُ(٦) به لَفْظًا ، وزَيّدْتُ

(١) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : «إنما» ، وهو تحريف . والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « بالإشهاد » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يا أبا فريد » .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لفظ » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ودان » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ورتبت » ؛ وهو تحريف .

مَنْقُوصًا ، ولم أظلِمْ معنًى بالتّحريف ، ولا مِلْتُ فيه إلى التّحْوِيرِ[١] ؛ وأرجو أن يَبْيَضّ وَجْهِى عِنْدَكَ بالرِّضا عنّى ، فقد كاد وَعْدُكَ فى عنايتك[٢] يأتى علىّ ، وأنا أسألُ اللهَ أن يَحْفَظَ عِنايَتَكَ علىّ ، كسابق اهتمامك بأمرى ،[٣] حتى أملِكَ بهما[٤] ما وعدْتَنيه مِنْ تكْرِمَةِ هذا الوَزِير الذى قد أشْبَعَ كلّ جائع ، وكَسَا كلّ عارٍ ، وتألّفَ كلّ شارِدٍ ، وأحسَنَ إلى كلّ مُسِىءٍ[٥] ، ونَوّهَ بكلّ خامِلٍ ، ونَفّق[٦] كلّ هَزِيلٍ ، وأعَزّ كلّ ذَلِيلٍ ؛ ولم يَبْقَ فى هـذه الجماعة على فَقْرِهِ وبُؤْسِـهِ ، ومُرِّهِ ويَأْسِهِ ، غيرى ؛ مع خِدْمَتِى السالفةِ والآنفةِ ، وبَذْلِى كلّ مجهود ، ونَسْخِى كلّ عَوِيص ، وقِيامى بكلّ صَعْب ؛ والأمورُ مقدَّرة ، والحُظوظُ أقسام ، والكَدْحُ لا يأتى بغيرِ ما فى اللّوْح .

فصـــل

خَلّصْنى أيها الرّجُلُ[٧] من التّكَفُّف ، أنقِذْنى من لُبْسِ الفَقْر ، أطلِقْنى من قَيْدِ الضُّرّ ، اشْتَرِنى بالإحسان ، اعْتَبِدْنى بالشُّكْر ، اسْتَعْمِلْ لِسانى بفُنُونِ المَدْح ، اكْفِنِى مُؤُونَةَ الغَداء والعَشاء .

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « التجويز » — بالجيم والزاى ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « غناتك » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام .

(٣) وردت هذه العبارة فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « بأمر يرجى » ولا معنى لها على هذا الوجه ؛ والصواب ما أثبتنا ، كما يقتضيه السياق .

(٤) بهما ، أى بالعناية والاهتمام .

(٥) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « شىء » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ونتق » ؛ وهو تحريف .

(٧) يريد بالرجل أبا الوفاء وهو الذى قربه إلى الوزير .

إلى مَتَى الكُسَيْرَةُ اليابسة ، والبُقَيْلَةُ الذَّاوِية ، والقَمِيصُ المرقَّع ، وباقِلِّى دَرْبِ الحاجب ، وسَذابُ دَرْبِ الرَّوَّاسِين ؟

إلى مَتَى التأدُّمُ بالخُبْزِ والزَّيتون ؟ قد واللهِ بحَّ الحلق ، وتَغَيَّرَ الخُلُق ؛ اللهَ اللهَ فى أمْرِى ؛ اجبُرْنى فإننى مكسور ، اسقِنى فإننى صَدٍ ، أغِثْنى فإننى مَلهوف ، شَهِّرْنى فإننى غُفْل ، حلِّنى فإننى عاطل .

قد أذَلَّنى السَّفَرُ من بَلَدٍ إلى بَلَد ، وخَذَلَنى الوُقوفُ على بابٍ باب ، ونَكِرَنى العارِفُ بى ، وتباعَدَ عنى القريبُ مِنّى .

أغرَّكَ مِسْكَوَيْه حين قال لك : قد لقيتُ أبا حَيّان ، وقد أخرجتُه مع صاحِبِ البريد إلى قَرْمِيسِين ؟ !

واللهِ ثم وحيَاتِكَ التى هى حياتى ، ما انقلبْتُ من ذلك بنفقةِ شهر ، واللهُ نَظَرَ لى بالعَوْد ، فإنَّ الأراجيفَ اتَّصَلَتْ ، والأرضَ اقشعرَّتْ ، والنفوسَ استوحَشَتْ ، وتشبَّهَ كلُّ ثَعْلَبٍ بأسَد ، وفَتَلَ كلُّ إنسانٍ لعدوِّه حَبْلاً مِنْ مَسَد .

أيُّها الكريمُ ، ارْحَمْ ؛ واللهِ ما يَكْفِينى ما يَصِلُ إلىَّ فى كلِّ شَهْرٍ مِنْ هذا الرِّزْق المقتَّر الذى يَرْجِع بعد التَّقْتِير والتَّيْسِير إلى أربَعين درهما مع هذه المَئونَة الغليظة ، والسَّفرِ الشاقّ[1] ، والأبواب المحجَّبة ، والوُجوه المقطَّبة ، والأيدى المسمَّرة ، والنفوسِ الضيِّقة ، والأخلاقِ الدَّنيئة .

أيُّها السيِّد ، أقصِرْ تأمِيلى ، ارْعَ ذِمامَ المِلْحِ بينى وبَيْنَك ، وتذكَّر

(١) وردت هذه العبارة فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « والسعر الشارى » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا أخذا من سياق الكلام .

العَهْدَ فى صُحْبَتِى ، طالِبْ نَفْسَك بما يَقْطَعُ حُجَّتِى ، دَعْنِى من التعليل الّذى لا مَرَدَّ له ، والتسويف الّذى لا آخرَ معه .

ذَكِّرِ الوَزِيرَ أمرِى ، وكرِّرْ على أُذُنِهِ ذِكْرِى ، وأَمْلِ عليه سُورَةً مِنْ شُكْرِى ، وابعَثْه على الإحسان إلىَّ .

افتح عليه باباً يُغْرِى[1] الرّاغبَ فى اصطناع المعروف لا يستغنى عن المرغب ، والفاعل الخَيِّر لا يَسْتَوْحِشُ من الباعث عليه .

أنفِقْ جاهَكَ فإنّه بحَمْدِ اللهِ عَرِيض ، وإذا جُدْتَ بالمالِ فَجُدْ أيضاً بالجاه ، فإنّهما أَخَوَان .

سَرِّحْنى رسولًا إلى صاحِبِ البَطائحِ أو[2] إلى أبى السؤل الكُرْدِىّ[3] أو إلى غَيْرِه مِمَّنْ هو فى الجبال ، هذا إنْ لم تُؤَهِّلْنى برسالةٍ إلى سَعْدٍ المعالِىّ بأطرافِ الشام ، وإلى البصرة ، فإنى أبلُغُ فى تحَمُّلِ ما أُحمِل ، وأداء ما أُؤدِّى ؛ وتزْيِينِ ما أُزَيِّن ، حَدًّا[4] أَمْلِكُ به الحَمْد ، وأُعْرَفُ فيه بالنَّصيحة وأَستَوْفِى فيه على الغاية . دَعْ هذا ، ودَعْ لى ألفَ درهم ، فإنى أتَّخِذُ رأسَ مال ، وأُشارِكُ بقّالَ المَحَلّةِ فى دَرْبِ الحاجب ، ولا أَقَلَّ مِنْ ذا ، تقدّم إلى كسج[5] البَقّالِ حتّى يستعين بى لأَبِيعَ الدّفاتر . قلتَ : الوَزِيرُ

(١) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يغنى » بالنون ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا

(٢) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لوالى » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « جدا » بالجيم ؛ وهو تصحيف .

(٥) كذا ورد هذا الاسم بالكاف والسين والجيم فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام ؛ ولم نقف على وجه الصواب فيه .

مَشْغول . فما أصْنَعُ به إذا فَرَغ ، فالشاعرُ يقول :

« تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصَلَ الشُّغْل »

قد واللهِ نَسِيتُ صَدْرَ هذا البيت ، وما بالُ[1] غيرى يُنَوِّلُه ويُمَوِّلُه مع شُغْلِه[2] وأُحرَم أنا ؟ ! أنا كما قال الشاعر :

وبَرْقٌ أضاء الأرضَ شرقًا ومَغْرِبًا   ومَوْضِعُ رِجْلِي منه أسْوَدُ مُظْلِمُ

واللهِ إنَّ الوزيرَ مع أشغاله المتَّصِلة ، وأثقاله الباهِظة ، وفكرِه المفضوض[3] ورأيِه المشترَك ، لكريمٌ ماجِد ، ومُفْضِلٌ مُحْسن ، يَرْعَى القليلَ من الحُرْمة ، ويُعطِى الجزيلَ من النِّعمة ، ويُحافظ على اليَسير من الذِّمام ، ويتقبَّل مَذاهِبَ الكرام ، ويَتلذَّذُ بالثناء إذا سَمِع ، ويَتعرَّضُ للشُّكر من كلِّ مُنتجِع ، ويَزْرَع الخير ، ويَحْصُدُ الأجْر ، ويواظِبُ على كَسْبِ المَجْد ، ويثابرُ على اجتِلاب الحمد ، ويَنْخَدِعُ للسائل ، ويتهلَّلُ فى وَجْهِ الآمِل ، ولا يَتَبَوَّأُ من الفضائل إلَّا فى ذُراها ، رحيم بكلِّ غادٍ ورائح ، ولكلِّ صالحٍ وطالح .

وأنا الجارُ القديم ، والعَبْدُ الشاكر ، والصاحب المَخْبور ، ولكنَّك مُقْبِلٌ كالمُعْرِض ، ومُقَدِّمٌ كالمؤخِّر[4] ، ومُوقِدٌ كالمُخْمِد ، تُدْنِينِى إلى حَظِّى بِشِمالك ، وتَجْذِبُنِي عن نَيْله بيَمِينك ، وتُغَذِّينى بوَعْدٍ كالعَسل ، وتُعَشِّينى

(١) وردت هذه العبارة فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « وما نال غيرى سؤل وتحول مع شغله وآخر من أنا » ؛ وفيها تحريف ظاهر لا يستقيم به المعنى .

(٢) ينوّله ويموّله ، أى ينوله الوزير ويموّله . مع شغله ، أى مع شغل الوزير .

(٣) المفضوض ، أى المتفرق غير المجتمع .

(٤) فى (ا) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ومؤخر كالمقدم » ؛ وفى كلتا الكلمتين تقديم وتأخير من الناسخ ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

بيأس كالحَنْظل ، « ومَنْ(١) كان عتبه على مظنّة عيبك ، فليس ينبغى أن يكون تقصيره على نيقّنه(٢) بنصرك » .

نعم ؛ عَتَبْتُ فأوْجَعْتُ ، وعَرَفْتَ البَراءةَ فهلاّ نفعْتَ ؟ والله ما أدرى ما أقول ، إنْ شكرْتُكَ على ظاهِرِكَ الصّحيح لَذَعْتُك لباطِنِك السقيم ، وإن حَمِدْتُكَ على أوَّلِكَ الجميل ، أفسدْتُ لآخرِكَ الذى ليس بجميل .

قد أطَلْتُ ، ولكنْ ما شُفِيت ، ونَهِلْتُ وعَلَلْتُ ، ولكن ما رَوِيت .

وآخِرُ ما أقول : اِفْعَـلْ ما تَرَى ، واْصْنَعْ ماتَسْتَحْسِن ، وأُبلُغْ ماتهْوَى ، فليسَ واللهِ مِنْكَ بُدّ ، ولا عَنْكَ غِنًى .

والصّبْرُ عَلَيْكَ أهْوَنُ مِنَ الصَّبْرِ عَنْك ، لأنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ مَقرُونٌ باليَاس ، والصَّبْرَ عَلَيْكَ رُبَّمَا يُؤَدِّى إلى رَفْعِ هـذَا الوَسْوَاس ، والسّلَامُ لِأهْلِ السلام .

صورة ما كتبه الناسخ فى آخر النسخة المرموز إليها بحرف (ا)

تم الجزء الثالث من كتاب « الإمتاع والمؤانسة » بحول الله وحسن توفيقه ، فى شوال سـنة خمس عشرة وثمانمائة ، على يدِ أضعف العباد شرف بن أميرة ، أصلح الله شأنه ، فى مصر المحروسة ، حماها الله تعالى من الآفات والعاهات ، ومن عوادى الزمان . آمين يا رب العالمين .

تم الـكتاب

---

(١) كذا ورد هذا الـكلام فى الأصل . وفيه تحريف ظاهر لم نهتد الى وجه الصواب فيه .

(٢) على تيقّنه ، أى مع تيقنه . « ويكون » هنا تامّة .

فهرست الأعلام

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(ع)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

تم فهرست الأعلام

فهرست أسماء الأماكن

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

تم فهرست الأماكن

فهرست الكتب

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدىّ

تم الفهرست

فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق

الواردة فى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

تم فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق

ملاحظات للدكتور مصطفى جواد

الأستاذ بمدرسة المعلمين العليا ببغداد

على بعض ألفاظ وردت فى الجزء الأول والثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة ننشرها فيما يلى مع جزيل الشكر لكاتبها الفاضل على حسن نيته وجميل تقديره لما بذلناه فى تصحيح هذا الكتاب من جهد .

الجزء الأول

١ — ورد فى الصفحة « م » من المقدمة فى السطر ٥ « لأبى على الحسن التنوخى » والصواب « المحسن » .

٢ — س ٦ س ٥ « فوارضها » . الصحيح « عوارضها » .

٣ — س ١٣ س ٨ « ويكون سبباً قوياً على حسن الحال وطلب العيش » . الصواب « قوياً إلى حسن الحال وطيب العيش » .

٤ — س ١٦ س ٦ « الدهر الخالى من الديانين » . الديان هو الله والأولى « الربانيين » و « الديانين » وهم المنسوبون إلى الديانة . وهذه الكلمة من كلمات القرن الرابع للهجرة تجدونها فى أول صفحة من مروج الذهب للمسعودى .

٥ — س ٢١ س ١ « ولا محاباة ولا انحياش » والصواب « محاوتة » بالتاء ، قال الزمخشرى فى أساس البلاغة « ومن المجاز : حاوتنى فلان عن كذا إذا خادعك عنه وراوغك ، وظل فلان يحاوتنى يخدعه ومعناه يداورنى فعل الحوت فى الماء .

٦ — وفى س ٣٤ س ٩ « ولم يتنوح بردع الفلسفة » وفى الأصل « لم يتفرخ » والصواب « يتضرج » .

٧ — وفى س ٤٠ س ٣ « والأمر الربوبى » بضم الراء . والذى أعلمه بفتح الراء .

٨ — س ٤٤ س ٦ « تأجيل المهنأ » . والذى أراه لمراعاة الأصل « تعجيل المقنأ » أى المبادرة بإظهار الكراهية والبغضة .

٩ — س ٤٥ س ٨ « كيف استكفى هذه الجماعة حوله » وفى الأصل « استكفيت » . فالصواب « استكفت هذه الجماعة حوله » . وفى أساس البلاغة : « واستكف الناس حواليه : أحدقوا به » .

١٠ — س ٥٠ س ٧ « ويعسرنى » . والأولى « ويسّرنى » أى أتاح لى اليسر .

١١ — وجاء فى س ٥١ س ٧ ذكر « الحاسومة » ولم تجدوها فى كتاب لغة . والصحيح أنها

وردت في غير مادتها فقد ذكرها الهروي مؤلف الغريبين في مادة « نعل » من غريب الحديث ، ونقلها عنه المبارك بن الأثير في « النهاية » ونقل عن أحدهما الفيومي في « نعل » من المصباح المنير .

١٢ — ص ٦٢ س ١١ « والتشيع الظاهر والدعوى العارية » الخ . ولا محل للتشيع أبداً والصواب « التشبع » وهو تكلف الشبع ، ومنه الحديث النبوي الشريف « المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبي زور » .

١٣ — ص ٦٨ س ١٢ « بدافع ما يعلمه » والصواب « بدفع ما يعلمه » أي بإنكاره ،

١٤ — وفي ص ٧٠ س ٥ وما بعده حكاية وردت فيها الأعلام مصحفة وكانت جرت في عهد بني أمية فصيرها التصحيف مما جرى في عهد بني العباس . وفي الحكاية ذكر أمير المؤمنين المهدي . فالظاهر أن لفظ « المهدي » تصحيف اسم أمير من أمراء بني أمية كالمهلب وغيره ، وأما « كرز » الوارد في السطر ٧ فصوابه « كردين » وهو من رجال الدولة الأموية كما في عيون الأخبار « ج ١ ص ١٧١ » وأما « دوست » الوارد في السطر ٩ فصوابه « درست » بالراء وهو من رجال العهد الأموي أيضاً كما في البيان والتبيين « ج ٢ ص ١٢٧ » .

١٥ — ص ٧٢ س ١٦ « وهم يحاضون به » والصواب « يتحاضون » .

١٦ — وفي ص ٧٩ س ٢ « ويتعاورون » . والصواب « يتغاورون » أي يغير بعضهم على بعض .

١٧ — ص ٨٧ س ١٠ « وقنع باليسير ورخي العيش » . والصواب « باليسير من رخي العيش » .

١٨ — ص ١٠٣ س ١١ « كان يخبط في هواه » وفي الحاشية أنه « يحط » وأنه تصحيف استوجب التصحيح . قلت : وهذا غير صحيح ، فالأصل هو الفصيح ، قال الزمخشري في أساس البلاغة « وحط في هواه وانحط فيه ، ويقال : أكل من حلوائهم فانحط في أهوائهم » .

١٩ — ص ١٠٩ س ٢ « المصاع من صاع الشجاع أقرانه إذا حمل عليهم ففرق جمعهم » والصواب « ماصع يماصع » أي ضرب بالسيف خاصة .

٢٠ — ص ١١٩ س ١٢ « أن يبرر لهم ما صح له بالاعتبار » . والصواب « أن يبرز لهم ما صح » .

٢١ — ص ١٣٩ س ٧ « ويهم فيهز » والصواب « يشتم » من الشتم .

٢٢ — ص ١٤١ س ١٣ « إلا أنه يأتي لابن عباد في سمته » . والصواب « تأتّى » أي ترفق وتلطف .

٢٣ — ص ١٤٢ س ١٤ « أو أقلع عن كبيرة رغبة » . والصواب « رهبة » .

٢٤ — ص ١٤٤ س ١٣ « وسمن بعروا » والصحيح « سمن البعر » وهو مذكور في حياة الحيوان .

٢٥ — ص ١٥٨ س ٧ « كل شىء يطلبه ويتوخاه » : الصواب « ويتوخاه » .

٢٦ — ص ١٦٢ س ٩ « العقاب يجلس » والصواب « تجلس » .

٢٧ — ص ١٦٨ س ٥ « إلى أن يترحل النهار » ترحل النهار يدل على عكس المراد بالحكاية . والصواب « يترجل » أى يعلو ويرتفع .

٢٨ — ص ١٧٠ س ٤ « ويستخفى فى البحر » ، والصواب « فى الشجر » .

٢٩ — ص ١٧٥ س ١١ « ثم المقد فى لبن » . الصواب « أنقعه » ومصدره الإنقاع أى رطبه وربيه باللبن .

٣٠ — ص ١٧٦ س ٣ « حوت يقال له : موق » . الصواب « مَوْتَى » منسوب إلى الموت ، لأنه يتماوت ويتهالك .

٣١ — ص ١٨٠ س ٤ « دابة يقال لها بالفارسية دوباست » . والصواب « بادستر » وهو « الجند بادستر » .

٣٢ — ص ١٨٢ س ٨ « الجرذان » . والصواب « القردان » جمع القراد .

٣٣ — ص ١٩٠ س ٦ « لسرعة إحناء أجنحته » والصواب « إعياء أجنحته » .

٣٤ — ص ١٩٧ س ١ « بما هاج الحبيب حبيب » صوابه « كما هاج الحبيب حبيب » .

٣٥ — ص ٢٠٠ س ١٤ « تحركه وتحسسه » . الصواب « تحثثه » .

٣٦ — ص ٢٢١ س ١٢ « من لقبه الحربى إلى أى شىء ينسب » . والصواب اللازم صوبعة الحرسى إلى أى شىء تنسب .

الجزء الثانى

٣٧ — ص ٥ س ١٠ « ولقنوها الناس » . والصواب « لقنوها الناس » فالفعل متعد إلى المفعولين بنفسه .

٣٨ — ص ١١ س ٥ لـكن الحريرى غلام ابن طرارة هيجه يوماً فى الوراقين . الصواب « الجريرى » نسبة إلى مذهب محمد بن جرير الطبرى المشهور والصواب ابن طرارة (بتخفيف الراء) لا تشديدها .

٣٩ — ص ١٢ س ١٣ « ومزقتم بين مجتمعين » . والصواب « وفرقتم بين مجتمعين » .

٤٠ — ص ٢١ س ٦ وإن هذا النعت من قولى ... » . الصواب « وأين » .

٤١ — ص ٣١ س ١٨ « الأفعى تأخذ السم من الأصيلة » . صوابه « من الأصَلَة » وهى نوع من الحيات .

٤٢ — ص ٤١ س ٥ « طالخات بالسلام » . صوابه « طالخات بالسنام » .

٤٣ — ص ٥٩ س ١٤ شرحتم كلمة « الصراة » بأنه نهر بالعراق ، وكان الأولى أن يقال « نهر كان ببغداد » .

٤٤ — ص ٦٠ س ١ « ويا قصراً بلا مسناه » . الصواب « المسناة » وهى البنية التى تبنى بين القصور وماء النهر لتحفظها من الماء .

٤٥ وجاء فى ص ٧٩ س ١ « وقلت لابن الجلاء الزاهد بمكة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ... » والذى فى تاريخ بغداد « ج ٥ ص ٢١٣ » للخطيب البغدادى وأنساب السمعانى مادة « الجلاء » أن ابن الجلاء توفى سنة « ٣٠٦ هـ » .

٤٦ — ص ٩٣ س ١٢ « من صبر باب » . والمحفوظ فى الحديث « صبير » .

٤٧ — ص ١٣٦ س ٩ « ظاهر النفع فى معاينة الروح » . والصواب « معايشة الروح » .

٤٨ — ص ١٤٣ س ١٠ « ومقاساة الحُرقة » . والصحيح « الحرفة » أى الفقر والعوز .

٤٩ — ص ١٥٦ س ٥ « فلما أجمعنا على العجن والملك لم نجد الحراق » ، والصواب « الملّ » وهو الاختباز على « الملة » أى الجمر المختلط بالرماد .

٥٠ — ص ١٥٧ س ٥ « الانخزال » . والصواب « الانخذال » .

٥١ — ص ١٦٢ س ٧ « والزيادة والرفع » . والصواب « الزيع » .

٥٢ — ص ١٦٧ س ٦ « [القاطن] فى دار القطن عند جامع المدينة » صوابه القاطن فى دار القطان كما هو فى الأصل .

٥٣ — ص ١٧٠ س ٥ « تسحب الخاطر » . الصواب عندى « تشعب الخاطر » .

٥٤ — ص ١٧١ س ١٣ « ولا طرب ابن صُبْر القاضى » . قلت : الصواب « ابن صُبَر » بضم الصاد وفتح الباء .

٥٥ — ص ١٧٤ س ٩٠ « وقد علق عناقا فهذاهُم كما كنّا » . والصواب « هَم » بفتح الهاء وهو موضع النكتة التى جاء الخبر من أجلها فإنه استعمل « هم » العامية العراقية بمعنى « أيضاً » ولا يزال العراقيون يستعملونها ، والكرد أيضاً ، قال الحريرى فى درة الغواص « ويقولون للمخاطب هم فعلت وهم خرجت » فيزيدون هَم فى افتتاح الكلام وهو من أشنع الأغلاط ، وعن الأخفش أنه قال لتلامذته : جنبونى أن تقولوا هَم : وأن تقولوا بَس وأن تقولوا ليس لفلان بخت » . ولذلك قال أبو حيان : « وأصحابنا يستملحون قوله هَم ها هنا » . ولا استملاح مع « هُم » .

٥٦ — ص ١٧٦ أيضا س ١٢ « إذا أخذت فى هزارها » . وفى الحاشية اعتذار من الغموض . قلت : الهزار ها هنا من الفارسية بمعنى « الأنشودة » .

٥٧ — ص ١٨٠ س ٣ « والبوارد والجوزيات » . قلت : أما البوارد فقد ذكرها محمد بن الحسن بن الكريم البغدادى فى كتابه « الطبيخ » ص ٥٦ فقال « الباب الخامس فى المطجنات والبوارد ... » وشرحها بلا داع طابع الكتاب فقال « هى البقول المطبوخة الموضوعة فى الأحشاء

الحامضة كالخل وماء الحصرم وماء التفاح (كذا) . . . » وأما « الجوزيات » فالظاهر أنها تصحيف « جوذابات » جمع « جوذابة » وهي معروفة بين ألوان الأطعمة والحلوى .

٥٨ — ص ١٨٩ س ١٢ « ما يُكسبك الفكر » والصواب « يَكسبك » بفتح الياء لأنه متعد إلى مفعوليه بنفسه .

٥٩ — ص ١٩٥ س ١١ « مستفر بذنبه » . والصواب « مستثفر » من الاستثفار وهو معروف .

٦٠ — ص ٢٠٢ س ١١ « والقديم قدم » . وعندي أن الأصل « والعديم عدم » . والله يوفقنا وإياكم للصواب .

مصطفى جواد

ملاحظات للأستاذ كراوس

على الأجزاء الثلاثة من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى

الجـــزء الأول

ص ٣٨ : ٤ : بُكَكُش ، والصواب : بَكَكُش (= Bakksus) .
٥٨ : ١٠ : ابن نُوبخت — ابن نَوبخت .
« تعليق ٢ : كان على بن ربن الطبرى نصرانياً لا يهوديا أسلم .
٧٩ : ٩ : بغفور ، صححه كرد على فغفور ، والصحيح : بغفور .
١٦٤ : ٣ : أديوس ، والصواب : أديسوس (Odysseus) .
« : ٧ : المنتصب ، والصواب المصمت كما فى الدميرى .
١٩٨ : ١٤ : و ٢٠٢ : ٢ : بحس من الإحساس ، والصواب : الأحساس جمع حس .

الجزء الثـــانى

ص ٧٧ : ٦ : وهذا أشجعى ، والصواب : إسحاق ، والإسحاقية فرقة من غلاة الشيعة قريبة المنصب من النصيرية ، ذكرها الشهرستانى والجرجانى فى التعريفات وغيرها ومؤسسها أبو يعقوب إســحاق بن محمد بن أبان النخعى الـكوفى المتوفى سنة ٢٨٦ هـ .
« « : « : قَطعىّ . والأصح : القِطعِّى .
« ٧٨ : تعليق ١ : ليست الراوندية من أتباع ابن الراوندى الملحد بل هم فرقة من أتباع عبد الله الراوندى ، قالت بألوهية الخليفة منصور من آل بنى عباس ، راجع مقالات الأشعرى ص ٢١ وابن حزم ج ٤ ص ١٨٧ وابن الأثير فى وقائع سنة ١٤١ وما إليها من المصادر .
« ٨٤ : ١٥ : و ٨٥ : ٢ : استثباتها ، وفى الأصل « أسباب إثباتها » أو « إثبات إثباتها » — أما الصواب بلا شك أنه « إثبات أَنِيَّاتها » .
ص ٨٤ : ١٦ : إلى تحقيق إثباتها ، وفى الأصول : ما ينالها أو مسابتها — والصواب : إلى تحقيق ماتيتها ، والماتية تقابل الإنية .
٨٧ : ٢ : العبارة « بمنزلة » صحيحة وهى ترد هكذا فى كثير من الـكتب المترجمة من اليونانية ومعناها « مثل » .
٨٧ : ٥ : والمُرَّيَتان ، والصواب : والمِرَّتان ؛ أعنى المرة السوداء والمرة الصفراء .
٨٧ : ٦ : الأربع ، والأصح : الأربعة .

٩١ : ٢ : بالاستمرار : والصواب الاستمرار .

« : ١٠ : ورضوا بالزهد ، وأظن الصواب : ووَصَّوا كما فى س ١٢ .

١٠٥ : ١٢ : لعل الصواب : أحذر [من الذئب (أو الغراب) وألص] من العقعق . راجع الأمثال للميدانى .

١٠٧ : السطر الأخير : الطَّلَق ، والصواب الطَّلْق .

١٠٨ : ٥ : يرسخ ؟ لعله يرشح ؟

١٠٨ : ٧ : الشُّكّ ، والصواب الشَّكّ .

١١٣ : « : بالحد والاسم ، أليس الصواب : بالحد والرسم .

« : ١٠ : و ١١ : ماله فيه (منه) ، والصواب عندى مائيته أو ماهيته .

١٥٣ الخ : ليس اسم الشاعر اليونانى كندس بل هو إيبقُس (Ibykos) كما فى الأصول وقصته مع الكراكى مشهورة متداولة عند كتاب اليونان ، وقد اختارها Sobieecz موضوعاً لقصيدة له — أما اسم الملك فلا شك أنه محرف ، وكان المنتظر أن يكون Polykrakes الذى عاش إيبقس الشاعر فى أيامه . ويلاحظ أن اسم إيبقُس مصحَّح فى فهرس الأعلام لهذا الجزء . فراجعه .

١٥٧ الخ : ينبهنى صديقى M. Stern على أن هذه القصة (قصة المجوسىّ واليهودى) وردت فى رسائل إخوان الصفاء فى الرسالة التاسعة من الجزء الأول منها (ص٤٦ من القسم الثانى من الجزء الأول من طبعة بمباى) .

١٥٧ : ١٥ : سفرة ، وفى الأصول : فى سفره ، والصواب ، كما فى رسائل إخوان الصفاء : بغلة له عليها [كل ما يحتاج إليه للمسافر] فى سفره .

الجزء الثالث

ص ١٠٨ : ١٦ : النفس عَدَد محرك بذاته ، كذا فى كلتا النسختين وهو صحيح لا يحتاج إلى تصحيح «عدد» بعَرَض — وهو حد مدرسة فوثاغورس للنفس ، راجع الترجمة العربية للآراء الطبيعية لفلوطرخوس التى نشرتها فى ملحق بحثى عن جابر بن حيان (ص ٣٢٢ من الجزء الثانى) : « وأما فوثاغورس فيرى أن النفس عَدَد محرّك ذاته ويعنى بقوله العدد العقل » — ولعل الأصح أن يقرأ فى «الإمتاع» محرك ذاته أو متحرك بذاته .

١٣٠ السطر الأخير : موريس ؟ لعله أموريس ؟

١٤٢ : ٢ ، ١٥ وكذلك ١٤٤ : ١٣ : الإحساس ، والصواب : الأحساس ، جمع الحس .

١٥٣ : ٧ : أظن أن قراءة نسخة ب (باب الشيعة) صحيحة ، فإن الشيعة تسمى رئيسها الذى يلى فى الترتيب الإمام النائب باباً .